مقامات الحريري



الكتاب الذهبي

دار ثقافة الاطفال

مقامات الحريري

مقامات الحريري

أعد النص
محمد الجزائري

دار ثقافة الأطفال — كتاب التراث الذهبي

■ الإهـداء:

الى الشيخ الرئيس ابي محمد القاسم بن علي الحرامي البصري الحريري مبدعا متميزا، مشعا، ولما يزل.

والى احفاده الذين يواصلون مهمة صنع المستقبل دائما.

المقامة الاولى
الصنعانية

«حدث الحارث بن همام قال : لما اقتعدت غاب الاغتراب ، وانأتني المتربة عن الأتراب ، طوحت بي طوائح الزمن الى صنعاء اليمن، فدخلتها خاوي الوفاض ، بادي الانفاض ..» .

اصاب الضنك والعوز الحارث بن همام ، فابتعد عن وطنه واصدقائه مهاجرا مغتربا جوالا بين المدن والامصار حتى حل بمدينة صنعاء في اليمن ، فدخلها معدما لا يملك مالا ولا زادا ، بل كان يعوزه حتى القليل اليسير من الطعام ليسد رمقه ، فتجول في طريق يسلك كي يلتقي كريما يبوح اليه بحاجته ، اويلتقي اديباً اوراوية أخبار تفرج رؤيته ذلك الحزن الذي انتابه وكي يستفيد من ادبه واخباره .. حتى اوصلته جولاته وبحثه الى مكان فسيح ازدحم فيه الناس ، فسمع بكاء عاليا ، فدفعه فضوله لان يحشر نفسه بين القوم كي يتبين اسباب النواح ، فلاحظ وسط الحشد شيخاً نحيفاً تبدو عليه اثار السفر ، يبكي بلوعة ، اثناء حديثه الواعظ ، وكأنه يرثي رجلاً مات ، او يرثي الحياة برمز الانسان .. وقد تميز كلامه بالجمال ، والتنميق وكأنه الشعر ، فسحرت بلاغته الحاضرين ، وظل الحارث يستمع الى هذا الشيخ مستفيداً من ادبه وعلمه وبلاغته ووعظه وحسن ادائه ..

تساءل الشيخ الواعظ الى متى يبقى الانسان يقوم بالاخطاء فسيتطيبها ، اذ لا يتوقف عن لهوه وزهوه ، فيجاهر ويتظاهر بأخطائه ومعصياته وسوء سيرته بجرأة ووقاحة ، وكأن لا حساب ولا عقاب ينتظرانه . ويتساءل ترى ماذا سيفعل هذا الانسان المغرور ، الخاطىء ، يوم الحساب ؟ فهل سينقذه ماله يوم لا ينفع ندم ، ولن يعطف عليه احد ..

ثم يعظ الشيخ الناس لاتباع طريق الصلاح ، ومجابهة الظلم ، والكف عن اتيان القبيح والفاسد من الاعمال ..

اما الموت فهو ميعاد كل انسان ، وهو حق .. لذا طالب هذا الشيخ بأن يجعل الانسان من عمله الحسن قدوة ، في ماله وحلاله ، ومركزة ، وأردف الشيخ كلامه النثري المسجوع والجميل المليء بالحكمة والموعظة ، والتذكير والتنبيه بأبيات من الشعر .. بعد ذلك صمت لحظة فابتلع ريقه ، وحمل قربة مائة على عضده ، وجعل عصاه تحت أبطه كمن يتأهب للمغادرة ، فبادر القوم باخراج نقودهم من جيوبهم ليمنحوا الشيخ الواعظ العطايا ، فقبل منهم المال واحداً واحداً ، ثم راح يودعهم ، وهو يشق طريقه بينهم ، مفرقا من يتبعه كي لا يعرف احد مكانه . فلما ابتعد قليلا ، تبعه الحارث سراً ، دون ان ينتبه الشيخ اليه حتى وصل الشيخ الى مغارة ، كالكهف ، فدخلها بسرعة ، فأنتظر الحارث قليلا ، ريثما يستريح الشيخ ويخلع نعليه ويغسل رجليه .. ثم دخل عليه فوجده مجالسا احد تلاميذه وقد وضع الخبز الابيض واللحم المشوي امامهما مع قنينة نبيذ ،..

فقال له الحارث : هل تخدع الناس بالموعظة ، لتأخذ اموالهم ، ثم تنتهي بها الى شرب الخمرة ؟ ..

فاضطرب الشيخ ، وغضب حتى كاد ان يثور بوجه الحارث ، وهو يحدق فيه .. ثم لما هدأت سورة غضبه وخف انفعاله ، القى الشيخ بابيات من الشعر على مسامع الحارث ، وكأنها الجواب على تساؤله ولومه ، معناها انه لم يرتد لباس الوعاظ الا لينال مراده من اللذة والطعام ، فهو يجعل من وعظه شباكا يصطاد بها الناس وينال عن طريقهم ما يريد ، ولكن بالحيلة والخداع ..

ثم دعا الشيخ الحارث ان يشاركه وتلميذه الطعام والشراب ، او ان يغادر المكان فورا .. فالتفت الحارث الى التلميذ وناشده بأن يخبره من هذا الشيخ فأعلمه بأنه «ابو زيد السروجي» سراج الغرباء وتاج الادباء .

فانصرف الحارث من حيث اتى ، وقد رأى العجب .

المقامة الثانية
الحلوانية

«حكى الحارث بن همام قال : كلفت مذ ميطت عني التمائم ، ونيطت بي العمائم ، بأن اغشى معان الادب ، وانضي اليه اركان الطلب ، لأعلق منه بما يكون لي زينة بين الانام ، ومزنة عند الاوام ..»

كان الحارث بن همام محبا للادب منذ صباه ، وكانت العرب تعلق التمائم والتعاويذ على الطفل حتى اذا بلغ الصبى انزلوا عنه ذلك ، وألبسوه العمامة وقلدوه السيف إعترافاً بفتوته ..

وكان الحارث يبحث عن معاني الادب ونوادره وجيد الشعر وطرف الاخبار ، حد بذل الجهد ، والارتحال من بلد الى آخر ، مسافراً على ناقته ، طالبا ذلك ليحصل منه بما يجعله زينة بين الناس .

وكان من شدة ولعه بالادب وتتبع اخباره وتعلمه ، والظهور بمظهره ليباحث الكبير والصغير ، والعالم والفقير ، كي يطفيء ظمأه منه .. فيشغل نفسه به من اجل المزيد من المعرفة بفنونه ..

وإبان جولاته ، وصل مرة الى مدينة حلوان ، وهي بلدة تقع ، آنذاك ، بين بغداد وهمذان سميت باسم بانيها وهو حلوان بن عمران بن الحاف ، وهو من قبيلة قضاعة .

ولقد جرب الحارث ، في اسفاره ورحلاته ، الاخوان ، وعرف مقادير الناس فالتقى في هذه المدينة شيخنا السروجي ، وهو يتقلب في الانساب مدعيا مرة بأنه من آل ساسان ، الذين مارسوا الكدية بعد ان كانوا أصحاب ثراء وملك ، كما يدعون .. ومرة يدعي انه ينتسب الى (غسان) وهم ملوك الشام .. لكن الحياة وتقلبات الزمان ، اضطراه الى التكسب والارتزاق بالكدية والشحادة ، فيبرز مرة في زي الشعراء والعلماء ، ويتظاهر حيناً بمظهر العظماء ، غير انه مع تلون حاله ومكره وكذبه ، كان يبدو حسن المنظر ، يمتلك بلاغة رائعة ، وبديهة فائقة ، ومرونة عالية ، ومعرفة واسعة بالادب وفنون القول . فكان ، بذلك ، يجيد الاختلاط بالقوم ، ومصاحبته لهم ، بما يمتلك من لسان بارع ، واطلاع واسع ، يجعلهم يميلون اليه ، ولا ينتبهون الى عيوبه ومساوئه ، بل ولا يكتشفون خدعه وحيله .. فقد بهرهم بالملاحظة ولين القول وحضور البديهة والفطنة والذكاء .. وهكذا استطاع ، ايضاً ، ان يجذب له الحارث ، فيدنو منه ويصاحبه ، ويظل مخلصاً لوده ، كي يجلو به همومه ، ويواجه به الزمان طلق الوجه ، مشرق المحيا ، فقد كان بالنسبة اليه رحمة وغنى مكانة ، وارتياحاً ، وبذات الوقت ، منهلا عذباً للادب وفنون القول .

وهكذا لبثا على هذه الصداقة والرفقة مدة من الزمان ، يقدم ابو زيد للحارث ، كل يوم ، فائدة ، ويدفع عن قلبه الهموم والأحزان .. حتىٰ .. جاء ذلك اليوم الذي أغراه الفراق ، بعد أن أضطر الفقر والعوز أبا زيد للبحث عن مكان آخر للتكسب والارتزاق ، فغادر العراق مضطراً .

وهكذا إفترق الصديقان ، وظل الحارث مهموماً يتجاذبه القلق ، إذ إنه ما إرتاح الا لصداقة أبي ، زيد ، نداً لفضله ، وصاحباً بمثل خصاله وصداقته ، حتىٰ إختفت تماماً أخبار أبي زيد عن الحارث ، فلم يعرف مكان سكناه وماحل به زمناً طويلاً ..

ولما عاد الحارث من غربته واسفاره ، حيث موضع إقامته ومسقط رأسه في البصرة ، زار يوماً دار الكتب التي كانت منتدىٰ المتأدبين ، وملتقىٰ القاطنين والزوار ، واذا به يرى شخصاً ذا لحيةٍ كثة ، وهيئة رثة يدخل المنتدىٰ ، ويسلم علىٰ الجالسين ويتخذ له مكاناً منعزلاً ..

ثم .. بدأ يقول أحسن محفوظاته ، ويظهر فصاحته .. فأنتبه الحاضرون الى جميل كلامه فأعجبوا به .. فسأل الجالس جواره عن الكتاب الذي ينظر فيه فأجابه جاره بأنه ديوان (أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري) المشهود له بالجودة ، فسأله أبو زيد : وهل

فيه من بديع استحسنة ، فقال نعم ، وأنشد له بيت البحتري:

كأنما تبسم عن لؤلؤ
مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

فان البحتري أبدع في التشبيه المودع في هذا البيت ..

فقال الشيخ: ياللعجب ولضيعة الأدب ،.. وراح يلوم الرجل لأنه (استسمن ذا ورم) و(استعظم) ماليس بعظم.. و«نَفَخَ في غير ضرم» (وهو مثل يضرب لمن يضع الشيء في غير موضعه).. ثم راح الشيخ ينبهه الى بيت نادر غريب أجمل وأبلغ من بيت البحتري ، جمع فيه الشاعر أجمل مافي الثغر الباسم من وصف ، وأنشد له:

نفسي الفداء لثغر راق مبسمه
وزانه شنب ناهيك عن شنب
يَفْتَرُّ عن لؤلؤ رطب وعن بردٍ
وعن أقاح وعن طلعٍ وعن حببِ

فأنتبه الجالسون الى هذه المناظرة ، في الشعر الرقيق ، فأستحسنوها منه ، فأستعادوا قراءتها ، وسألوه عن منشيء هذا الشعر وهل قائله حي أو ميت ، فقال وهو يحلف لهم ، بأن هذا الشعر له..

قال الحارث: وظهر على الجماعة الشك ، وكأنها استرابت بنسبته الشعر إليه..، ونظر لهم الشيخ وأدرك شكوكهم واستنكارهم فخاف ان يذموه أو يصموه بالعار فقرأ الآية الكريمة «إن بعض الظن إثم» ثم راح يخاطبهم مادحاً مكانتهم ، وكونهم رواة الشعر القريض ، واصحاب العلم الصحيح ، وان حقيقة الأمر تظهر بالإختبار ، واقترح أحد الحاضرين أن ينشيء بيتاً على غرار .

بيت الشاعر ابي الفرج الواواء الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً
وعضت على العناب بالبردِ

(وفي هذا البيت يشبه الشاعر الدمع بالؤلؤ ، والعين بالنرجس ، والوجنات بالورد والانامل المخضوبة بالعناب ، والثنايا بالثلج) فلم يكن من الشيخ حتى أنشد جواباً على ذلك ، مقدماً الغريب الذي لم يسمعوه:

سألتها حين زارت نضو برقعها الـ
قاني ، وإيداع سمعي أطيب الخبر

فزحزحت شفقاً غشىٰ سنا قمر

وساقطت لؤلؤاً من خاتمٍ عطرِ

فحار الحاضرون لبداهته ، واعترفوا بنزاهته وبراءته من الشك بأمكانياته .. ثم اعترفوا له بفضل الإجادة والتفوق ، فأكرموه واحسنوا اليه .

وكعادة الحارث ، فإنه يبحث عن سر هذا الشيخ المتخفي تحت ثيابه الرثه والذي تنافس مع القوم بالشعر الرقيق وفاز عليهم ، وقبل ذلك تنابز بالانساب .. فاكتشف انه ليس سوى صديقة ابي زيد السروجي ، ففرح لذلك اللقاء .

المقامة الثالثة الدينارية

«تعارجت لارغبة في العرج

ولكن لأقرع باب الفرج

وألقي حبلي علىٰ غاربي

وأسلك مسلك من قد مرج

فإن لامني القوم قلت إعذروا

فليس على أعرجٍ من حرج»

دخل الحارث بن همام الى منتدىٰ، مع أصدقاء له ، يتجاذبون الشعر وطريف الأحاديث ، وإذا برجل يقف بينهم يرتدي ثياباً بالية ، وفي مشيته نوع من العرج ، فخاطبهم محيياً مادحاً إياهم ، بأخبار الناس وبشائر العشائر وطليعتها ، وتمنىٰ ان يكون شرابهم طيباً .. وراح يحدثهم عن شخص كان صاحب مجلس عامر ، وغنىٰ وعقار وبساتين نخيل وكرم وجود لكن الزمن عبس بوجهه ، فلاقىٰ العذاب وشر الحساد ، وأحاطت به الكوارث والنوائب حتىٰ خلت يده من الرزق ، وخلا منزله من القوم ، بعد ان كانت نار المضيف فيه متقدة دوماً ، فأستحالت الدار خراباً ، وأنهك الجوع والفقر أطفاله وعياله حتىٰ بكوا ، بعد ان فقد ماله وماشيته ، فباتوا حفاة جياعاً رق على حالهم حتى الشامت ، وكم تمنوا الموت بعد زوال ذلك الثراء والعز ، لكنهم رأوا الموت بطيئاً لا يستجيب لهم .. وراح هذا الشيخ يناشد كرم واخلاق هؤلاء القوم ، ببلاغة لسان ووصف رفيع، كي يساعدوا ذلك المسكين وعياله وأطفاله ..

فرق الحارث، عند سماعه تلك القصة ، فاخرج ديناراً واعطاه إياه بعد ان طلب منه مدح الدينار نظماً وشعراً .. فانبرىٰ ذلك الشيخ لينشد في الحال اجمل الكلام عن الدينار الذهب ، مضمناً شعره الموعظة والحكمة . كون الدينار قاضياً للحوائج

لخطورته ومكانته ، ولفرط محبة الناس له فقلوبهم مسكوبة ومحفورة فيه ، ومالكه يستطيع ان يقهر به الآخرين ، فإن غاب عن الشخص ضعفت عشيرته وأقاربه ،.. فبقوة المال استتبت الكثير من الامور ، وكم مترف لولا الدينار لمات حسرة ، وكم هم هزمه الدينار ، وكم أسير خذلته عائلته وخلت بينه وبين عدوه خلصه الدينار وأنقذه .. ولولا التقى والايمان بالله لقال عنه (جلت قدرته)..

وحين انجز الشيخ مدحه للدينار ، وتسلم من الحارث استأنس لفكاهة هذا الشيخ وطرافته ، فأخرج له ديناراً آخر وطلب من الشيخ ان يذم الدينار ، ليكون له ..فأنشد مرتجلاً وبعجالة أبياتاً اخرى اعتبر فيه الدينار خادعاً وأصفر منافقاً ذا وجهين ، ولولاه لما تقطع يد السارق ، ولاشمأز بخيل من طارق وسائل .. فالدينار هو خادع صاحبه ولايصافي الود ، ولولاه لما اشتكى صاحبِ الدين تأخير دينه ، وعجباً لمن يلقيه فيخرجه من يده بحيث لايرجع إليه ، فأنه يقضي حاجته وينال مراده فالأول يحب فراقه والثاني يحب اشراقه ...

فأعجب الحارث ببلاغة الشيخ ومعرفته الرفيعة ، فاعطاه الدنيار الثاني وهكذا تسلم الشيخ الدينارين ، وغادر المكان وهو يمتدح المجلس وأهله ..فشك الحارث بان هذا الشيخ ليس سوى صاحبه أبي زيد السروجي وإن تظاهره بالعرج ليس الا واحدة من حيله ، فطلب عودة الشيخ ورجوعه الى المجلس ، مبدياً إعجابه بكلامه ، وطلب إليه ان يستقيم بمشيته فقال الشيخ ساخراً : ان كنت ابن همام فحييت بإكرام وعشت بين الكرام فأكد له الحارث هويته ، وسأله عن حاله وما حدث له من الأمور والوقائع ، فقال ابو زيد انه تقلب في الحالين شدة الفقر وسعة العيش والرخاء وعاش مع السهولة والصعوبة في الحياة ، فأستفسر الحارث منه عن سبب عرجه ، ووبَخهُ لأن عمره لايسمح له بالهزل بالناس والسخرية منهم وخداعهم . اذ ذاك إختفى الانشراح من وجه شيخنا ، وأنشد أبياتاً عن تظاهره بالعرج ، لارغبة منه في ذلك ، بل لكي ينال العطايا ويقرع باب الفرج ، فإن لامه الناس على ذلك ، فسيقول لهم: «ولا على الاعرج من حرج»..

فدهش الحارث لحيلة السروجي وفطنته ودهائه ومكره في سبيل الحصول على المال ، وكسب انتباه وعطف الناس الى حاله وبلاغته ..

المقامة الثالثة
الدينارية

«تعارجت لا رغبة في العرج ولكن لاقرع باب الفرج
والقي حبلي على غاربي واسلك مسلك من قد مرج
فان لامني القوم قلت اعذروا فليس على اعرج من حرج»

دخل الحارث بن همام الى منتدى ، مع اصدقاء له ، يتجاذبون الشعر وطريف الاحاديث ، واذا برجل يقف بينهم يرتدي ثيابا بالية ، وفي مشيته نوع من العرج ، فخاطبهم محييا مادحا اياهم ، بأخيار الناس وبشائر العشائر وطليعتها ، وتمنى ان يكون شرابهم طيبا .. وراح يحدثهم عن شخص كان صاحب مجلس عامر ، وغنى وعقار وبساتين نخيل وكرم وجود لكن الزمن عبس بوجهه ، فلاقى العذاب وشر الحساد ، وأحاطت به الكوارث والنوائب حتى خلت يده من الرزق ، وخلا منزله من القوم ، بعد ان كانت نار المضيف فيه متقدة دوما ، فاستحالت الدار خرابا ، وانهك الجوع والفقر اطفاله وعياله حتى بكوا ، بعد ان فقد ماله وماشيته ، فباتوا حفاة جياعا رق على حالهم حتى الشامت ، وكم تمنوا الموت بعد زوال ذلك الثراء والعز ، لكنهم رأوا الموت بطيئا لا يستجيب لهم .. ، وراح هذا الشيخ يناشد كرم واخلاق هؤلاء القوم ، ببلاغة لسان ووصف رفيع ، كي يساعدوا ذلك المسكين وعياله واطفاله .. فرق الحارث ، عند سماعه تلك القصة ، فاخرج دينارا واعطاه اياه بعد ان طلب منه

مدح الدينار نظماً وشعرا .. فانبرى ذلك الشيخ لينشد في الحال اجمل الكلام عن الدينار الذهب ، مضمناً شعره الموعظة والحكمة . كون الدينار قاضيا للحوائج لخطورته ومكانته ، ولفرط محبة الناس له فقلوبهم مسكوبة ومحفورة فيه ، ومالكه يستطيع ان يقهر به الاخرين ، فان غاب عن الشخص ضعفت عشيرته وأقاربه ،.. فبقوة المال استتبت الكثير من الامور ، وكم مترف لولا الدينار لمات حسرة ، وكم هم هزمه الدينار ، وكم أسير خذلته عائلته وخلت بينه وبين عدوه خلصه الدينار وانقذه .. ، ولولا التقى والايمان بالله لقال عنه (جلت قدرته) ...

وحين انجز الشيخ مدحه للدينار ، وتسلم من الحارث النقود ، تهيأ للانصراف لكن الحارث استأنس لفكاهة هذا الشيخ وطرافته ، فأخرج له ديناراً اخر وطلب من الشيخ ان يذم الدينار ، ليكون له .. فأنشد مرتجلا وبعجالة ابياتا اخرى اعتبر فيه الدينار خادعاً وأصفر منافقا ذا وجهين ، ولولاه لما تقطع يد السارق ، ولا اشمأز بخيل من طارق وسائل .. فالدينار هو خادع صاحبه ولا يصافي الود ، ولولاه لما اشتكى صاحب الدين تأخير دينه ، وعجبا لمن يلقيه فيخرجه من يده بحيث لا يرجع اليه ، فأنه يقضي حاجته وينال مراده فالاول يحب فراقه والثاني يحب اشراقه ..

فأعجب الحارث ببلاغة الشيخ ومعرفته الرفيعة ، فاعطاه الدينار الثاني وهكذا تسلم الشيخ الدينارين وغادر المكان وهو يمتدح المجلس وأهله.. فشك الحارث بأن هذا الشيخ ليس سوى صاحبه أبي زيد السروجي وان تظاهره بالعرج ليس إلا واحدة من حيله، فطلب عودة الشيخ ورجوعه الى المجلس، مبدياً اعجابه بكلامه، وطلب اليه أن يستقيم بمشيته فقال الشيخ ساخرا : ان كنت ابن همام فحييت باكرام وعشت بين الكرام فأكد له الحارث هويته ، وسأله عن حاله وما حدث له من الامور والوقائع ، فقال ابو زيد انه تقلب في الحالين شدة الفقر وسعة العيش والرخاء وعاش مع السهولة والصعوبة في الحياة، فأستفسر الحارث منه عن سبب عرجه ، ووبخه لان عمره لا يسمح له بالهزل بالناس والسخرية منهم وخداعهم ، اذ ذاك اختفى الانشراح من وجه شيخنا ، وانشد ابياتا عن تظاهره بالعرج ، لا رغبة منه في ذلك ، بل لكي ينال العطايا ويقرع باب الفرج ، فان لامه الناس على ذلك ، فسيقول لهم : «ولا على الاعرج من حرج» ..

فدهش الحارث لحيلة السروجي وفطنته ودهائه ومكره في سبيل الحصول على المال، وكسب الناس الى حاله وبلاغته ...

المقامة الرابعة
الدمياطية

«أخبر الحارث بن همام قال ظعنت الى **دمياط**، عام هياطٍ ومياطٍ ، وأنا يومئذٍ مرموق الرخاء ، مومموق الإخاء ، أسحب مطارف الثراء ، وأجتلي معارف السراء .. فرافقت صحباً ..»

سافر الحارث بن همام الى مدينة دمياط ، وهي من مدن مصر تقع على ساحل **البحر ، في سنة مرتبكة** حيث اجتمع الناس فيها وتفرقوا ، وكان يومئذٍ ميسور الحال ، **محبوب الصداقة** ومرموقاً ، وكان يبحث عن المعرفة والثقافة واخبار الادب مع رفقة ، **متفاهمين** ، منسجمين ..

وقد اتخذ الحارث ورفقته نوقاً سريعة ، كي ينتقلوا من موضع شرب ماء الى مكان **آخر** ، دون ان يطيلوا المكوث ، واستمروا يسيرون ليلاً ، حتى سئموا ذلك ، فمالوا الى **النوم** كي يرتاحوا من عناء السفر المتواصل ، فأختاروا أرضاً مرتفعة لينة وندية **فأختارها** مبركاً لأبلهم ومحطة لنومهم ، فما ان أستقروا . وهدأ صوت الإبل ، حتىٰ سمع الحارث صوتاً يقول لسميرهِ حديثاً ممتعاً عن سيرته مع جيرانه واخواته ، فقال له صاحبه: إرع الجار ولو جار ، وابذل الوصال لمن صال ، وإحتمل الخليط ولو أبدىٰ الإفساد ، وأود الحميم والقريب وأحسن إليه حتىٰ لو آذاك .. وأستمر يقول اعذب الكلام في الحكمة والنصائح ، ببلاغة وفصاحه.. حتىٰ وصل الى قوله : اجزل العطاء للضيف ، وانزل محدثي وسميري منزلةَ أميري ، وأحِل أنيسي محل رئيسي ..

فقال له صاحبه: ويحك.. انا اتمسك باخاء من يتمسك بي وباخائي ، ولا آتي سوىٰ الذي يوافقني ويساعدني ، ولا اراعي العاصي المستكبر ولا أصافي من جهل مقداري

وراح يكثر من هذه الأقوال ، التي استمدها من خبرته . في الحياة والناس .. ومن بين الحكم التي قالها: لاصنع الجميل عند اعدائي فيضيع ، ولا اسمح بمؤاساتي لمن يفرح بمأساتي ، ولا أصف دائي الا للخليل. الودود.. ولايجوز ان أبذل وتبخل ، وألين وتخشىٰ ، وأذوب وتجمد ، وأذكو وتخمد..

لا والله بل نتوازن ونتماثل ونتساوىٰ في المقال وزن المثقال ونتساوىٰ في الفعال ، ونبتعد عن الحقد والضغينة ، والا فلم أداويك فتمرضني وأرفعك وتستغلني فكيف يجتمع الانصاف والعدل مع الظلم والضيم ، وأي حر رضا لنفسه الذل والنقص ..

ثم أنشد العديد من الأبيات تصب في نفس المعاني فاعجب الحارث بن همام بهذا الحوار واشتاق لمعرفة هذين الشخصين من أدلاء القافلة ..

ولما لاح الصباح ، نهض الحارث مبكراً يتبع جهة ذلك الصوت الذي سمعه ليلاً ، وهو يتأمل الوجوه ويتفحصها حتىٰ أبصر أبا زيد وإبنه يتحادثان وقد أرتديا أثواباً باليه ، فتوجه إليهما بولع وشغف ، ورجاهما الانتقال حيث موضع إبله وإقامته وهو يرثي لحاليهما من سوء لباسهما ، ودعاهما الى التصرف بماله ، ثم .. راح الحارث ينشر بين القافلة ، فضلهما ومكانتهما الأدبية ، ويحث ويحرك الأثرياء علىٰ ان يعطوهما مالاً ، حتىٰ سترا وأغرقا بالعطايا ، وأصبحا من الخلان والأصحاب.. ومضوا في رحلتهم.. وإذ وصلوا الى موضع مناسب يشاهدون من خلاله القرىٰ ، ونيران الضيافة ، رأى أبو زيد إمتلاء كيسه وانجلاء فقره قال للحارث ان بدنه إتسخ وهو يريد الإستحمام في القرية بالماء الحار ، فوافق الحارث علىٰ ان تكون العودة اسرع ، ولم يعتقد ان أبازيد خدعه وهرب وابنه ، فلبث والقافلة ينتظرون ، وينظرون إليه نظرة الناس الى هلال العيد ، حتىٰ انتهىٰ النهار ، فطلب الحارث من جماعته ان يواصلوا الترحال ، بعد ان اتضح ان أبا زيدٍ كذب عليهم،.. وذهب دون رجعة ...

ولما اقترب الحارث من بعيره ليركبه وجد علىٰ السنام ورقة فيها ثلاثة أبيات يعتذر فيها السروجي من الحارث الذي ساعد واعانه لكونه إبتعد عنه لابطراً ولا مللاً ، لكنه ممن إذا أطعم انتشر فقال الحارث: فأقرأت الجماعة ماكتب السروجي ليعذره من عتب ، فأعجبوا به ، وساروا بقافلتهم ، مبتعدين عن المكان ، وقد أطربتهم ملحة شيخنا السروجي .

المقامة الخامسة
الكوفية

«حكىٰ الحارث بن همام قال سَمَرْتُ بالكوفةِ ، في ليلة أديمها ذو لونين ، وقمرها كتعويذ من لجين ، مع رفقةٍ غذوا بلبانِ البيان ، وسَحَبوا على سحبان ذيل النسيان ..» .

سهر الحارث بن همام في الكوفة (وهي مدينة عراقية عربية معروفة وكانت تسمىٰ كوفان).. في ليلة يحتجب فيها القمر تارة ، ويظهر نصفه الآخر منيراً كالفضة ، وكان معه رفاق كلمة وفصاحة وبيان وكأنهم في فصاحتهم يغطون على سحبان (وسحبان رجل من وائل يضرب به المثل في الفصاحة ، وهو أخطب الخطباء ، وله البيت الشعري المشهور:

(لقد علم الحي اليمانون أنني
اذا قلت أما بعد إني خطيبها)

وليس في هؤلاء الرفقة الا من يحفظ عنه دون تحفظ ، فيميل إليه الرفيق ولا يمل منه ، رغبة فيه ولفيض معلوماته .

وهكذا اجتمع هؤلاء الاصحاب في جلسة سمر حتىٰ غروب القمر ، فلما خيم الظلام ، ناموا نوماً خفيفاً ، وإذا بهم يسمعون، عبر الباب ، صوتاً لضيف طارق ، ثم تلتها ضربة مستفتح ، فتساءل القوم عن القادم في هذا الليل المدلهم ، فجاءهم الجواب من رجل دفعه الليل ووحشته الى منزلهم ، وهو أشعث الشعر علاه غبار السفر

الطويل ، وأضناه الجوع وأهوال الطريق فظهر شاحب الوجه مثل هلال الأفق ، وقد قصد هذا المكان طالباً المعروف والضيافة ، وهو ضيف قنوع حر يكتفي بالقليل حلواً كان أم مراً ، وسوف يشيع احسان القوم بين الناس ..

فخدع الحارث ورفقته بعذوبة كلام هذا الضيف ، وسلامة نطقه ، وعلموا من جوابه انه صاحب براعة ، وعبارة براقة ، فأسرعوا الى فتح الباب ، واستقبلوه بالترحاب ..

فقال الضيف: ان ماأنزلني داركم أنني لاتناولت ولاأكلت بضيافتكم حتىٰ تضمنوا لي ان لاأكون عبئاً ثقيلاً عليكم ، ولاتتكلفوا لأجلي طعاماً فرب تخمة أفسدت المعدة وحرمت الانسان من كل مأكول ، وشر الأضياف من أجبر الضيف ان يأكل معه فآذىٰ المضيف بألم ينال الجسم حد المرض . وراح يتحدث عن مضار تناول العشاء متأخراً قبل النوم كونه يسبب ضعف البصر.. واستحسن ان يكون تناول الطعام مبكراً ..

وكأن الضيف أدرك ان القوم استحسنوا كلامه ومنطقه البارع وأثنوا على خلقه الحسن ، فلما أحضر الغلام ماتيسر من طعام وشراب ، وأشعل السراج تأمل الحارث ذلك الضيف فاذا هو أبوزيد ، فهنأ الحارث اصحابه علىٰ هذا المكسب ، لأن السروجي هو بمثابة الأنيس لهم ، فان يكن قمر الشعري (وهي احدىٰ منازل القمر) قد غاب ، فقد طلع قمر الشعر وأضاء بدر النثر ، فسرىٰ الفرح في الجماعة ، وزال النوم من عيونهم ، فرفضوا الراحة التي كانوا ينشدون ، وعادوا الى السمر لنشر الفكاهة وطيب الحديث والمزاح .. وأبوزيد يأكل ويشرب ، حتىٰ اذا انتهىٰ رفع ماتبقىٰ بين يديه ..

فطلب الحارث من ابي زيد ان يتحفهم بنادرةٍ غريبة لم يسمعوها من قبل أو بعجيبة من عجائب أسفاره ، فحدثهم ابو زيد عما إختبر به من عجائب ، وإن مارآه لم يره المبصرون ولا رواه الرواة ، وإن ما عايَنه الليلة قبيل ان يطرق بابهم هو من أعجبها.. فألح عليه القوم ان يحدثهم عن ذلك ، فذكر ان الغربة رمته الى هذه الأرض وهو جائع وفقير ، فنهض حين حل الظلام ، على مابه من تعب ، ليبحث عمن يضيفه رغيفاً ، فساقه الجوع والقضاء العجيب الى باب دار ، وحيا أهلها متمنياً لهم العيش الهانيء والطعام الطيب ، ورجاهم ان يطعموا ابن السبيل، وأن يوفروا له مكاناً ، وهو الذي أضعفه السير والترحال بغير هدىٰ في هذا الليل المظلم ، وكان حائراً لايدري أين يذهب ، فسأل هل بهذا المنزل مورد حلو وإقامة طيبة ، وهل ثمة من يدعوه للدخول ويقول له إبشر؟

فبرز له غلام حسن المظهر يرتدي قميصاً تريدية الصبايا عادة ، وأجابه شعراً بقوله :

وحرمة الشيخ الذي سن القِرىٰ
وأسس المججوج في أم القرىٰ
ماعندنا لطارق اذا عرا
سوىٰ الحديث والمناخ في الذرىٰ
وكيف يقري من نفىٰ عنه الكرىٰ
طوىً برىٰ أعظمه لما انبرىٰ
فما ترىٰ فيما ذكرت ماترىٰ

أي أن الغلام أقسم بالنبي أبراهيم الخليل عليه السلام وبالكعبه المشرفة انهم لايملكون في هذه الدار شيئاً ، وإنَّ ماطرد النوم عنهم لهو الجوع والضعف .

فتساءل ابو زيد (ماصنع بمنزل قفر ، ومضيف يلازمه الفقر) ، ثم سأل الشيخ الغلام عن اسمه ، فقد فتنه واعجبه فهمه وسعة عقله، فأخبره الفتىٰ بأن اسمه «زيد»، وأخبره عن منشئه في البادية بين مكة وبغداد، وانه حل في هذه القرية ، امس، مع اخواله من بني عبس ، وطلب الشيخ من الغلام إيضاحاً أكثر فقص عليه الفتىٰ حكاية نقلها عن إمه «بره»، التي تزوجت، (في عام الغارة وهي وقعة قديمة للعرب ببلدة «ماوان» التي تقع على طريق مكة، بأعلى نجدٍ) من رجلٍ من خيار سروج وغسان ، فلما آنس منها قرب ولادتها وإقترب وضعها ، وكان داهية - كما يقال - رحل وغابَ عنها دون ان تعلم ، فما يعرف أحي هو فينتظره ، أم ميت .؟

فعلم ابو زيد من تلك العلامات ان هذا الفتىٰ هو ابنه زيد ، ومنعه فقره وجوعه من تعريفه بأبوته ، ففارقه وكبده ممزق ودموعه تسيل.. وختم ابو زيد كلامه الى السمار: فهل سمعتهم يا أولي الألباب ، اعجب من هذا العجاب؟

فأجابوا : كلا

فقال: أثبتوها في عجائب الاتفاق . والمصادفات الغريبة ، وخلدوها في بطون الكتب والأوراق.. فما كتبت سيرة مثلها في الآفاق . فأحضر الحارث وصحبه الدواة والأقلام ، وكتبوا الحكاية كما رواها السروجي ، وطلبوا منه ان يضم ولده إليه ، لكنه طلب المال الذي يمكنه من ذلك . وقدموا له «نصاباً» من المال ، والنصاب هو القدر الذي تجب فيه الزكاة وهو عشرون مثقالاً ذهباً ،.. فقبله السروجي ، فقاموا وكتبوا له به إيصالاً فشكر

معروفهم واثنىٰ عليهم كثيراً ، وظل يسامرهم حتىٰ الصباح ، فأمضوا ليلـة جميلة وممتعة ..

وحين حل الصباح قام ابو زيد ليقبض العطايا والهبة ، فقد اشتاق لرؤية ولده ، فساعده الحارث وسهل عليه حاجته فقبض الذهب ، وبرقت اسارير وجهه بالفرح ودعـا لهم بالخـير .. وطلب الحارث من السروجي ان يتبعـه ليلتقي ولـده النجيب ويحادثه ، فنظـر إليه السروجي نظـرة الخادع الى المخـدوع ، وضحك منـه حتىٰ اغرورقت عيناه بالدموع ، وأنشد أبياتاً أظهر فيها خدع الجماعة ، بفنون سحـره وكلامه ، فليس له إمرأة اسمها بره ، ولا ولد به يكنىٰ ، وكل ذلك مجرد حكاية صاغها بابداع ليحتال فيها عليهم وينال منهم المأوىٰ والطعـام والمال ، وطلب قبـول غدره ومسامحته علىٰ مافعل ، فإنه لو ترك إحتياله ليتغرب حاله . ثم ودع الحارث ومضىٰ ، وأودع قلبه ناراً مستعرة .

المقامة السادسة
المراغية

«روىٰ الحارث بن همام قال حضرت ديوان النظر بالمراغة ، وقد جرىٰ به ذكر البلاغة ، فأجمع من حضر من فرسان اليراعة ، وأرباب البراعة ، علىٰ انه لم يبق من ينقح الإنشاء، ويتعرف فيه كيف يشاء..» .

في المراغة وهي موضع بأذربيجان من بلاد فارس ، حضر الحارث بن همام ديوان المكاتبات والمراجعات ، وقد ذكر فيه أمر البلاغة حيث أجمع الحاضرون وكلهم من مهرة الكتاب وفرسان الكلمة ، علىٰ انه لم يبق من يحرر ويهذب الانشاء في المكاتبات . ولم يترك السلف من يتبدع طريقة واضحة حسنة ، ممن خلفهم ، أو ان هؤلاء يمتلكون القدرة على ابتداع رسالة عذراء لم يسبق إليها ..، وان البليغ من كتاب هذا الزمان المتمكن من البيان والبلاغة ليس اكثر من عالة علىٰ الأوائل حتىٰ لو امتلك فصاحة (سبحان وائل)..

واثناء ذلك الحديث ، كان في المجلس كهل جالس علىٰ الحاشية قرب الخدم والغلمان ، يخزر القوم باستهانة وكبرياء كلما تحدثوا،.. ثم يرخي عينيه وينظر ساكتاً ، متحيناً الفرصة للوثوب.. وكأنه ينحت سهام كلامه بأناة وتمهل ليطلقها في الوقت المناسب ، لترن..

وكان جالساً علىٰ ركبتيه.. متحفزاً،.. وما أن فرغوا من جدلهم ونقاشهم وعاد الهدوء ،وسكنت الاصوات المزمجرة ، المنفعلة ، الراعدة ،وسكت الزاجر والمزجور ،

حتىٰ اقترب هذا الشيخ من الجماعة ، وزجر الجماعة بالكلام الذي قاله لهم ، كونهم ابتعدوا عن القصد جداً ، وتحيزوا الى الماضي ، وعظموا العظام البالية ، وتجاوزوا في مدحهم ، فحقروا جيلهم ، الذي فيه من هو في سنهم ولهم معه علاقة ود ، وهم المحدثون في الادب والابداع . فهل نسيتم يانقاد الأدب وحكام الحل والعقد ، ماظهرته القرائح المبدعة ففاق فيه الحديث على القديم ، من العبارات المهذبة الخالصة من العيوب والاستعارات المستعذبة ، والرسائل الموشحة ، والكلام الجميل المسجوع فماذا عند القدماء، غير المعاني المطروقة ، الكدرة ، المحدودة الأفق، المروية عنهم لتقادم الموالد ، لالتقدم الحاضر على الماضي .

وتحداهم بكونه يعرف ، الآن ، من اذا أنشد أبدع وأجاد، واذا اوجز أعجز واذا اتىٰ بمعنى فهو مثل الذهب ، وأذهب العقول وأدهشها.:.

وهكذا انتقد السروجي هؤلاء المتحدثين عن القديم في الادب لانحيازهم له، ضد الحديث المجدد ، فقال له رئيس الديوان وعين أولئك الأعيان ، متسائلاً عن السيد المنفرد بهذه الصفات .. فأجابه شيخنا ، بانه من يقاومك في علمك ويماثلك في المجادلة.. (وإذا شئت إختبر كريماً وأودع مجيباً لترىٰ عجيباً:

فقال له: ياهذا ان ضعاف الطير في أرضنا لايستنسر ، والتمييز عندنا بين الفضة والحصىٰ متوفر .. وقل من تصدىٰ للنضال فخرج سالماً من المعركة ، فلا تعرض تحديك للفضيحة ، وخذ بالنصيحة ، واخرج سالماً ..

ولكن شيخنا تحداه قائلاً: كل امرىء اعرف بقدر نفسه ومايملك . وهكذا إنتبه الجماعة الى هذا التحدى ، فتجمعوا ليعرفوا ماسيحدث من ادعاء الشيخ فقال أحدهم إتركوه لي لأختبره في معضلات النقد ، فوافق الجميع ، وقلدوه الزعامة ، فأقبل على شيخنا وقال: إعلم أني أوالي هذا الوالي وأعدل حالي بالفصاحة والبيان ، وكنت استعين على تعديل أمري في بلدي بمالي الكثير مع قلة أهلي وذوي قرابتي ، ولما كثر عيالي ومسؤوليات بيتي وقل زادي ، قصدته برجائي ودعوته لإعادة وضعي ، فرحب للوفادة وقدم الإفادة ، فلما استأذنته في السفر الى بيتي ووطني فرحاً ، اشترط علي ان يمنحني الزادو الاثاث والمال ، اذا كتبت له رسالة أصف فيها حالي ، بحروف إحدىٰ كلمتيها منقطة والاخرى مهملة (غيرمنقطة) ، وقد شحذت همتي وبلاغتي لمدة سنة كي لاأحار قولاً ولا اراجع كلاماً فما توصلت الى حل ، واستعنت بجميع الكتاب فعبسوا واعتذروا وعجزوا فقدم لنا علاقتك وآيتك ان كنت من الصادقين .

فأجاب شيخنا مفاخراً بنفسه وقدراته واصفاً نفسه كالنهر الشديد الجريان وكالسحاب المطر، وبأنه أهل لذلك، ثم فكر قليلاً، وقال للرجل: خذ دواتك وقلمك واكتب، وأملىٰ عليه الرسالة حسب الشروط التي طلبها منه، وجاء فيها:

«الكرم نبت الله جيش سعودك يزين، واللؤم غض الدهر جفن حسودك يشين، والاروع يثبت، والمعور يخيب.. الخ» وهكذا أملىٰ عليه رسالة شكر احدىٰ كلماتها منقطة والثانية بلا نقط، كما رأينا.. مثل كلمة «الكرم» وهي مهملة بلا نقاط، و «ثبت» منقوطة، وكانت الموعظة والحكمة والبلاغة والبيان الجميل، قد توافرت في هذه الرسالة، التي روىٰ فيها قصة حياته، وشرح حاله وفقره ومعاناته على الرغم مما يمتلك من ثروة لغوية وموهبة بلاغة وفصاحة لسان..

فدهش الجماعة وانبهر الحاضرون بشيخنا، فاحتفوا به كثيراً، ثم سألوه عن أصله ونسبه وموطنه، فأنشد أبياتاً أكد فيها ان اصله غساني، وان بلدته سروج، وراح يصف ايام عزه وغناه بين أهله، ومالحقهم من حزن وأذىٰ بعد ان احتل الروم بلدته، مما اضطره للهجرة، لكون الحر لايرضىٰ حياة العبودية، لذا فهو يسعىٰ في أرض الله بحثاً عن رزقه وحريته..

وبعد هذه الجلسة الصاخبة، وصل خبر شيخنا الى الوالي، فأكرمه وأجزل له العطاء، وأراد ضمه الى ديوانه، لكن شيخنا اعتذر..

وقد إنتبه الحارث الى صفات وشمائل هذا الشيخ فعرف انه صديقه السروجي، فكاد ينبه القوم لعلو قدره ومكانته الآدبية واللغوية لكن شيخنا غمز الحارث بأشارة خفيفة، بأن لايبوح بسره، ولا يتفوه بذكره.. فلما خرج السروجي عامر الحال، مليئاً بالمال واللآليء من مقر الوالي، وقد فاز بالجوائز والعطايا، خرج الحارث ليودعه ويلومه علىٰ إعتذاره عن الانضمام الى الولاية.. فأعرض ابو زيد مبتسماً، وأنشد مترنماً.

لجوب البلاد مع المتربة
احب الي من المرتبة

تكلم في شعره عن حالة الولاة، وان لهم سطوتهم وغضبهم، فليس ثمة من يحفظ المعروف ويديم الاحسان.. فلا يخد عنك لمعان السراب، وحذر من أن يقوم الانسان بعمل يشك في صحة نتائجه، وعواقبه الحسنة.. واختتم أبياته الشعرية بهذه الحكمة:

فكم حاكمٍ سره حلمه
وأدركه الروع لما أنتبه

المقامة السابعة
البرقعيدية

«حكىٰ الحارث بن همام قال: أزمَعْتُ الشخوصَ من برقعيد ، وقد شِمْتُ بَرْقَ عيدٍ ، فكرهِتِ الرحلةَ عن تلك المدينة، أو أشهد بها يوم الزينة..»

قرر الحارث بن همام زيارة قصبة «برقعيد» في ديار ربيعة تقع بعد الموصل وقبل نصيبين في ذلك الزمان.. فلما نظر هلال العيد كره السفر دون ان يحضر الاحتفال بيوم العيد ،لذا قام ـ يوم العيد ـ مع الناس وعلى عادتهم، مرتدياً اللباس الجديد، متوجهاً لإداء صلاة العيد في الجامع، وحين تجمع المصلون وإزدحم الجامع بهم ظهر شيخُ يرتدي كساءً من الصوف الاسود ، معصوب العينين ، وقد جعل تحت عضده شيئاً يشبه المخلاة ، مستعيناً بأمرأة عجوز لتقوده وتدله على الطريق، وكانت هذه العجوز تبدو خبيثه متلونة كالحرباء ..

ووقف هذا الشيخ وقفة من يوشك على السقوط، ثم حيا وسلم على حشد المصلين بصوت خفيضٍ ، خافت ، وراح يتلو الدعاء ، ثم مد يده الى جيبه ليخرج أوراقاً مكتبوبة بأقلام ملونة ، فاعطاها للعجوز الماكرة ، وأمرها بأن تتفرس بالزبون، فمن آنست كرمه وعطاءه اعطته ورقة من تلك الأوراق ..

وهكذا كان من حصة الحارث احدىٰ تلك الأوراق ، وقرأ ماكتب فيها، اذ احتوت أبياتاً شعرية بليغة ، عالية الصنعة، تشكو الحال وكثرة العيال ، وتطلب المساعدة والعون في الحال ..

وهي شكل مبتدع وجديد ، وجميل من أشكال الكدية والإحتيال ومع ذلك ، أعجب الحارث بهذه الوسيلة البليغة للتكسب شعراً ، وتاق لمعرفة ناظم الشعر وناسخه ، فأرشده تفكيره بأن الوسيلة الى ذلك ليست سوى تلك العجوز الشمطاء ، وباكرامها.. فظل يرصدها ويراقبها وهي تتبع الصفوف صفاً صفاً ، وتستلم القليل القليل من الأكف كفاً، كفاً.. ولما أتعبها الكد، وخاب ظنها بالعطايا، والعطاء رغم الرجاء ، طافت بين الجميع ، واسترجعت الرقاع، ونسيت رقعة أو ورقة الحارث ، اذ لم يقترب من مكانه.. فعادت الى الشيخ باكية، شاكية من الحرمان وتحامل الزمان وجوره .

فقال الشيخ إنا لله وإنا إليه راجعون، وفوض أمره الى الله ثم أنشد أبياتاً قال فيها:

لم يبق صافٍ ولا مصافٍ
ولامعين ولا معين
وفي المساوي بدا التساوي
فلا أمين ولاثمين

وإبان شكواه هذه من شحة الود الخالص ، والرجل المخلص في وده ، والمعين المساعد ، حيث تساوى الجميع في العيوب ، فلم يبق لا الغالي ولا الثقة ، ولا رفيع القدر ، أمر العجوز بأن تعد الأوراق جيداً ، فأخبرته بانها جمعتها ، وعدتها فوجدت ان واحدة منها قد ضاعت ، فوبخها الشيخ وشتمها واصفاً إياها باللئيمة لأنه خسر الصيد والشباك ، والنار والفتيلة،.. وهكذا عادت العجوز بسرعة تبحث عن تلك الورقة الضائعة، فلما إقتربت من الحارث أشار لها بالورقة وعليها درهم ودينار ذهب ، وطلب منها إن هي ارادت ان تأخذ الدرهم والدينار فعليها ان تخبره بسر هذا الشيخ ، وان رفضت فلها القطعة فقط ، فمالت العجوز الى أخذ الدرهم ، ووافقت على ان يسأل الحارث عما يريد ، فأستخبرها عن خبر الشيخ وبلدته والشعر وكاتبه ، فأخبرته ان الشيخ من أهل سروج وهو الذي كتب الشعر على تلك الأوراق،.. ثم خطفت الدرهم خطفة الباشق ومرقت مروق السهم الراشق ، فخالج قلب الحارث احساس بأن أبازيد هو الشيخ المشار اليه، وحزن لمصابه بالعمى، وآثر ان يفاجئه فيكلمه، ويختبر صبره على هذه المحنة، فحاول ان يدنو منه فلم يستطع من شدة الزحام الا بعد تخطي رقاب الجميع ، وكره ان يؤذي أحداً من القوم أو ينال اللوم من أحد ، فلزم مكانه وراح يراقب السروجي عن بعد، حتى انقضت خطبة العيد ، وبدأ الناس بالمغادرة، فأسرع الحارث آنذاك الى أبي زيد فعرفه بفطنته وفراسته ، رغم تنكره وإطباق جفنيه -كأنه الأعمى-

فعرفه بنفسه ومنحه احد ثيابه ودعاه لتناول الطعام معه، ففرح الشيخ للعطية والتعرف، ولبىٰ الدعوة وانطلق ويده بيد الحارث لاتفارقه وهو يقوده ، والعجوز ثالثة الدهاة! فلما جلس الحارث في بيته وأحضر الطعام للشيخ على عجل ، تساءل ابو زيد هل معهما ثالث ، فأجابه الحارث: انها العجوز فقط ، فقال ابو زيد ليس دونها سر محجوز ومحجوب فهي علىٰ إطلاع بأمره، ثم فتح أبو زيد عينيه وحدد النظر، ثم حرك عينيه وأ دارهما، فاذا هما سليمتان، ففرح الحارث بسلامة بصر صديقه، وعجب من غرائب سيره ولم يهدأ باله الا بعد ان سأله عن السبب الذي دفعه الى التعامي ، مع تنقله في الارض والقفار الواسعة البعيدة ، فحاول ابو زيد أن يتظاهر بالتعثر في الكلام ، ثم أنشد أبياتاً من الشعر اشار فيها الى تعامي الدهر عن الرشد في انحائه ومقاصده ، وهو ابو الورىٰ أي الناس ، تعامىٰ الشيخ ، هو الآخر ، لأنه قيل ان الناس أشبه بآبائهم أو الأبن علىٰ سر أبيه ، وهكذا فانما عمل ذلك لأنه يقتدي بالزمن!

ثم طلب ابو زيد من الحارث ان يأتيه بالشنان المسحوق ، وهو نبات ينقي الكف وينعم البشرة وذ ونكهة طيبة، وهو ايضاً يُطري البشرة ويزكي رائحة الفم ويقوي اللثة والمعدة، وطلب ابو زيد ان يكون هذا المسحوق جديداً وناعماً وقوي العطر، حتىٰ ليحسبه اللامس ذروراً، ويخاله الناشق كافوراً، وأن يجمع معه نباتاً من شجرة طيبة نقية الأصل محبوبة الوصل أنيقة الشكل، تفتح الشهية، لها رقة العاشق ولمعان السيف وحدة النصل، وليونة الغصن الرطب، كالجسم الجميل. قال الحارث : فنهضت فيما أمر، لأدفع عنه الغمر (الريح)، ولم أدر انه أراد ان يخدعني بأدخالي المخدع ، ولم اظن انه سخر من الرسول في طلبه الخلالة والغسول، فلما عدت بالمطلوب، وجدت المكان قد خلا، والشيخ والشيخة قد رحلا! فغضب الحارث من مكر الشيخ فاسرع في أثره لكن دون جدوىٰ فكان الشيخ والمرأة غابا في الماء.. أو عرجا الى عنان السماء ،

وهكذا عاد الحارث متألماً من ذلك المقلب الذي شربه من ابي زيد بعد أن كساه وأطعمة وأكرمه .

المقامة الثامنة
المعرّية

«أخبر الحارث بن همام قال: رأيتُ من أعاجيب الزمان ان تقدم خصمان الىٰ قاضي معرة النعمان، أحدهما قد ذهب منه الأطيبان ، والآخر كأنه قضيب البان، فقال الشيخ: أيد الله القاضي، كما أيّد به المتقاضي، انه كانت لي مملوكة رشيقة القدِ ، أسيلة الخدِ ، صبور على الكدِ، تخب أحياناً كالنهد، وترفد أطواراً في المهد..»

رأىٰ الحارث بن همام في معرة النعمان ، وهي بلدة قريبة من بغداد تنسب الى النعمان بن المنذر الغساني ، أو هي معرة النعمان البلدة التي تقع بين حماة وحلب نسبت للنعمان بن بشير، لأنه إجتاز بها ومات له ولد فدفنه فيها فنسبت إليه، وهي من قرىٰ الشام وإليها ينسب ابو العلاء المعري الشاعر .

في هذه البلدة رأى الحارث، في ديوان القاضي خصمين أحدهما شيخ هرم والآخر فتىٰ جميل، إشتكىٰ الشيخ بأن هذا الفتىٰ أخذ مملوكته الرشيقة، رهينة.. وراح يتوسع في صفاتها وشمائلها ويعدد حسناتها، فتساجلا الكلام الجميل امام القاضي، فعطف عليهما القاضي فدفع للأول ديناراً ذهباً، فشحب وجه الفتىٰ، فعز علىٰ القاضي فأعطاه دريهمات، ثم حين غادرا المكان شعر القاضي بالغبن، وبانهما إحتالا عليه، فأرسل في طلبهما واعادتها اليه ، فقصا عليه، قصتهما شعراً هذه المرة ، فأزداد إعجاب القاضي ببلاغتهما، وحذرهما من المكر والخديعة، واللجوء الى الكدية من القضاة!

والجميل في هذه المقامة ان الحارث يقصد بالمملوكة الرشيقة القد ، بالابرة وبالغلام مرود الكحل ـ ببلاغة عالية ، كما في قوله:

«.. الصبور على الكد» تسرع احياناً كالفرس الناهض الكريم الطويل القامة ، وتنام احياناً في الفراش ، ويراد به المنئبر ، فتحس في تموز مس البرد (أي سحق المبرد ، وهي ذات عقل وعنان (اي ربط وخيط) وحد وسنان (اي لها نهاية وطرف مدبب)، وكف ببنان (اي كف الثوب، وهو الخياطة الثانية بعد التشكيل الذي هو الخياطة الخفيفة، والبنان، هنا يعني بها الاصابع ، اصابع الخياط وفم بلا اسنان (وهو ثقب الابرة)، تلدغ بلسان كثير الحركة، وترفل في ذيل فضفاض (يراد به الخيط)، وتجلىٰ في سواد وبياض ـ الى غير ذلك من صفات، وفيها من التوريـة الكثير حتىٰ كـأن القارىء او المستمع يعتقد ان المتحدث عنها (ليست سوىٰ عذراء جميلة، ولكنها خدعت! كون هذا الفتىٰ إستخدمها لقصد ، فأعاره اياها بلا أجرة علىٰ ان ينتفع بها ويعيدها إليه ، فأولج فيها متاعة وأطال بها إستمتاعه، ثم اعادها اليه، وبذل عنها قيمة لاأرضاها..

بمعنى ان الفتىٰ استعمل الأبرة فكسرها ، وإقترح رهناً ليعوض به الشيخ عن ثمن الابرة، لكن الشيخ رفض. وهنا تبدأ قصة الفتىٰ ، وكيف يروي ذلك بنفس مستوىٰ البلاغة والابداع ، فقد رهنه عن صدقٍ، وكان مملوكاً له، متناسب الطرفين، منتسباً الى القين ، نقياً من الدرن والشين ، يقارن محله سواد العين ، يفشي الاحسان ، وينشيء الأستحسانٍ ويغذي الانسان، ويتحامىٰ على اللسان، ان سود جاد أو وسم أجاد واذا زود وهب الزاد، ومتى أستزيد زاد ، لايستقر بمغنىٰ ، وقلما ينكح الا مثنىٰ.. يسخو بموجوده ويسمو عند جوده، وينقاد مع قرينتـه. وان لم تكن من طينته، ويستمتـع بزينته، وإن لم يطمع في لينته..»

ولايوحي هذا الوصف الا بأن المعنيّ بذلك هو مملوك شاب لكنه يعني ميل المكحة المتساوي الطرفين، المنتسب الى الحِداد بحكم لون الكحل الاسود ، ولما قال مملوكاً أَدهم بالطرفين جانبي الأم والأب، كما أوهم بالعين الحي المشهور من بني أسد ، نقياً من الدرن (يعني به وسخ الحديد ، الصدأ)، يقارن محله سواد العين (اي عند التكحل به)، يبتديء الاستحسان ويغذي الانسان (يقصد انسان العين).. وهكـذا يستمر بهذه الكنايات حد أن يوحي وكأنه فَضَّ بكارة تلك المشوقة القد، وانه يكحل العينين معاً ، أي انه يفعل ذلك مثنىٰ مع قرينته (والقرنة هي المكحلة، لغوياً، وهي في الأصل إمرأة الرجل)..

وهكذا فأن قاضي المعرة اعجب بهذه الرمزية العالية، لكنه طلب من المتخاصمين ان يوضحا مقصدهما والا طردهما بعيداً عن مجلس القضاء، فاعاد الغلام وصف إعارة الشيخ له إبرة ليرفو بها ملابسه الرثة، فإنخرمت في يده خطأ، واعتذر الى الشيخ الذي لم يعذره ولم يسامحه، فطلب منه ان يأتي له بأبرة جديدة تماثلها، أو يدفع ثمناً يعادلها، فترك الغلام ميل مكحلته رهناً لديه لأنه، بسبب فقر حاله يعجز عن دفع الثمن ، أو استرجاع ميله ، فاستغل الشيخ فقر الشاب وأذله بالمطالبة، ثم شكاه الى القاضي .

وحين طلب القاضي من الشيخ ان يوضح أمره بغير لبس ولاتمويه ، أقسم الشيخ بالمسجد الحرام ومن ضم من الزهاد ، بأن الأيام لم تسعفه والا لما أجبر الشاب أن يرهن ميله بديلاً عن الإبرة.. أو لما طلب منه مالاً.. ولكن حالة البؤس والغربة والمعاناة، التي هو فيها مثل صاحبه الغلام، وكأن الدهر قد عدل بينهما في الشقاء والعوز ، والأمر الذي جعله لايقدر عن التنازل عن دينه ، وكذا حال الشاب فلما إنتبه القاضي وفهم قصتهما، وأطلع على فقرها ، وانفرادهما بتلك البلاغة الأدبية الرفيعة في عرض حالهمها اخرج ديناراً من تحت مصلاته ، وطلب اليهما اقتسامه لحل خصامهما ،لكن الشيخ اسرع فتلقف الدينار واخفاه دون ان يعطي الشاب شيئاً، مدعياً بأن نصفه له كسهم أو نصيب من القاضي، أوا النصف الآخر منهم سهم الشاب فدية عن الابرة المكسورة، وطلب إليه ان يسترجع ميله المرهون.. فحزن الشاب لما حدث، وأصفروجهه وتغير.. فأحس القاضي بمعاناته وتأثرلحاله على ضياع الدينار الأول، الا انه جبر خاطر الفتى فأعطاه دريهمات.. ثم اعاد على الشيخ والغلام الدعوة الى المصالحة وعدم الاختصام.. وان لا يأتياه في المحاكمة فليس عنده كيس الغرامات... فنهضا من عنده فرحين بعطائه، معلنين عن حمده وشكره.. لكن القاضي لم يرتح لذلك، بل أيقن بأن الشيخ والشاب صاحبا دهاء لاخصما عداء، وانهما إحتالا عليه، فكيف السبيل الى كشف حيلتهما ومعرفة سرهما؟ لذا دفع بأحد الحضور لتعقبهما واعادتهما الى مجلسه، فلما مثلا بين يديه طلب منهما ان يصدقاه القول الحق ، ولهما الأمان . فتردد الشاب وتراجع ، ثم تقدم الشيخ وعرف بنفسه بأنه السروجي وهذا ولده، وهما في التجربة الشبل مثل الأسد، والأبن على مكر أبيه، وليس عندهما، في الحقيقة لاإبرة ولا ميلاً، أومرود مكحل ، وإنما مال بهما الدهر حتى باتا يقصدان كل كريم ، بما يمتلكان من خبرة في البلاغة وبراعة في الصياغة، للحكايات وللاخبار وللغة، كي يمنحهما من

عطاياه.. وهكذا اختلقا هذه القصة وقدماها بتلك البراعة اللغوية في وصفهما للإبرة وكأنها فتاة جميلة، والمرود وكأنه مملوك اسود ، أمرد ، اذ اضطرتهما الحاجة والعوز الكدية بهذه الوسيلة .

فأعجب القاضي ببلاغتهما وصياغة الحكاية، وحذر الشيخ من الخداع وأنذره من معاودة الحيلة والمكر، خاصة بالنسبة للقضاة.. منبهاً إياه من سطوة الحاكمين المتحكمين، فما كل مسيطر مسامح، ويقبل عثرة الجاني ولاكل زمن يسمح فيه الكلام.. فعاهده الشيخ على الأخذ بمشورته والابتعاد عن كل مايغير ، صورته وغادره والمكر يلمح في جبهته

فقال الحارث: لم أر اعجب من هذه الحكاية في كل تجاربي ورحلاتي ولاقرأت مثلها في الأخبار.. ولا في المؤلفات..

المقامة التاسعة
الاسكندرية

«قال الحارث بن همام طَحَا بي مرح الشباب، وهوىٰ الاكتساب، الى ان أجبتُ مابين فرغانةَ وغانة، اخوض الغمارَ، لأجني الثمار، وأقتحم الاخطار كي أدرك الأَوطار..»

دفع مرح الشباب وحب اكتساب المال الحارث بن همام لأن يقطع المسافة بين «فرغانة» (وهي بلدة في اقصىٰ المشرق)و (غانه) (وهي بلدة في أقصىٰ المغرب) ، ليقتحم الصعاب وينال التجارب ، وقد تعلم من العلماء وحفظ من وصايا الحكماء بأن الاديب يحتاج، حين يدخل بلداً غريباً، الى استمالة القاضي وكسب وده وصداقته ، لكي يؤازره عند الخصام ، ويأمن، بذلك، جور الحكام.. فأتخذ هذا مذهباً له، في تمشية مصالحه، فما دخل مدينة الا وصادق حاكمها .

وبينما هو عند حاكم الاسكندرية (في مصر)، وكان الوقت مساءً، بارداً وقد احضر الحاكم أموال الصدقات ليوزعها على المحتاجين، فاذا بشيخ شديد الدهاء، قد دخل، تجره بعنف وقسوة إمرأة ذات صبيين صغيرين، شاكية امام القاضي بأنها من أسره كريمة ومن نسب طيب وشرف عائلة، وذات عفة وخلق رفيع ، وان من صفاتها الرفق والعون ، وان بينها وبين جاراتها فوارق في الفضل، وكان أبوها إذا خطبها من بفاه المجد والشرف والرفعة واصحاب الثراء، يرفض وقد أقسم الا يصاهر الا ذا حرفة،.. وكان من نصيبها هذا الرجل المخادع الذي حضر مجلس أبيها قاقسم انه مطابق للشروط، وادعىٰ بأنه طالما نظم درة الى درة فباعهما بعشرة الاف درهم.. فأنخدع الأب بزخرف كلامه، وزوجها إياه.. قبل إختبار حاله،.. فلما أخذها من منزل ابيها،

واستقرت في ليلته، وجدت الزوج كثير القعود، نؤوماً، كسولاً، عاجزاً، ولايتدبر اموره، وكانت حين جاءته، منعمة، ذات لباس فاخر، حسنة الهيئة، والاثاث الممتاز، فأخذ يبيع موجودات البيت شيئاً فشيئاً، بأقل من سعره، ويصرف المبالغ في الطعام حتى خلا البيت من كل شيء ، وحين دعته للعمل والتكسب ببضاعته لجني ثمار صنعته، زعَم ان صناعته كاسدة، لما ظهر في الارض من الفساد ..

وقالت المرأة ان لها منه ولداً يشبهه، وشكت من تجويعها وولدها، وقد جاءت القاضي بزوجها ليختبر أمره، وليحكم بينهما بعلمه وعدله..

ولما سأل الحاكم ذلك الزوج ان يدافع عن نفسه ويعرف بعمله وأمره والا سجنه سكت الشيخ قليلاً ، مطرقاً الى الأرض إطراق الإفعوان ، ثم تهيأ للمنازلة وكأنه في حرب ، فقص حكايته شعراً ، ومن أبياته:

اسمع حديثي فأنه عجب
يضحك من شرحه ويُنتحبُ
انا امرؤ ليس في خصائصه
عيب ولا في فخاره ريب
سروج داري التي ولدت بها
والأصل غسان حين انتسب
وشغلي الدرس والتبحُر في الـ
علم ، طلابي وحبذا الطلب
ورأس مالي سحر الكلام
الذي منه يصاغ القريض والخطب .
اغوص في لجة البيان
فأختار اللآئي منها وأنتخب
واجتني اليانع الجنى من القول
وغيري للعود يحتطب
وآخذ اللفظ فضةً فاذا
ماصنعته قيل انه ذهب

ويستمر ، في قصيدته يصف نفسه وشمائله، وإن عمله هو الادب وطلب العلم ، أنه متفوق في البلاغة وعلم الكلام وجميل الشعر، وكان في السابق يعيش من تكسبه

بالأدب ، ويرتقي من خلاله المراتب والرتب ، وتصله الصلات والعطايا والهدايا ، لكن سوق الادب اصبحت كاسدة هذه الأيام، فانقبض قلبه وضاق ذرعه لضيق ذات يده ، وساورته الهموم والاحزان ، فدفعه الزمن الصعب بعمل مالا يلام عليه ، وفعل مايرفضه الإباء أو الكرم ، إذ باع كل مايملك من متاع واثاث وزاد ، وأستدان حتى ثقل كاهله بالديون ، فلم ير سوى جهاز زوجته ومتاع بيتها فراح يبيعه عن نفس كارهة ، واضطراراً، لكن ذلك أغضبها خاصة انها كانت تعتقد بأن اصابعه تتكسب بالنظم، وربما اعتقدته صائغاً أوجوهرياً ، لكنه حين خطبها من والدها لم يكذب فهو جواهري كلام، وصائغ اشعار وأخبار وملح وبلاغة، ومادفعه الى قول ذلك من قول جميل وزخرف حلو فقط لينجح في طلب يدها ويتخذها زوجة له ، ويقسم بالكعبة المكرمة بأن المكرو الحيلة ليسا من صفاته ولا من خلقه، ولا الكذب والتموية من شعاراته ، بل انه انما أراد بالنظم، منذ نشأ، مواضيع القلم والكتابة، وانه حين قصد نظم القلائد، فانما كان يعني القصائد، وليس ماتقلد به المرأة من ذهب.. أو ما ينظم من قلائد القرنفل التي توضع في أعناق الأطفال.. وتلك هي حرفته.. ولما كان سوق الادب في كساد، فان حالته وصلت به الى الفقر، اضطراراً.. وهكذا طلب من القاضي ان ينظر في أمره على ضوء ظروفه التي شرحها، ويحكم بما يحب .

ولما تأمل القاضي كلام هذا الشيخ، وجودته في الشعر والنثر نظر الى المرأة وقال: اما انه قد ثبت عند جميع الحكام وولاة الاحكام انقراض جيل الكرام وميل الايام الى اللئام، فاني لأخال زوجك صدوقاً في الكلام ، بريئاً من الملام ، وها هو قد اعترف لك بالقرض وصرح عن المحض ، وبين مصداق النظم ، وتبين انه معروق العظم ، وإعنات المعذر ملاءمة ، وحبس المعسر مأثمة ، وكتمان الفقر زهادة ، وانتظار الفرج بالصبر عبادة ، وطلب من المرأة ان ترجع الى خدرها، وان تمنح العذر لزوجها، وان تزجر نفسها عن الحدة وتسلم لقضاء ربها ..

ثم ان حاكم الاسندرية خصص حصة من مال الصدقات، وناولهما الدراهم الفضة ، وطلب منهما ان يصبرا على كيد الزمان فعسىٰ الله أن يأتي بالفتح .. فنهضا... قال الحارث وكنت اعرف انه ابو زيد ساعة بزغت شمسه ونزعت عرسه ، وكدت أفصح عن إفتتانه وأثمار أفنانه ، ثم أشفقت من عثور القاضي على بهتانة وتزويق لسانه ، فلا يرىٰ عند ذلك ان يمنحه من احسانه ، فأحجمت عن القول، وطويت ذكره طي الكتاب .

واقترح الحارث على القاضي ، بعد ان ذهب السروجي، ان ينطلق أحد امنائه في اثره ليعرف خبره ، وان يتجسس على أبنائه ، فما لبث الرجل ان عاد مسرعاً وهو يضحك بصوت عالٍ ، قائلاً: لقد عانيت عجباً، وسمعت ما انشأ لي طرباً... فسأله القاضي: وماذا رأيت، فقال: كان الشيخ منذ خرج يصفق بيديه، وهو يقول:

كدت أصلى بليَّة

من وقاحٍ شمريه

وأزور السجن لولا

حاكم الاسكندريه

فضحك القاضي، حتى وقعت عمامته، وضعف وقاره، فلما عاد الى نفسه بين استغراب الحاضرين، استغفر الله قائلاً:

«اللهم بحرمة عبادك المقربين ، حرم حبسي على المتأدبين» وطلب ان يأتوا بالسروجي ، لكن الذي ذهب في اثره عاد دون أن يلحق به فقال القاضي للحارث، لو ان هذا الشيخ قد حضر لأولاه بما هو جدير به ولأسند إليه عملاً يناسب موهبته، ولأراه ان العطية الآخرة خير له من الأولى..

قال الحارث فلما رأيت ميل القاضي إليه ، وضياع ثمرة التنبيه عليه ، انتابتني ندامة الفرزدق حين أبان «النوار»، والكسعي لما استبان النهار (والفرزدق هو همام بن غالب التميمي الشاعر ، والنوار إسم زوجته وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ، والكسعي هو عامر بن الحارث نسبة الى كسع حي من بني ثعلبه ، كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب ، ثم رمى عنها فنفذت في الرمية ووقع السهم في حجر فقدح منه الشرار فظن ان السهم اخطأ الرمية ، فرمى ثانياً وثالثاً الى آخر سهم وكانت خمساً، وهو يظن اخطأها ، فعمد الى قوسه فكسرها ثم بات ، فلما أصبح تبين ان أسهمه كلها أصابت فندم ندماً شديداً، فضرب المثل به في الندامة) .

المقامة العاشرة
الرحبية

«حكىٰ الحارث بن همام قال هتف بي داعي الشوق الى رحبةِ مالك بن طوق ، فلبيته ممتطياً شِملةً ، ومنتصباً عزمةً مشمعلة، فلما ألقيتُ بها المراسي وشددت أمراسي، وبرزت من الحَمام بعد سَبْتِ رأسي ، رأيت غلاماً أفرع في قالب الجمال ، وألبس من الحسن حلة الكمال..» .

إشتقاق الحارث بن همام الى زيارة (رحبة مالك بن طوق) وهي بلدة علىٰ الفرات بينها وبين حلب مسيرة خمسة أيام ، وقد إمتطىٰ ناقته ، فلما وصل إليها، استراح قليلاً ثم ذهب الى الحلاق ليقص شعره، ثم استحم، وخرج يطوف بين الناس ، فرأىٰ شيخاً يسحب غلاماً جميلاً من ثوبه ، ويدعي انه قتل ابنه ، والغلام ينكر ذلك.. وظل الخصام بينهما حاداً، حتىٰ تجمع الناس من حولهما ، واتفقا ان يذهبا الى الوالي ليحكم بينهما..

وكان معروفاً عن هذا الوالي ميله للغلمان، فأسرعا الى مجلسه، فلما وصلاه جدد الشيخ دعواه، محرضاً الوالي من الغلام ، فأستنطق الوالي الغلام وقد فتنه بملاحة وجهه وتصفيف شعره ، فأنكر الغلام التهمة عنه وقال انها باطلة ، وهي كذبة كذاب علىٰ غير قاتل، وبهتان محتال علىٰ من ليس بمغتال .

فطلب الوالي من الشيخ ان يشهد له شاهدان عدلان من المسلمين والا فسيقيم عليه اليمين، فادعىٰ الشيخ ان الغلام صرع ولده على الارض وأراق دمه بعيداً عن الناس،

فمن اين له بالشاهد.. وطلب أن يلقنه اليمين فوافق الوالي، فقال الشيخ للغلام: قل والذي زين الجباه بالطرر، والعيون بالحور، والحواجب بالبلج والمباسم بالفلج، والجفون بالسقم، والأنوف بالشمم، والخدود باللهب والثغور بالشنب، والبنان بالترف، والحضور بالهيف، إنني ماقتلت إبنك سهواً ولاعمداً، ولاجعلت هامته بسيفي غمداً، والا فرمىٰ الله جفني بالعمش، وخدي بالنمش، وطرتي بالجلح وطلعي بالبلح، ووردتي بالبهار، ومسكني بالبخار، وبدري بالمحاق، وفضتي بالاحتراق، وشعاعي بالإظلام، ودواتي بالأقلام..

فقال الغلام: الاصلاء بالبلية، ولا الايلاء بهذه الألية، والأنقياد للقوة ولا الحلف بما لم يحلف به أحد.. فرفض الغلام..

اذ ان الشيخ حين طلب من الغلام الحلف بهذه الصيغة، وهي كما لاحظنا كأنها وصف لجماله والتغزل بمفاتنه، من زينة الجبهة بالشعر والعين الحوراء والحاجب غير المتصل بالآخر، والثغر الباسم، والاجفان الناعسة والأنف المرتفع مع الاستواء، والخد الأحمر وانتظام الاسنان وبريقها، ونعومة ولين الاصابع، ودقة الخصر وضموره، الىٰ غيرذلك.. اندهش الغلام وخاف من هذه البلوىٰ متمنياً الموت قصاصاً ولا اداء هذا اليمين. ورفض الشيخ الا إلزامه بهذا اليمين الذي إخترعه، وأن يذوق مرارته، فأستمر التنازع والتشاتم بين الشيخ والغلام، فصعب الوصول الى التراضي، والغلام مستمر علىٰ تمنعه يتوهج إنفعالاً امام الوالي، يتثنىٰ ويتلوىٰ حتى سيطر هواه على قلب الوالي وعقله، فزين له العشق ان هذا الغلام سيستجيب لرغبة الوالي فلابد ان ينقذه أولاً من هذا الشيخ، ثم يخصه الوالي، بعدئذٍ، لنفسه.. فطلب الوالي من الشيخ ان يكف عن القيل والقال، وأن يقبل بالأصلح وهو أن يأخذ مائة مثقال من الذهب، يتحمل الوالي بعضها ويحصل له علىٰ البقية بأية طريقة اخرىٰ، فوافق الشيخ، فسلمه الوالي عشرين مثقالاً وتحمل أعوانه تكملة الخمسين، وكان الوقت آخر النهار، فطلب إليه القاضي تأجيل بقية المبلغ الى يوم غد، فأشترط الشيخ ان يكون حارساً على الغلام كي لايهرب، فوافق الوالي..

وشعر الحارث ان هذه الفعلة سروجية، فلبث حتىٰ حل الظلام، وخف الازدحام فقصد ساحة دار الوالي، فرأىٰ الشيخ يحرس الفتىٰ، فسأله أهو أبو زيد، فأجاب بالإيجاب، وسأله الغلام الذي هفت له الأحلام، قال له انه في النسب ولده، وفي المكتسب فخه..

فعاتب الحارث أبا زيد علىٰ فعلته ، خاصة حين زين جبين الغلام بقصة الشعر المدورة الجميلة تلك على شكل حرف «سين»، (التي ندعوها: الكذلة)، والتي خلب بهالب الوالي ، فقال الشيخ لولا جبهة السين لما حصلت علىٰ الخمسين مثقالاً.. ثم سهرا سوية ليتسامرا، وقد قرر الشيخ أبو زيد وأبنه أن يهربا عند الفجر ، ويتركان الوالي في عذاب.. فطلب السروجي من الحارث ان يحمله رقعة كتب فيها ابياتاً من الشعر ليسلمها الى الوالي .

وحين ابتعد وابنه عن المدينة .. قرأ الحارث الرقعة فمزقها.. لأنها تسخر من الوالي وتثير غضبة ،كونها تدين أفعاله وشذوذه ، مع انها تنطوي على الوعظ والحكمة تقوله:

فبلاء الفتىٰ إتباع هوىٰ النفس

وبذر الهوىٰ طموح العين

بمعنىٰ ان الانسان لايجب ان يتبع نزواته الذاتية ، بل ان يزرع الخير والحب للناس أجمعين فذلك هو الواجب .

المقامة الحادية عشرة
الساوية

«حَدَّثَ الحارث بن هُمّام قال آنست من قلبي القساوة ، حين حللت ساوة ، فأخذت بالخبر المأثور في مداواتها بزيارة القبور ، فلما صرت الى محلة الأموات ، وكفات الرفات، رأيت جمعاً على قبر يحفر ، ومجنوزٍ يقبر ، فأنحزت إليهم متفكراً فيه المآل ، متذكراً من درج من الآل..» .

أحس الحارث بالضيق، وبان قلبه ثقيل عليه ، حين حل في بلدة ساوه، فأراد ان يزيل من قلبه الهم ، وذلك بزيارة المقبرة آخذاً بقوله عليه السلام: ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، قيل وما جلاؤوها ، قال تلاوة القرآن وزيارة القبور..

فلما وصل المقبرة رأى جمعاً من الناس يحيطون بقبر جديد ، وهم يدفنون ميتهم ، فأنضم إليهم، متذكراً الراحلين من أهله ، فلما وضعوا الميت في قبره، ظهر شيخ من ربوة قريبه ، معلقاً هراوته في خصره ، وغطا وجهه متنكراً بدهاء ، فراح يتحدث الى القوم واعظاً وناصحاً وكأنه صديق الميت ، بموعظة عامة ، يلوم فيها الذين لايحزنهم دفن الأحباب، ولايعبأون بنوازل الاحداث ، ولايعتبرون بالدموع أو النعيي.. اذ يشيع احدهم نعش الميت وقلبه تلقاء البيت ، ليحتسب ما يصيبه من ميراث .. كما ينتقد المتبخترون خلف الجنائز، وكأنهم يتباهون لقبض الجوائز، والذين ينشغلون عن ذكر أوصاف الميت وحسناته وتوجع الثكل، باعداد المآدب والتأنق والتفاخر والمبالغة في الاكل.. وكأنهم نسوا الموت، ولم يعتبروا من عذر الزمان ..

وراح ينسج في تلك المعاني رباعيات من الشعر الوعظي الجميل، كقوله:

أيامن يدعي الفهم الى كم ياأخا الوهم تعبي الذنب والذم
وتخطي الخطأ الجمْ
أما بان لك العيب أما أنذرك الشيب ومافي نصحه ريبْ
ولاسمعك قد صمْ..

وبعد أن انهىٰ شعره، شمر عن ساعد قوي، شد بالجبائر، وكأنه مكسور، وعرضه للإستعطاء والكدية ، بوجه صلف لايعرف الخجل أو الحياء ،.. وبتلك الحيلة الماكرة والبلاغة العالية، والوعظ الجميل نثراً وشعراً، استطاع هذا الشيخ ان يستميل له القوم، حتىٰ ملأ كمه بالنقود، ثم.. إنحدر من الربوة فرحاً بتلك العطايا، فلحقة الحارث فأمسك بحاشية ردائه، فتوقف الشيخ وأستسلم مواجهاً الحارث مسلماً عليه، فاذا هو أبو زيد فعاتبه الحارث بشعر على نفس النسق:

الىٰ مَ ياأبا زيد أفانينك في الكيد: لينحاش لك الصيد
ولا تعبا بمن ذمْ

فاجاب ابو زيد ، دون حرج أو خجل أو تباطؤ:

تبصر ودع اللوم وقل لي هل ترىٰ اليوم فتىً لايقمر القوم
متىٰ مادسته تم

أي هل هناك فتىً لايغلب القوم في المقامرة ان تكاملت حيلته وخداعه ، فلامه الحارث ووبخه على ذلك قائلاً له:

«بُعداً لك ياشيخ النار ، وزاملِة العار ، فما مثلك في طلاوة
لسانك، وعلانيتك، وخبث نيتك»

ثم تفرقا ، فأنطلق الحارث ذات اليمين ، وانطلق السروجي ذات الشمال .

المقامة الثانية عشرة

الدمشقية

«حكىٰ الحارث بن همام قال شخصت من العراق الى الغـوطة ، وأنـا ذو جُردٍ . مربوطة ، وجدة مغبوطة ، يلهيني خلو الذرع ، ويزدهيني حفول الضرع ..»

سافر الحارث بن همام ، متوجهاً من بلْدهِ العراق الى غوطة الشام ، وهي موضع بساتين معروفة بجمالها وجِنانها.. (قال الواحدي: جنان الارض أربع . غوطة دمشق وشعب بوان وإبلة البصرة وسغد سمر قند)

كان الحارث صاحب خيل، مترفة ، قصيرة الشعر ، وثراء يحسد عليه،.. ويغريه خلو قلبه من الهموم ، ويطربه كثرة ماله ، فلما بلغ الغوطة بعد شق النفس واجهاد ناقته وخيله ، وجدها كما وصفتها الألسن ، فيها ماتشتهي الأنفس وتلذ الأعين فراح يستمتع بما لذ وطاب، حتىٰ إنتابه حنين الى العراق ، وشوق الى بيته وعياله ، فأسرج جواد عودته ، وتهيأ للرحيل مع رفاقه ، فبحثوا عن خفير ، ودليل ، يصحب قافلتهم ، فطلبوه من القبائل فتعذر حصوله ، ثم اجتمعوا بباب دمشق وإتخذوه مجلساً لهم يبحثون فيه الأمر ، وبعد طول بحث ونقاش أصابهم اليأس . وكادت آمالهم تخيب ، حين لاحظوا قربهم شخصاً يبدو مظهره مظهر الشبان ، وملابسه كلبوس الرهبان ، وبيده مسبحة طويلة ، وفي نظرته نشوة الصوفي، وكان منتبهاً إليهم ، مستمعـاً لما يقولون ويبحثون ، فأطلع على أمرهم ، وبادرهم القول مطمئناً إياهم بما يحقق هدفهم ، وأن يكون طوعهم ، فأستطلعوه وأستعجلوه القيام بمهمة الدليل والخفير ، وتحديد أجرته عن سفرته معهم الى بادية السماوة ، لكنه رفض أن يجادلهم في أجره ، حتىٰ

ينجز عمله على الوجه الأكمل ، فإن إرتاحوا إليه يمكنهم ان يجزلوا له العطاء ، وإن لم يكن كذلك ، فمن حقهم أن يريقوا دمه وهتك عرضه .. فأقتنعوا بكلامه ، واقترعوا على مرافقته ، فلما شدت الرحال ، وحل موعد الترحال ، طلبوا منه تقديم الدعاء الجميل ليجعلوه تميمة السفر ، فطلب منهم قراءة سورة الفاتحة ، ثم ليتلو بلسان خاضع:

«اللهم يامحيي الرفاق ، وياد افع الآيات ، وياواقي المخافات
وياكريم المكافأة ، ياموئل العفاة ، وياولي العفو والمعافاة
صلى على محمد خاتم انبيائك ، ومبلغ أنبائك..» الى آخر دعاء .
طويل ، جميل .

قال الحارث فأخذنا منه تلك الدعوات ، وحفظناها وتدارسناها لكي لاننساها ، ثم سرنا نسوق الحمولات بالدعوات لابالحداة ، وغمي الحمولات بالكلمات لا بالكماة الشجعان ، وصاحبنا يتعهدنا عشاء ونهاراً ولايطلب منا شيئاً مما وعدنا ، حتىٰ اذا شاهدنا اطلال بلدة (عانه) (وهي مدينة على الفرات) ، طلب منا الأعانة ، فاحضرناله المال المطلوب ، منحناه الذهب والفضة ، فأطربه ذلك وآنسه ، فأخذ الخفيف والحسن من الحلي الفضة والذهب ، فحمل منها حصته بما يسد فقره ، فنهض متثاقلاً ثم إختلس وقته ، وإنسل ومضىٰ مثل الهارب ، فأوحش القافلة غيابه ، ودهشوا لسرعة مغادرته ، فاشتاقوا إليه ، وراحوا يبحثون عنه . في المنتديات ، ويسألون عنه الهادي وانصال ، حتىٰ قيل لهم انه منذ دخل مدينة (عانه) ، لم يغادر حانتها فأغرىٰ هذا القول الخبيث ، الحارث بن همام ليستطلع الحقيقة بنفسه ، وسلوك ماليس من طبعه ، فدخل الى قصر تحيط به بيوت الشطار ، متخفياً ، فاذا به يرىٰ الشيخ في ثياب زاهية ، وهو يجلس بين أوعية الخمر ، وحوله سقاة يبهرون بحسنهم ، والشموع تضيء المكان ، وقد فاح عطر الآس ،.. وراح المغنون والعازفون يغمرون الجو أنساً وطرباً.. والشيخ يرفع تارة دنان الخمر ، فيشرب.. وتارة يستنطق العيدان فتعزف الموسيقىٰ ، فلما أطلع الحارث علىٰ أمر الشيخ ، وتغير يومه من أمسه ، اذ كان بالأمس شيخاً صوفياً ، يمسك مسبحته كالناسك المتدين ، واليوم هو علىٰ هذه الحال من اللهو والمزح ، فقال له مهدداً: ويلك يا ملعون ، أنسيت يوم «جيرون» (يذكره بحالته حين التقاه في الشام) فضحك الشيخ مستغرباً ، وأنشد مطرباً

لزمت السفار وجبت القفار
وعفت الغفار لأجني الفرح

وخضت السيول، ورضت الخيول

لجر ذيول الصبا والمرح

وراح يمتدح الشراب وفوائده ، والغرام واللهو والمرح.. بأجمل القصيد وأحلىٰ النشيد فلما انتهىٰ وبخه الحارث علىٰ غوايته ، متسائلاً لأي نسب ينتسب وهذه هي أعماله ، فقد أعياه غموض أمره ، فقال الشيخ لااحب ان أوضح من أنا، لكني سأخبرك كناية عني وراح ينشد هذه الابيات :

انا اطروفة الزمان

وأعجوبة الأمم

وانا الحول الذي إحتال

في العرب والعجم

غير إني ابن حاجةٍ

هامنه الدهر فأهتضم

وأبو حبيةٍ بدوا

مثل لحم علىٰ وضم

واخو العيلة المعيل

اذا احتال لم يلم

فعرف الحارث حينئذٍ ان هذا الرجل هو أبو زيد السروجي ، وقد صبغ لحيته بالسواد لأجل التدليس والإحتيال ، وازعجه واحزنة عظم تمرده وخبث سيرته ، وارتياده أمكنة المخازي ، فخاطب الحارث بحمية وحسن معرفة، السروجي ناصحاً ، لكن الشيخ تضجر وزمجر منزعجاً ، قائلاً انها ليلة مراح لاتتاح .. فغض النظر عما بدا الى نتلاقىٰ غدا .. لكن الحارث فارق السروجي خوفاً من عربدته، وسوء خلقه لكونه سكران ، لاالتزاماً بكلامه ووعده، وهذا بات ليلته حزيناً، نادماً على ذهابه الى الحانة، وعاهد الله سبحانه وتعالى الايحضر بعدها حانة أو بيت خمار ولو منح ملك بغداد، ولايشهد معصرة شراب ولو عاد إليه عصر الشباب،.. ثم انه وقافلته رحلوا آخر الليل، وتركوا «الشيخين» أبا زيد وأبليس!

المقامة الثالثة عشرة
البغدادية

«روى الحارث بن همام قال ندوتَ بضواحي الزوراء ، مع مشيخَةٍ من الشعراء لايعلق لهم مبار بغبار ، ولايجري معهم حمار في مضمار ، فأفضنا في حديث يفضح بالازهار ، الى نصفنا النهار..»

حضر الحارث بن همام ندوة بضواحي مدينة بغداد ، مع جماعة من كبار الشعراء الذين يتميزون بقوة المجادلة والتمكن من فنهم الشعري، والمناظرة .. وكانوا سعداء في احاديث الأدب هذه ، حتىٰ إنتصف النهار ، ورغب الحاضرون العودة الى بيوتهم واذا بعجوز أقبلت تعدد من بعيد وقد لحقت بصبية ضعيفة ، فما أوشكت ان رأت مجلس الادباء هذا حتى توجهت صوبة ، فسلمت على الحضور بتحية السادة الوجهاء وشرحت لهم بان أهلها من ذوي نسب كريم تميزوا بالكرم والمروءة والمكانة رفيعة القدر ، لكن الدهر فجعهم بأولادهم وخدمهم ومالهم وثرائهم.. فضاع اليسار ووهنت اليمين، فأسود يومها الأبيض، وابيض شعرها الاسود ، حتى رثي لها العدو وتمنت الموت رحمة ، فأصبحت أقصىٰ أمنياتها وجبة طعام ، وقطعة لباس للستر ، وكانت قد تعهدت على نفسها بأن تتوجه اليهم ، فهم اهل المروءة والمعونة وينابيع الكرم والعطاء .. وتمنت من الله الا يخيب ظنها فيهم.. فأستهوىٰ كلامها البليغ جمع الادباء..

قال الحارث : فهمنا لبراعة عبارتها وملح استعارتها ، وقلنا لها قد فتن كلامك فكيف الجامك ، أي نظمك للشعر.. فأجابتهم بانها تفجر الصخر ، فطلبوا اليها ان وافقت، ان يكونوا من رواة الشعراء ، فسوف لن يبخلو عليها بشيء فقالت لهم: لأرنيكم أولا شعاري ثم لارويتكم اشعاري فبرزت لهم ردن قميص بال، وبرزت برزة عجوز مسنة ماكرة، وانشدت ابياتاً من الشعر الجميل وحين بهرتهم بكلامها تدافعوا بالتبرع لها.. فجمعت المال وغادرت المكان، مع اطفالها ، فلحقها الحارث ، فدخلت في غمرة الازدحام بأحد الاسواق ، ثم تفرق عنها الاطفال ، فمالت الى حد المساجد فدخلته ، وخلعت جلبابها ونقابها والحارث يرقب ذلك من شق الباب ، فبان له ان العجوز ليست سوى ابي زيد السروجي ، فاغتاظ الحارث وأراد تعنيفه حين لاحظ السروجي ينام على ظهره وهو ينشد أشعاراً بصوت عالٍ ، يعرض فيه حيلته .

قال الحارث : فلما ظهرت على جلية أمره ، وما زخرف من شعره من غدره، علمت ان شيطان المريد لايسمع التنفيذ ولايفعل الا مايريد،..

وهكذا عاد الحارث الى اصحابه وحدثهم عما رأى، فوجموا لصنيعة الجوائز والعطايا..

المقامة الرابعة عشرة
المكية

«حكىٰ الحارث بن همام قال نهضت من مدينة السلام ، لحجة الاسلام ، فلما قضيت بعون الله ، التفثُ ، واستجتُ الطيب والرفت ، صادف موسم الخيف ، معمان الصيف ، فاستظهرت للضرورة ، مما يقي حر الظهيرة»..

توجه الحارث بن همام مسافراً من بغداد الى بيت الله الحرام بمكة ، لاداء فريضة الحج فلما قضىٰ مناسك الحج ، صادق مجمع الحجاج في موسم الصيف ، فأستظل بما بقي من حر الظهيرة ، فبينما هو واقف تحت خيمة ، مع رفقته ، يستظلون بها من الحر ، فاذا بشيخ هرم يدخل عليهم دون ستئذان ، وخلفه فتىً سريع الحركة ، فسلم عليهم تسليم الأديب العاقل الفطن ، وحاورهم محاورة قريب لاغريب ، فأعجبوا بكلامه البليغ وعجبوا من تبسطه معهم ، وكأنه طالب معروف ومعاونة وقضاء حاجة..، وان سبب عوزه غير خافٍ ، والنظر إليه شفيع له كاف ، أما دخوله عليهم بسرعة ودون استئذان ، فلاعجب في ذلك ، اذ ليس على الكرماء من حجاب ، فهم معروفون فسألوه: كيف إهتدىٰ إليهم، وبم أستدل عليهم ..فقال: إن للكرام نشراً تنم به نفحاته ، وترشد الى روضه فوحاته، فأستدللت بتأرجح عرفكم على تبلج عرفكم ، وبشرني تضوع رندكم بحسن المنقلب من عندكم .

فأستخبروه عن مكانه ليتكلفوا بإعانته ، فقال لهم ان له حاجة ومطلباً ، فوعدوه بأنهم سيحققون مطلبه ومطلب الفتىٰ الذي معه ، وسألوه ان يقدم الأهم والأكبر ،

فاجابهم بنعم وانشد ابياتاً من الشعر شرح فيها حالة كونه تعب من الترحال ، كمن فقد راحلته ، وان المسافة التي قطعها شاسعة ، ومقصده المكان الذي يريد ، بعيد يعجز الوصول إليه وهو بحالته هذه من الاجهاد والتعب ، وليس معه مايملك من المال ، ولايدري مايفعل ، فإن ذهب راجلاً خاف أسباب الهلاك ، وإن تخلف عن رفاقه لم يدرك الطريق ، ولن يصل الى هدفه ..

وهكذا فهو يزفر من الألم وتنساب عبراته من الشكوىٰ ، ولأنهم منتجع الراجي ومرمىٰ الطلب ، وان كرمهم غزير ، فلن يخاف العوز والفقر لأنه لو أخبرهم حسبه ونسبه ومذهبه ومعارفه وعلمه لما انتابتهم شبهة في ان سبب دائه هو أدبه ، اذ سوق الادب كاسدة ، حتى قوله :

مليت إني لم اكن

أرضعت ثدي الأدب

فقد دهاني شؤمه

وعقني فيه أبي

وحين تعرفوا على حالته وصراحته بفقر حالة وهلاك ناقته ، فقد وعدوه بأن يعطوه مايوصله الى بلده، فما حاجة ابنه؟

فقال الشيخ للأبن: قم كما قام أبوك، وفه بما في نفسك لافض فوك ،.. فنهض الا بن نهوض البطل للمنازلة، وأصلت لساناً كالغضب الجراز ، وأنشأ قصيدة اروع من قصيدة أبيه ، يشكو فيها حاله ، وكان قد بدأها بمدحهم كونهم سادة المعالي والمدافعين عن كل محتاج ، ولن يبخلوا في بذل الكنوز.. وسألهم شواءً وجردقاً وعصيدة، اي لحماً مشوياً ورغيفاً عربياً وهريسة، فان لم يتوفر ذلك فخبز مع مرق وإن لم يتوفر ذلك فيكفي التمر والزبدة.. واستعجلهم جلب ماتوفر من الزاد لرحلته البعيدة، وان ايديهم كل يوم لها عطايا جديدة ، كناية عن كرمهم، ولأنهم اكرموه، فلهم في ذلك أجر وعقبىٰ وثواب لتنفيس كربه ، وقد احسن التعبير من بديع الكلام.

قال الحارث: ولما رأينا الشبل يشبه الأسد ، بلاغة وكلاماً جميلاً ، وعرضاً حسناً لحاله وحاجته ، أرحلنا الوالد وزودنا الولد ، اي منحوا الشيخ راحلة واعطوا الولد زاداً ، فقابلا كرمهم بالشكر الجزيل ، وحين قررا الانصراف ، سأل الحارث الشيخ ، هل ضاهت عدتنا عدة عرقوب ، اي هل ماثلت وشابهت ماوعدنا به في قضاء الأمرين ، ماوعد به عرقوب (وهو يهودي من خيبر كذوب يضرب به المثل في خلف الوعد ، وإياه

اراد الشاعر كعب بن زهير في قوله :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدها الا الاباطيل

وهل بقيت حاجة في نفس يعقوب؟ فأجاب الشيخ: حاشىٰ لله ، بل جل معروفكم وعظم عطاؤكم ، فسأله الحارث مجازاتهم بالحديث كما صنعوا له من معروف ، وذلك بأن يخبرهم عن بلدته ، وأصل حكايته ،.. فز الشيخ وتنفس تنفس الحائر الذي تذكر وطنه واشتاق اليه ، وأنشد والشهيق يلعثم لسانه أبياتاً اخبرهم فيها بأنه من «سروج» وهي داره وموطنه ، ولكن كيف الوصول اليها وقد احتلها الاعادي .. وعبر عن شوقه لها ، وان لم يرق له شيء مُد غابت عن ناظريه ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، وتركها تنهال دون أن يكفكها قاطعاً إنشاده الجميل ، فأوجز واسرع في الوداع ،.. ومضىٰ ..

المقامة الخامسة عشرة
الفرضية

«أخبر الحارث بن همام قال أرقت ذات ليلة حالكة الجلباب ، هامية الرباب ولا أرق صبٍ طرد عن الباب ، ومني بصد الأحباب ، فلم تزل الأفكار يهجن همي ، ويجلن في الوساوس وهمي، حتىٰ تمنيت ، لمضض ماعانيت، أن أرزق سميـراً من الفضلاء ، ليقصر طول ليلتي الليلاء...»

أرق الحارث بن همام ذات ليلة واكنة السواد ، وتمنىٰ ان يلتقي صديقاً يسامره فيهديء من روعة ويخفف من معاناته وهو اجسه وأفكاره ، وبينما هو يفكر فاذا ببابه تطرق فقال في نفسه لعل أمنيته تحققت ، فنهض الى الطارق بعجل ، وسأل ، فأجابه: غريب ستره الليل وأدركه السيل ويبتغي الايواء لاغير..

ولما اتضح للحارث بأن الطارق حسب مرامه، فتح له الباب مبتسماً ودعاه للدخول بسلام ، فدخل شخص هرم بلل المطر ثيابه، فحيا بلسان بليغ ، وشكر علىٰ تلبية طلبه ، وإعتذر من قدومه ليلاً في غير وقته ، فقرب الحارث المصباح منه وتأمله فعـرف فيه شيخنا أبا زيد السروجي ، فرحب به ، وراح يسألـه عن احوالـه ، بعد ان هيـأ له مايستحق الضيف المفاجيء في الليل ، فأنقبض الشيخ بحياء ، ونحىٰ وجهه لجهة اخرىٰ ، فقلق الحارث ، وانتابته الظنون ، اذ اغاضه منه ذلك ، حتىٰ كاد يغلظ لـه بالكلام ، فأدرك ابو زيد مايجول بذهن الحارث، فخاطبه قائلاً:

ياضعيف الثقة بأهل المحبة ، أبعد مابذهنك ، واستمع الي .. وراح يحدثه كيف

أمضىٰ ليلته السابقة مفلساً ، وقد انتابته الوساوس وغمره القلق ، فلما أصبح الصباح ذهب الى السوق عله يجد مايفيده ، فلمح تمراً أحسن تصفيفه، وكأنه العقيق ، وقبالته لبأ (وهو أول اللبن في النتاج) قد ظهر وكأنه الذهب الخالص ، في لونه الأصفر ، يغري المشتري . حتىٰ لو اعطىٰ حبة قلبه فيه ، فغمرتـه الشهوة لأقتنـائه ، لكنـه لايملك النقود ، فحاول طيلة النهار ، لكنه لم يفلح برزق .. فغادر السوق حزيناً ، وهو متردد الخطو، حتى قابله شيخ يتألم كمن ثكل بولد ، وعيناه تفيضان دموعاً ، فمـا شغله ماكان فيه من جوع لأن يسأله سر بكائه ، ليعينه على بلواه ، فأجابه بأنه ماتألم من عيش فات ، ولا من دهر عاتٍ، بل لإنعدام العلم ودروسه ، وغياب أقماره وشموسه ، فسأله عن أية حادثة نجمت، وأية قضية دفعته الى هذا الحزن كله ، والأسىٰ على فقد من سلف، فأظهر رقعة من كمه، وأقسم بأبيه وأمه ، إنه أنزلها بين علماء المدارس .

فما تميزوا عن غيرهم ، بل أنهم سكنوا ، فطلب منه أن يريها إياه فلعله ينتفع بها، فناوله الشيخ الرقعه ، فاذا فيها أبيات شعر تحتوي على فتوىٰ مقربه هي:

«رجل مات عن أخ مسلم حر تقي من أمه وأبيه وله زوجة لها أخ خالص فحوت فرضها وحاز أخوها ماتبقىٰ بالأرث دون أخ زوجها ..»

وحين قرأ ابو زيد تلك الفتوىٰ ، قال للشيخ إنني أجيبك عليها ، ولكن بعد تناول الطعام ، فقاده الشيخ الى بيت أضّيَق من التابوت ، وأوهىٰ من بيت العنكبوت الا انه أصلحه ووسع صدره، فخيره في ضيافته وما يشتهي، فقال له: أريد أزهىٰ راكب علىٰ أشهىٰ مركوب ، وأنفع صاحب مع أضر مصحوب ،..

ففكر ساعة طويلة ثم قال له: لعلك تعني بنت النخلة ، مع لبأ نحيله (أي التمـر واللبأ). ونهض نشيطاً، ثم قعد متحرقاً من الغيظ وهو يقول: اعلم ، اصلحك الله ،ان الصدق نباهة ، والكذب عاهة ، فلا يحملنك الجوع الذي هو شعار الأنبيـاء وحلية الأولياء على ان تلحق بمن مان وتتخلق بالذي يجلب الأمان ، فقد تجوع الحرة ولاتأكل ثدي ولدها (او بثدييها) وتأبىٰ الدنية ، ولو اضطرت اليها ، ثم اني لست لك بزبون ، ولا أغضي علىٰ صفقة مغبون ، وها أنا أنذرتك قبل ان ينهتك سرك وينعقد فيما بيننا الوتر ، فلا تلغ تدبر الإنذار ، وحذار من المكاذبة حذار .. فقال له ابو زيد: والذي حرم أكل الربا وأحل أكل اللبا ، مافهمت بزور ، ولا دليتك بغرور ، وستخبر حقيقة الأمر ، وتحمد بذل اللبا والتمر . ففرح الشيخ وانطلق الى السوق ، فعاد بهما ووضعهما بين يدي السروجي وضع الممتن الشاكر ، وقال له: إضرب الجيش بـالجيش تحظ بلذة

العيش فحسر ابو زيد ذراعيه ، واتى على النوعين ، وصاحبه يكاد يختنق غيظاً ، ثم راح السروجي يفكر في لغز الأبيات الشعرية ، والفتوى الفقهية ، فما لبث المضيف ان قام واحضر الدواة والأقلام ، حتى أملى السروجي عليه الجواب شعراً ، والحل هو:

ان الميت الذي قدم الشرع أخا زوجه على إبن ابيه ، رجل زوج إبنه بحماةٍ له ثم مات أبنه وقد علقت منه فجاءت بأبن ، فهو ابن إبنه وأخو زوجته .. وإبن الابن الصريح أدنى وأولى بالأرث من أخيه، لذا حين مات أوجب للزوجة ثمن الميراث ، وأخذ ابن إبنه الذي هو، في الأصل ، اخوها من أمها ، باقي الارث .. وتخلى الآخ الشقيق عن الارث . وحين أجاب السروجي الاجابة الصحية ، قال له مضيفه اهلك والليل فشمر الذيل وبــادر السيل ، اي طلب منه مغادرة الدار في تلك اللحظة .. ولم تعد اعذار السروجي من انه غريب وفي إقامته وايوائه فضل وثواب ، فالشيخ أصر على مغادرة السروجي ، لأنه رآه أكولاً لاينظر في مصلحته ولايراعي صحته فخاف عليه من مرض مفاجيء ، فدعاه الى مغادرة بيته معافى لا ان يموت في داره ، لــذا فليس عنده أي مبيت لــه .. فلما رأى السروجي إصرار صاحبه خرج من بيته مرغماً حزيناً وراح يتخبط بالظلمة والمطر حتى ساقه قدره الى بيت الحارث فشكره على كرمه وضيافته ، ..

وهكذا .. بعد ان استمع الحارث لقصد السروجي رحب به وضيفه ، فراحا يتحدثان ويتبادلان الأخبار والطرف ، والسروجي يخلط مبكياته بمضحكاته ، حتى أول الفجر ، فقام وصلى ، وأستعد ليودع الحارث الذي أجبره ان تكون الضيافة ثلاثة أيام ، لكن السروجي أصر على المغادرة وهو ينشد :

لاتزر من تحب في كل شهر
غير يوم ولاتزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم
ثم لاتنظر العيون إليه

قال الحارث : فودعته بقلب دامي القراح ، ووددت لو أن ليلتي بطيئة الإصباح .

المقامة السادسة عشرة
المغربية

«حكىٰ الحارث بن همام قال شهرت صلاة المغرب ، في بعض مساجد المغرب فلما أديتها بفضلها ، وشفعتها بنفلها ، أخذ طرفي رفقةً قد إنتبذوا ناحية وامتازوا صفوة صافية، لكلمة تستفاد، أو أدب يستزاد، فسعيت إليهم..»

بعد أن حضر الحارث بن همام صلاة المغرب في مسجد في بلاد المغرب ، أداها بكاملها وإتبعها بالنوافل ،.. لمح جماعة قد إختاروا مكاناً منعزلاً ، راحوا فيه يتبادلون الأحاديث وجواهر الكلام ، فرغب في مشاركتهم عله يستفيد ، ويستزيد من أدبهم وعلمهم ، وحين إقترب منهم إستأذنهم الجلوس معهم سميراً يبغي الافادة منهم ، فرحبوا به.. وماهي الا لحظة حتىٰ أتاهم رجل مسافر، جواب، علىٰ منكبه جراب ، فحياهم بالسلام وصلىٰ ركعتين تحية المسجد ، ثم خاطبهم مادحاً ماهم فيه من علم وأدب ، ثم تساءل عن ان «أنفس القربات» (أي أفضل الأعمال التي يتقرب فيها الانسان الى الله تعالىٰ» هي: تفريج الكربات ، فهي أقوىٰ وامتن أسباب النجاة ، ومواساة ذوي الحاجات اي اعطاء الفقراء المحتاجين ..

ثم راح يشكو لهم حالة وفقره ، وكونه شريد مكانٍ بعيد ، ورسول صبيةٍ جياع ، وطلب من القوم من يسد المجاعة عنه ، ويمنحه الطعام ، فأخبروه بأنه جاء بعد العشاء ولم يتبق الا الفضلات فان كان قنوعاً بها فليأ خذها ، فوافق ، فأمر كل منهم عبده بأن يزوده بما عنده ، فأرتاح لذلك ، وشكرهم عليه ، ثم جلس يرقب مايحمل إليه ..

وعـاد الجماعـة الى أحاديثهم في الأدب وعيـونه ، حتىٰ وصـل بهم النقاش الىٰ مالايتحول ولا يتغير بالإنعكاس ، أي بالقلب ، وهو رد الأول آخراً ، كقولك (ساكب كأس) حيث تقرأ من الأول والحرف الأخير الى الأول ، بنفس الشكل والمعنىٰ ، وهي لعبة بلاغية ، فتداعوا الى توليد الأفكار ، وإقتراح الابتكار علىٰ ان ينظم البادي‌ء ثلاث كلمات نفيسة ، ثم تتدرج الزيادات من بعده ، فيربع من يجلس الى يمينه ، ويسبع من كان على يساره وهكذا.. فإنتظم خمسة منهم فبـادر صاحب ميمنـة الحارث وجـاء بكلمتين: (لُمْ أخاً مَلَّ)، وقال ميامنهُ: (كَبِّرْ رَجَاءَ رَبِّكَ)، وقال الذي يليه: (مَنْ يَرُبُّ إذا بَرَّ نَبِّمُ) أي من يربي الصنيعة ويصونها ويزيدهـا ، وقال آخـر (سكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لـك تَكِسْ) ، ووصل الدور الى الحارث ، وقد تعين عليه أن ينظم جملة سباعية فظل يفكر ، وهو يحاول ان يجاري رفاقه فلم يستطع، وحين انتظر صحبه منه المبادرة تمنىٰ عليهم لو حضر السروجي هذا المقام لحقق المطلوب بالتمام .

فقالوا: لو نزلت هذه بأياس بن معاوية بن مره (قاضي البصرة المشهور بعِلمه وأدبه) لصمت يائساً وهكذا حاولوا مجدداً دون جدوىٰ ، والضيف الشيخ ينظر إليهم بأحتقار وهم لايلاحظونه ، فلما إطلع على عجزهم قال: (ياقوم إن من العناء العظيم ، إستيلاء العقيم والاستشفاء بالسقيم ، وفوق كل ذي علم عليم ..) ثم اقترب من الحارث وطلب ان ينوب عنه ، ليكفيه مانابه ، قائلاً: ان شئت أن تنثر ولا تعثر فقل مخاطباً لمن ذم البخل وأكثر العذل:

(لُذْ بكل مُؤمَّل، إذ لمَّ ، ومَلَك بَذَلَ) وهي جملة من سبع كلمات تقرأ من أولها الى آخرها ، أو من آخر حرف فيها الى أولها بنفس المعنىٰ ، ثم قال له (ان أجببت ان تنظم، فقل للذي تعظم):

أسْ أرَملاً إذا عَرَا
وَارْعَ إذا المرءُ أسا
إسْنِدْ أخا نَباهةٍ
أبِنْ إخاءً دَنَسا
أسْلَ جنابَ غاشمٍ
مَشاغبَ إن جلسا
أسْرُ إذا هَبَّ مِرا
وأرم به إذا رسا

أسْكُنْ تَقوَّ فعسىٰ

يُسعِفُ وقتُ نَكَسَا

وهي أبيات كما نرىٰ تقرأ من أولها الىٰ آخرها . كما تقرأ من آخرها الىٰ أولها بنفس المعنىٰ والكلمات والحروف .. مع مافيها من حكمةٍ وموعظة ، فالبيت الأول يأمر بتقديم العطايا للأرمل الذي نفذ زاده وماله ، وأمر برعاية المرء وتحصينه من أن يسيء..

وفي البيت الثاني يدعو الىٰ مديد العون الىٰ المثقفين والادباء والعلماء اصحاب الفطنة والشرف وعلو القدر ، ويأمر بأن لايدنس عِرض الأخ ويلوث .

وهكذا بقية الأبيات ،.. فسحرهم بنثره وشعره وتغلب عليهم بنبل غاياته وحكمته .. فأثنوا عليه مديحاً حتىٰ طلب منهم الكف عن ذلك ، فأجزلوا له العطاء حتىٰ أستكفىٰ ، ثم شمر ثيابه وأخذ جرابه ، ونهض مغادراً وهو ينشد أبياتاً طريفة بمدحهم وكرمهم لكنه ماأن خطا خطوتين ، حتىٰ عاد مستعيذاً بالله من الهلاك لأن بينه وبين منزله ليلاً دامساً وطريقاً بعيدة، وطالبهم بمصباح ينير الدرب ، وحين جاؤا بالمصباح واضاء بنوره المكان رأىٰ الحارث أن صاحبهم الشيخ ، هو أبوزيد، فأخبر اصحابه عن علمه وأدبه ورفعة مكانته ، (اذا نطق اصاب ، وإن استمطر صاب) فنظروا إليه باعجاب ودهشة ، وراحوا يرجونه مسامرتهم تلك الليلة ، علىٰ أن يساعدوه بالمال بما يخلصه من الفقر والعوز ، فرحب بذلك ، لكنه إعتذر لكونه ترك اطفاله جياعاً ، فإن لم يصلهم بالطعام سيقلقون ، ووعدهم بالذهاب اليهم ثم العودة سريعاً .. فوافقوا وارسلوا معه غلاماً يعينه على حمل زاده وعطاياهم ، وليحثه علىٰ التعجيل بالعودة.. فانطلقا معاً.. وانتظر الجماعة طويلاً، دون جدوىٰ، وحين سألوا الغلام الذي عاد أخيراً وهو متعب عن ذلك الشيخ الخبيث ، حكىٰ لهم كيف قاده في طرق متعبة وسبل متشعبة حتىٰ وصلا الىٰ دويره خربة ، واشار الشيخ الى المكان بأنه محل إقامته وأطفاله ثم فتح باب ذلك الدار الصغير ، وأخذ جرابه ودخل، وقال للغلام :

«لعمري لقد خففت عني واستوجبت الحسنىٰ مني ، فهاك نصيحة هي من نفائس النصائح، ومغارس المصالح» وأنشد له ابياتاً فيها حكمة ووصايا خيرة كقوله:

اذا ماحويت جنى نخلةٍ

فلا تَقرْبَنْها الىٰ قابل

وإما سقطت على بيدرٍ

فحوصل من السنبل الحاصل

إي إذا حزت تمر نخلةٍ فلا تتركه الىٰ السنة القادمة ، واذا توفرت علىٰ حقل حبوب فأملأ بطنك من القمح.. الىٰ غير ذلك من حكم ووصايا، وقال للغلام اخزن هذه النصائح في قلبك ، وأقتد بها في أمورك.. وطلب منه ان يصل الىٰ الجماعة ويبلغهم تحيته ويتلو عليهم وصيته وهي:

«ان السهر في الخرافات لمن اعظم الآفات

ولست ألغي إحتراسي ، ولا أجلب الهوس الىٰ رأسي»

فلما إطلعوا علىٰ فحوىٰ شعره ومكره ، لاموا أنفسهم لأنهم تركوه يبتعد ويهرب وخدعوا بوعده ، فتفرقوا بوجوه عابسة ، وصفقة خاسرة .

المقامة السابعة عشرة
القهقرية

«حكىٰ الحارث بن همام قال لَحظْتُ في بعض مطارح البَينْ ، ومطامح العين ، فتية عليهم سيما الحجىٰ ، وطلاوة نجوم الدجىٰ ، وهم في حماراةٍ مشتدة الهبوب ، ومباراةٍ مشتطةِ الأهبوب ، فهزني لقصدهم هوىٰ المحاضرةِ ، واستحلاء جني المناظرة..» .

أبصر الحارث بن همام في بعض المنازل البعيدة ، والمواضع الحسان ، فتية عليهم علامات العقل والحسن ، وكانوا في جدال ونقاش وخصام محتدمٍ وشديد ، فدفعه شوقه وحبه لمجالسة العلماء والادباء ، وحبه للجدل وثماره ، أن التحق بهؤلاء وجلس بينهم ، فسألوه هل يستطيع مجاراتهم ، فأجابهم بأنه من نظارة الحرب لامن ابناء الطعن والضرب ، وهو مستمع لهم وليس مجادلاً ، عالماً ، مثلهم .. فأعرضوا عنه ، واستمروا في الألغاز ومطارحة المسائل اللغوية ، وكان وسطهم شيخ قد أنحلته الهموم والأسفار حتىٰ بات أضعف وأرفع من قلم!.. الا انه كان يظهر الاعاجيب حين يسأل ويجيب ، فاعجب الحارث به ، وبتميزه بين الجماعة .. اذ كان يجيب علىٰ كل لغز مبهم ، ومسألة معقدة ، حتىٰ أظهر الجماعة عجزهم في مباراته والتنافس معه ، فسكتوا .. ولما وجدهم كذلك استأذنهم في مناظرة يفتتحها هو ، فوافقوا .. فسألهم: أتعرفون رسالة أرضها سماؤها ، وصبحها مساؤها ، فسحبت على منوالين وتجلت في لونين ، وصلت الىٰ جهتين ، وبدت ذات وجهين ، ان بزغت من مشرقها فناهيك برونقها ، وان طلعت من مغربها ، فيالعجبها ..؟» فعجز القوم عن ايجاد رسالة تكتب وتقرأ من اليسار الى اليمين ، ومن تحت الى فوق ، بنفس المعنىٰ .. اذ دهش الجماعة لهذه المناظرة الغريبة

والنادرة، واظهروا عجزهم ، وحين رآهم صمـوتاً امهلهم بعض الـوقت ، لكن دون جدوىٰ ، فأخذ يفكر قليلاً ، ثم قال لهم سمعاً وطاعة فانقلوا عني، واكتبوا ما اقول لكم ، وراح يملي عليهم الرسالة، التي جاء فيها :

«الإنسان ، صنيعة الإحسان ، ورب الجميل ، فعل الندب ، وشيمة الحر ، ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر استثمارة السعادة ، وعنوان الكرم تباشير البشر ، واستعمال المداراة يوجب المصافاة ، وعقد المحبة يقتضي النصح ، وصدق الحديث حلية اللسان وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرك الهوىٰ آفة النفوس..» ووصل برسالة الىٰ مائتي لفظة تحتوي علىٰ أدب جميل وموعظة رفيعة ،.. وطلب منهم ان يقرأوها كما هي ، أو عكس قالبها ، وأن يردوها علىٰ عقبها ، فلا يتغير معناها ومبناها وهي واحدة من قدرات الحريري علىٰ صياغة رسالة قهقهرية ، تقرأ من الجانبين ، وتعتبر الذورة في البديع والبلاغة وصنعة الادب والإنشاء ، وكل ماجاء . في هذه الرسالة يحتوي الحكمة والموعظة مثل قوله: «وعند الأوجال (المخاوف) تتفاضل الرجال..» (اي عند الشدائد والمخاوف يظهر الشجاع من الجبان ، والصابر من الجازع) وبتفاضل الهمم تتعاون القيم ، وبتزيد السفير يهن التدبير (اي بزيادة الرسول علىٰ مايؤمر به، يضعف الانجاز..) .

و«بخلل الأحوال ، تتبين الأهوال (اي بعدم استواء الاحوال وجريها على سنن واحدة ، تظهر الشدائد) .. وهكذا بقية الرسالة:ـ

«وبموجب الصبر ، ثمرة النصر ، واستحقاق الإحماد ، بحسب الإجتهاد ، ووجوب الملاحظة كفاءة المحافظة ، وصفاء المؤالي بتعهد الموالي ، وتحلي المروءات بحفظ الأمانات، وإحتبار الاخوان بتخفيف الأحزان ، ودفع الاعداء بكف الاوداء ، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتبصر العواقب يؤمن المعاطب ، وإتقاء الشنعة، ينشر السمعة ، وقبح الجفاء ينافي الوفاء ، وجوهر الاحرار عند الاسرار..»

فاذا اراد القارىء عكس قلبها فليقل: الاسرار عند الاحرار وجوهر الوفاء ينافي الجفاء وقبح السمعة ينشر الشنعة ، وإتقاء المعاطب يؤمن العواقب..، الخ .

قال الراوي: ولما صدع برسالته الفريدة ، وأملوحته المفيدة ، علمنا كيف يتفاضل الانشاء وهكذا تعلق الجميع بهذا الفطن ، وحاولوا الإفادة من علمه وأدبه ، وراحو يهبونه العطايا والمنح مما يملكون ، فقلت له كن ياأبا زيد، علىٰ شحوب

سحنتك ونضوء ماء وجهك .. فقال: انا هو علىٰ نحولي وقحولي وقشف محولي..

فراح الحارث يعاتبه ويونجه علىٰ تشريقة وتغريبه د لكنه بسملم وحولق وقرأ شعراً مغادة ان الزمان شحن سيفه عليه ، وانتزع النوم من عينية ، وأسال دمعه ، ودفعه الى التغرب بين المشرق والمغرب ، والمغترب متغير دائماً، وتوجهه بعيد..

ثم ان السروجي غادر القوم ، وهم بين متلهف إليه ومتهافت عليه ومتلفت إليه ثم مالبثوا ان تفرقوا..

المقامة الثامنة عشرة
السنجارية

«..حكىٰ الحارث بن همام قال قفلت ذات مرةٍ من الشام، أنحو مدينة السلام في ركب بني نمير ، ورفقة أولي خير ومير ، ومعنا أبو زيد السروجي عقلة العجلان ، وسلوة الثكلان ، وأعجوبة الزمان ، والمشار إليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار ، أن أو لم بها أحد التجار..»

كان الحارث بن همام عائداً من بلاد الشام الى بغداد . مع ركب من بني نمير ، ومعهم ابو زيد السروجي ، بما عرف عنه من رقي أدب وسعة إطلاع وجماع لسان وفرادة كتابة .. فنزلوا في مدينة (سنجار) ، وكان أحد التجار قد أقام فيها وليمة كبيرة دعا الىٰ مأدبته ، العامة والخاصة ، حتىٰ شملت القافلة التي كان فيها الحارث والسروجي.. فأستجابوا للدعوة ، فكانت المائدة غنية بالأطعمة الشهية ، وبضمنها الحلويات والمرطبات والمجمدات ، التي كأنها - علىٰ فرط شفافيتها - جمدت في الهواء أو صيغت من نور الفضاء ، وضمخت بالطيب والعطر ، فازدادت شهية الناس لمنظر الاطعمة والمشروبات ، وحين إقتربوا من المائدة أكلوا بشهية وكأنهم شنوا الغارات على الطعام ، لكن ابا زيد شذ عن الجماعة تباعد ، فسألوه العودة والاقتراب ، فأقسم الا يعود دون رفع الجام ،.. فلم يجدوا بداً من إرضائه وابرار يمينه وقسمه ، فرفعوه من المائدة ، والعقول معه شائلة ، والدموع عليه سائلة ،.. فلما ارجع ابو زيد الىٰ مكانه ، وخلص من ذنب قسمه ، سأله الجماعة لم قام ولأي معنىٰ إسترفع الجام ، فقال ان الزجاج نمام، وإني آليت منذ أعوام ان لايضمني ونموماً مقام . فسألوه عن سبب قسمه، فحكىٰ لهم انه كان له جار

لسانه يتودد ويتقرب ، وقلبه عقرب .. لفظه شهد ينقع وخبؤه (سم) منقع ، فمال لمحاورته الىٰ محاورته وخداع ابتسامته في معاشرته .. واستهواه حسن منظره لمنادمته ، وأغرته خدعه شكله ومظهره بمحادثته ، فمازجه واختلط به وهو جاره الملاصق لبيته ، فظهر له انه عقاب كاسر ، وحية ملساء ، وجامله ومالحه ولم يعلم انه عند اختياره ممن يفرح لموته،.. وكانت عند ابي زيد جارية لايجاريها أحد في جمالها ، فهي جميلة ، محدثة، مغنية وعازفة وراقصة ، فكان يحجب مرآها عن الشمس والقمر ويغار عليها من النسيم ، لكن حظه المنحوس وسوء طالعه أنطقه يوماً بوصفها أمام هذا الجار النمام، وكان ابو زيد ثملاً وحين صحا.. كان الأوان قد فات، فشعر وكأنه اصبح مجنوناً، وكأن الشر قد حل به وضاع ماله ، وبادر لأن يطلب من جاره عهداً بأن يحفظ السر ، ولايخبر أحداً بجمال الجارية وشمائلها الممتازة ، فزعم الجار بأنه خازن أسرار ، كما يخزن اللئيم البخيل الدينار .. ولكن ماأن مضىٰ يوم أو يومان حتىٰ أعلن لأمير تلك البلدة وواليها الرغبة في التوجه الىٰ الملك ليعرض عليه ماعنده من جندٍ ، طالباً رضاه وعطاياه.. وكان يروم ان يأخذ معه تحفة تلائم هواه وتليق بمكانته ، فجعل يعلن الجوائز والمغريات المالية لمن يأتيه بهدية بهذا المستوىٰ ،..

وكان ذلك الجار النمام يتأسف طامعاً في أن يلبي رغبة الأمير ، فأتىٰ إليه ، والطمع دافعه ، فأخبره بسر تلك الجارية الحسناء المتأدبة ،..

وفجأة داهم جند الأمير ، وهجمت حاشيته ، بيت السروجي ، يطلبون منه تقديم درته النادرة الىٰ الأمير وتفضيله فيها علىٰ نفسه ، فتألم وركبه الحزن والهم ، وظل يدافع عنها ، ويستشفع الىٰ الأمير فلا تجدي الشفاعة وكلما رأىٰ منه إزدياد الإمتناع والتشبث بالجارية ، زاد الأمير تجرماً وعناداً فألتهب غيظاً .. ومع ذلك فإن نفس السروجي لاتسمح له بمفارقة جاريته الدره ، اذ كأنهم ينتزعون قلبه من صدره ، حتىٰ وصل الحال الىٰ الوعيد والتهديد ، فأضطر السروجي أن يمنح الأمير ، الجارية وكأنه يمنحه سواد العين بصفرة الذهب .. ولم يحصل الواشي النمام غير الأثم والعار.. لذا عاهد السروجي الله تعالىٰ منذ ذلك الوقت الا يحاضر نماماً من بعد .. و«الزجاج» مخصوص بهذه الطباع الذميمة ، وبعد، فهو يضرب به المثل بالنميمة ، ولذلك السبب لم تمتد إليه يمينه ، وألقىٰ أبياتاً بهذا المعنىٰ ..

فقال الحارث ، لقد قبل القوم اعتذاره واعذاره ، فذموا النميمة وصاحبها منذ حمالة الحطب (ام جميل بنت حرب عمة معاوية بن أبي سفيان إمرأة ابي لهب ، والتي كانت تطرح الشوك في طريق النبي محمد (ص) ، وأصحابه لتؤذيهم ، وكانت تمشي بالنمائم الىٰ قريش فتحرض القوم علىٰ الرسول (ص)...)

وسألوه ماذا تم بشأن جاره النمام ، فقال أخذ بالتذلل والخضوع ، وطلب الشفاعة اليه بذوي المكانة ، وكان السروجي قد عاهد نفسه علىٰ الا يصاحبه ، وقال فيه أبياتاً هجائية يذم فيها النميمة وصاحبها..

قال الراوي ، فلما سمع صاحب المأدبة قريضه وسجعه وإستملح تقريضه ونقده ، وهجاءه ، منحهُ العطايا ، واحضر عشر صحاف من الفضة فيها عصير السكر بدلاً من زجاج الخمر..

فنال صحاف الفضة من التاجر ، مع الغلام الذي أتىٰ بها ، فشكر علىٰ كرمه ، وودع صاحبه ، وعاد الىٰ أهله وأطفاله بتلك الغنيمه ، وقد ترك فيهم أثره الطيب من كلامه الحلو ، وشعره ، وحكمته ، وحديثه عن النميمة والنمام .

المقامة التاسعة عشرة

النصيبة

«.. روىٰ الحارث بن همام قال أمحل العراق ذات العويم ، لإخلاف أنواء الغيم ، وتحدث الركبان بريف نصيبين ، وبلهْنية أهلها المخصبين ، فأقتعدت مهرياً واعتقلت سمهرياً ، وسرت تلفظني أرض الىٰ أرض..»

في أحد الاعوام أجدب العراق لتخلف سقوط المطر ، فسمع الحارث بن همام بعض الركبان يتحدثون عن ريف خصيب في مدينة نصيبين ، وكانت مدينة عظيمة في تلك الأزمان ، كثيرة الانهار والبساتين ، مطلة علىٰ «الجودي» (الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام) إفتتحها غانم بن عياض في خلافة عمر بن الخطاب (رض) ، واصبحت ضمن رقعة الدولة العربية الإسلامية ..

كما سمع الحارث عن رغد العيش والرخاء والسعة التي يتمتع بها أهلها ، فركب جملاً مَهَرْيّاً (نسبة الىٰ مهرة وهي قبيلة ببلاد حضرموت كانت تتخذ بجائب الإبل) واتخذ رمحاً سمهرياً (وهو الرمح الصلب نسبة الىٰ سمهر زوج ردينة ، وكانا صانعين ماهرين للرماح) ، فوضع الرمح بين ساقيه وركابه ، وسار تطرحه أرض الىٰ أرض ، متنقلاً بين البلدان والمدن ، حتىٰ وصل نصيبين ، متعباً ، فلما نزل في منزلها الخصيب ، وضرب في مرعاها بنصيب ، قرر أن يقيم فيها ، ويتخذ من أهلها جيراناً له حتىٰ تنتهي سنة الجَدب ويهطل المطر في أرض أهله.. لكنه لم يرتح في هذه المدينة بعد ، وما إنقضت ليلته عن يومها ، حتىٰ وجد بأبي زيد مغنمه ورفيقه ، وظل يتبع ظله أينما سار ، ويلتقط لفظه كلما تحدث وتكلم ، الىٰ ان انتابه

مرض طال زمنه ، فأجهده وأضعفه ، حتىٰ كاد يسلبه الحياة ويسلمه الىٰ الموت ، فوجد الحارث ان ابتعاده عنه والاشاعة التي أطلقت من أن مرضه مرض مُزمنٌ وميؤوس منه ، أقلقه ، كما أقلق صحبه.. فتسارعوا الى مكانه حيارىٰ ، يميل بهم حزنهم كأنهم سكارىٰ وهم يذرفون الدموع ، وقد شقوا الجيوب ولطموا الخدود .. وكانوا يودون لو دفعوا عنه المنية والخطر بكل مايملكون من المال ، أو يفتدونه بالنفس ..

وقال الراوي: وكان ممن التقىٰ اصحاب السروجي واجتمع بهم لمساعدة أبي زيد ، فأسرعوا الى بابه ، وحين دخلوا ساحة داره، وتهيأوا لمعرفة أخباره ، ظهر لهم مُبتسماً، فأستطلعوا منه أخبار الشيخ في مرضه وحقيقة حاله ، فأجابهم بأنه كان في قبضة المرضة وعركة الوعكة . اذ مسته الحمىٰ فأضنته وأتعبته وأوجعته وأضعفته.. ثم من الله تعالى عليه بتقوية نفسه فأفاق من الإغماء ،.. وطلب من الجماعة ان يعودوا أدراجهم ، ولايقلقوا ، أو يخافوا.. فكأن زيارتهم هذه قد أشفته وأراحته .. فأرتاح الحارث وصحبه لهذه البشرىٰ ، وأقترحوا أن يدخلوا عليه ليطمئنوا ، فدخل الفتىٰ واستأذن الشيخ ثم خرج إليهم آذناً لهم بالدخول فألتقوا شيخهم السروجي ضعيفاً ملقىٰ ، ولساناً طلقاً ، فجلسوا محدقين بسريره ، وهم يتفحصون أساريره ، فنظر في الجماعة ، ثم قال: إجتلوها بنت الساعة ، وأنشد قصيدة مرتجلة بنت ساعتها ، قال فيها:

عافاني الله وشكراً له
من علةٍ كادت تعفيني

واستمر في بقية الأبيات يشكو مرضه ، وتلك الحمىٰ التي كادت تمحو أثره ، فعطلت عليه رزقه وهو لايبالي اذا دنت منيته وقرب أجله ، فالبلايا تخلقه وتقويه ، حتىٰ قوله:

فأي فخرٍ في حياة أرىٰ   فيها البلايا ثم تبليني

فدعا له صحبه بطول العمر والشفاء التام وزوال الفزع والمرض والخوف ، ثم تداعوا الىٰ القيام لتحاشي الإضجار والإبرام .. فرفض مغادرتهم وطلب إليهم البقاء عنده النهار بأكمله ليطيبوا نفسه بالكلام الجميل والمؤانسة والمحادثة ، فإن مناجاتهم له قوت وحياة وأنس .. فأتفق الجماعة أن يستجيبوا لرضاه ،

ويتحاشوا غضبه وزعله ، فأقبلوا علىٰ الحديث الجميل، واستخراج خياره ، حتىٰ حل وقت القيلولة (ظهراً) ، وتعبت الألسن من القيل والقال ، وكان يوماً حاراً ، وأن استأنسوا بزاهر الكلام وجميله وعذوبته ، لكن النعاس قد أمال الأعناق وراود الآماق ، وهو خصم أكدُّ ، وخطب لايرد ، فطلب السروجي من القوم ان يَصِلوا حبل النعاس بالقيلولة ، فأستجابوا ، وتفرغوا للنوم .. ولما استيقظوا كان الحر قد فتر وسكن ، والنهار قد قارب علىٰ الانتهاء ، فنهضوا وتوضأوا وأدوا صلاة الظهر والعصر ، ثم تهيأوا للإرتحال الى ملقىٰ الرحال .. فألتفت أبو زيد الىٰ إبنه . وكان علىٰ شاكلته وشكله ، وقال: إني لأخال أبا عمرةٍ قد أضرم في احشائهم الجمرة فأستبدع أبا جامعٍ ، فأنه بشرىٰ كل جائع ، واردفه بأبي نعيم الصابر علىٰ ضيم ، ثم عزز بأبي حبيب ، المحبب الىٰ كل لبيب ، المقلب بين إحراق وتعذيب ، وأهب بأبي ثقيف ، فحبذا هو من أليف ، وهلمم بأبي عون فما مثله من عون، ولو استحضرت أبا جميل لجمل أي تجميل ، وحي هل بأم القرىٰ المذكرة بكسرىٰ ، ولاتتناس أم جابر فكم لها من ذاكر ، ونادِ أم الفرج ثم إفتك بها ولاحرج ، وإختم بأبي رزين فهو مسلاة كل حزين ، وأن تقرن به أبا العلاء ، تمحُ اسمك من البخلاء ، وإياك واستدناء المرجفين قبل استقلال حمول البين ، وإذا نزع القوم عن المراس وصافحوا أبا اياس ، فأطف عليهم أبا السرو فإنه عنوان السروِ..

فقال الراوي ففقه إبنه لطائف رموزه ، بلطافة تمييزه ، فطاف علينا بالطيبات والطيب ..

وكان السروجي قد أطلق علىٰ كل نوعٍ من أنواع الطعام وأوانيه وملحقاته كنيةً بعد ان انتاب الجماعة الجوع (الذي كناه بأبي عمره ويكنىٰ أيضاً بأبي مالك).. وفي هذه المقامة أراد الحريري إظهار قابليته في الكنايا وبلاغته في ذلك النوع من ابتداع الاسماء:

ابو جامع: كناية ، يعني الخوان وهو إنا الطعام

ابو نعيم: هو الخبز الحواري ، وهو المصنوع من خالص الدقيق

ابو ثقيف: الخل

ابو جيب: الجدي

ابو عون: الملح

أبو جميل: البقل

أم القرىٰ: الكسياج ، وهو طعام فيه خل

ام جابر: الهريسة

ام الفرج: الجواذب، وهو طعام يتخذ من سكر ورز ولحم

أبو رزين: الخبيص

أبو العلاء: الفالوذج

المرجفان: هما الطست والأبريق

ابو إياس: هو الغسول

ابو السرو: البخور

(وقبل ذلك كنىٰ الموت بـ «أبي يحيىٰ»..) (والزمـان بأبي العجب) وحـين أذنت الشمس بالمغيب ، اتفقوا علىٰ التوديع فقال الجمـاعة لأبي زيـد: ألم تر هـذا اليوم البديع ، كيف بدأ صُبَحهُ قمطريراً، شديد البلاء ، ومسُيُه مستنيراً (مساؤه مضيئاً فرحاً) فسجد السروجي حتىٰ أطال ، ثم رفع رأسه شاكراً الله تعالىٰ ، وقال شعراً فيه الحكمة والموعظة منه:

لايتأسن عند النوب
من فرحةٍ تجلو الكرب
فلكم سمومٍ هب ثم
جرىٰ نسيماً، وأنقلب
.. فأصبر اذا ماناب روع
فالزمان أبو العجب

قال الحارث ، فأستملينا منه أبياته الجميلة، وتمنينا من الله له الصحة والعافية ، شاكرين وودعناه مسرورين ببرئه، وشفائه، مغمورين ببره، وإحسانه..

المقامة العشرون
الفارقية

«.. حكىٰ الحارث بن همام قال يممت ميا فارقين ، مع رفقةٍ موافقين، لايمارون في المناجاه ، ولايدرون ماأطعم المداجاة ، فكنت بهم كمن يرم عن وجاره، ولا ظعن عن أليفه وجاره..»

قصد الحارث بن همام بلدةً في الشام من ديار ربيعه تدعىٰ «ميا»، مع جماعة له لا يجادلون في المحادثة ، ولايستر بعضهم عن بعض مافي نفسه ، فكان بينهم كمن لم يبرح من مكانه ولا رحل عن صاحبه ،.. وحين حلوا بالبلدة ، إنتقلوا من راحلاتهم الى البيوت ليستريحوا من عناء السفر ، فأوصىٰ بعضهم بعضاً بتذكر صحبتهم تلك ، والا يتباعدوا ، فأتفقوا علىٰ اتخاذ مجلس لهم يلتقون فيه نهاراً ليتحادثوا فيه ويتبادلوا محاسن الاخبار والحوادث والرواية والأدب ،..

وفي يوم، بينما هم مجتمعون ، وقف عليهم متحدث بارع ، صاحب لسان وصوت شديد فحياهم تحية من إمتلك سحر الكلام ، بقصيدة قال فيها :

عندي ياقومِ حديث عجيب
فيه إعتبار للبيب الأريب
رأيت في ريعان عمري أخا
بأسٍ له الحسام القضيبْ
يقدم في المعرك إقدام من
يوقن بالفتكِ ولا يستريب

فيفرج الضيق بكراته

حتىٰ يرىٰ ماكان ضنكاً رحيب

مابارز الأقران الا إنثنىٰ

عن موقف الطعن برمحٍ خضيب

وراح يصف «أخا البأس» هذا ، الذي كان مقداماً في الفتك ، حتىٰ جعلته الليالي مطروحاً مريضاً ، يعافه من كان منه قريباً ، وها هو مسجىٰ ، ميت وغريب .. ثم ان الشيخ راح يبكي بكاء المحب علىٰ الحبيب ،.. ولما إنقطعت دموعه ، وسكنت لوعته خاطب الجماعة كونهم مقصد الطلب وقدوة الكرام ، وكونه ماأخبرهم الا عن شيء شاهده ورآه ، ولو كان متمكناً مقتدراً لما دعاهم الى المساعدة والعون،.. ولكن كيف الطيران بلا جناح وهل علىٰ من لايجد من جناح، (مالٍ)، والقدرة في إثمٍ وجرم من طلبه من الكرام .

قال الراوي: وراح القوم يتشاورون ، وهم مسرورون بالكلام ، فتوهم الشيخ بأنهم سيردونه محرقاً ، أو يطالبونه ببرهان ، فراح يحدثهم بمزيد من التقريع لأنهم يرتابون فيه ويشككون.. وكأنهم دعوا الى كسوة البيت العتيق (الكعبة)، لالتكفين ميت.. وراح يتضجر ممن لايجود ولايعطي..

فلما رأت الجماعة فصاحة لسانه، ومرارةٍ نقده ، اعطاه كل منهم مايستطيع ، قال الحارث وكان هذا السائل، واقفاً خلفي ومحتجباً بظهري عن طرفي.. فلما أرضاه القوم بعطائهم، خلعت خاتمي من خنصري ، والتفت إليه ، فاذا هو شيخنا السروجي بلا أدنىٰ شك، فأيقنت ان ماقاله أكذوبة وحيلة من حيلة ليتكسب ، ولينال المال والعطايا والهبات .. فاعطىٰ الحارث الخاتم الىٰ السروجي ، وقال له: إرصده ، اي اصرفه ، لنفقة المأتم!..

فقال السروجي : واهاً لك، فما أضرم شعلتك ، وأكرم فعلتك.. ثم انطلق مسرعاً متعجباً من ذكاء الحارث وفطنته.. ولحقه الحارث مهرولاً ليعرف «ميته»، والكشف عن حيلته ، حتىٰ أدركه وأعاق استمراره مهدداً إياه بأنه لامفر منه ولا نجاة له إن لم يره (ميته المسجىٰ).. فأطرق الشيخ بخبث، ثم كشف عن سراويله ، واشار الى عضوه.. فلعنه الحارث علىٰ لعبه بالعقول وتحايله من أجل النقود ، ثم عاد الحارث الىٰ اصحابه عود الرائد الذي لايكذب أهله ، ولايبرقش قوله فأخبرهم بالذي رأىٰ ، وبالتورية التي قام بها السروجي، فضحكوا بصوتٍ عالٍ ، ولعنوا ذلك «الميت»!

المقامة الحادية والعشرون

الرازية

«حكىٰ الحارث بن همام قال عنيت من أحكمتُ تدبيري ، وعرفت قبيلي من دَبيري، بأن أصغي الىٰ العظات ، وألغي الكلم المحفظات لأتحلىٰ بمحاسن الأخلاق، وأتخلىٰ مما يَسمُ بالإخلاق..»

تحدث الحارث عن إهتمامه ، منذ إمتلك وعي تدبيرا لأمور ومعرفة النظر الىٰ مايفيد أو يضر ، بأن يصغي الى المواعظ ، ويتحاشىٰ الكلام المنفعل المغضب ، كي يتزين بالخلق الحسن والطباع الحميدة ، متجنباً العيوب ومايوصل إليها..

وهكذا راح يؤدب نفسه بهذا المنهج ، فيطفيء جمره الغضب حين تستعر ، حتىٰ صار التكلف فيه ، من سجاياه ..والتكلف له هوىٰ،..فلما وصل «الري» (وهي بلدة في عراق العجم آنذاك)، وعرف الحق من الباطل والظاهر من الخفي، والحية من الحبل ، أي أنه تعرف حقائق الأمور، رأى في مطلع يوم، جماعةً منتشرة إثر جماعة ، وهم منبثون يصف كل منهم الآخر ، واعظاً كي يذهبوا إليه لأنهم يفضلونه علىٰ «إبن سمعون ، وهو ابو الحسين محمد بن محمد بن اسماعيل الواعظ ، وكان رجلاً بليغاً في حسن إلقاء الموعظ».. فصعب علىٰ الحارث الا يستمع الى المواعظ ويختبر الواعظ ، رغم ماقاسىٰ وعانىٰ منذ الصباح ، من لغط الكلام واللفظ والزحام في ذلك المكان..فدفعته رغبته الى الإنقياد لذلك الحشد والإنضمام الىٰ الجماعة ، حتىٰ وصلوا الىٰ مجلس إحتشد فيه جمع خليط من النبيه وحتىٰ المغمور، ووسط المجلس جلس شيخ محدودب الظهر وقد بالغ في إخراج صدره ودخول ظهره، مرتدياً قلنسوة علىٰ رأسه طيلساناً علىٰ كتفيه (وهو

لباس الزهاد النساك)، يتكلم جهاراً بوعظ يشفي الصدور ويلين الصخور، فسمعه الحارث وقد افتتنت به العقول، وهو يقول موعظته:

«إبن آدم ما أغراك، بما يَغُرك، وأضراك بما يضرك، وألهجك بما يطغيك، وأبهجك بمن يطريك، تعنىٰ بما يعنيك، وتهمل ماتعينك وتنزع في قوس تعديك، وترتدي الحرص الذي يرديك .

لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع، ولا للعظات تستمع، ولا بالموعيد ترتدع، دأبك ان تتقلب مع الاهواء، وتخبط العشواء، وهمك ان تدأب في الإحتراث ، وتجمع التراث للوُرّاث ، يعجبك التكاثر بما لديك، ولاتذكر مابين يديك، وتسعىٰ أبداً لغاريك ، ولاتبالي ألك أم عليك . أتظن ان ستترك سدى ، وان لاتحاسب غداً ، أم تحسب ان الموت يقبل الرشىٰ، أو يميز بين الأسد والرشا؟ كلا والله لن يدفع المنون ، مال ولا بنون. ولاينفع أهل القبور، سوىٰ العمل المبرور ، فطوبىٰ لمن سمع ووعىٰ، وحقق ما أدعىٰ، ونهىٰ النفس عن الهوىٰ، وعلم ان الفائز من أرعوىٰ، وان ليس للانسان الا ماسعىٰ، وإن سعيه سوف يرىٰ..»

واستمر الشيخ يعظ الانسان بان لايولع بما يغريه . ويخدعه ويدخله في الطغيان وأن لايسره من يبالغ في مدحه ، وبأن يهتم بما يعنيه، وأن يبتعد عن الطمح وجمع المال وعدم البذل، والبخل.. والا يأخذه ذلك لظلم الناس ، فيهلكه طمعه ، ولايكتفي بالمحدود من القوت ولايمتنع عن ماحرمه الله، ولا يقبل المواعظ، ولايأبه للتهديد فتكف وتنزجر.. ويدين هذا الشيخ كل الذين من عادتهم التقلب مع الأهواء، ومن لايسيرون على هدىٰ وإستقامه ، وهمهم الإكتساب وجمع المال والميراث، والافتخار بما عنده، ولا يبالي بالموت ويذكره ، وهو آخر المطاف في الحياة ، حيث الحساب والعقاب على كل مااقترفه الانسان من اخطاء وذنوب ، معتقداً بأنه بمنجىٰ وانه لايحاسب، وكأن الموت يقبل الرشوة!

كلا.. فلن يبعد الموت والحساب عن الانسان لا المال ولا البنون، ولاينفع أهل القبور سوىٰ عملهم الصالح ، وسينال الصالح كل خير وثواب في الجنة، اذ ليس للانسان الا ماقدم من عمل وان عمله سوف يرىٰ ..

ثم أنشد هذا الشيخ الواعظ قصيدة بصوت مرتفع مطرب ، يعظ فيه الانسان أيضاً ببلاغة ساحرة ولسان مبين وحكمة بليغة.. فسحر الناس وأثر فيهم حتىٰ كان القوم بين باكٍ يذرف الدموع، وبين من يدعو للتوبة والمغفرة ، وحين كادت الشمس تغيب ،

واقترب موعد الصلاة ، هـدأت الاصوات ثم سكتت ، والتـأم الانصات واستكنت العبرات، فبرز الواعظ يتمايل في مشيته بين صحبه ، ويتبـاهىٰ بفوزه ، حتىٰ تبعـه الحارث يخطو وراءه بخطوات بطيئة وهو لايفارق بصره ، فلما فطن إليه الشيخ وادرك مراقبته له ومتابعته إياه التفت إليه قائلاً: خير دليليك من أرشد، ثم أنشد:

انا الذي تعرفه ياحارث
حدث ملوكٍ، فكهٍ منافث
أطرب مالا تطرب المثالث
طوراً أخو جدٍ، وطوراً عابث
وماغيرتني بعدك الحوادث
ولا التحىٰ عوديَ خطب كارث
ولا فرىٰ حدي ناب فارث
بل مخلبي بكل صيد ضابت
وكل سرحٍ فيه ذئبي عائث
حتىٰ كأني للانام وارث
سامهم وحامهم ويافث

فعرفه الحارث بانه شيخنا السروجي ، وقال له: تالله إنك لأبو زيد ، ولقد قمت ولا عمر بن عبيد (وعمر بن عبيد هو من زعماء المعتزلة كان زاهداً ورعاً دخل يوماً علىٰ المنصور فقال له عظني فوعظه وعظاً بليغاً، فبكىٰ بكاءً خيف عليه منه ، ثم هم عمر بالقيام فقال له المنصور متىٰ تأتينا فقال: لايجمعني وإياك بلد،.. فقال إذاً لانلتقي أبداً، فقال عمر: وذلك الذي أريد...، وتوفي سنة ٢٤٤ هـ ولما بلغ المنصور خبر موته قال: لم يبق أحدُ علىٰ وجه الأرض يستفتىٰ منه) .

وهكذا إرتاح أبو زيد حين وصفه الحارث بأنه مثل عمـر بن عبيد، فقـال هذين البيتين:

عليك بالصدق ولو إنه	أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضى الله فأغبىٰ الورىٰ	من أسخط المولىٰ وأرضىٰ العبيد

ثم ان السروجي ودع اصدقاءه، وإنطلق يجر أطراف ثوبه ، فبحث عنه الحارث، بعدئذٍ، في (الري)، وارسل الرسائل في جميع البلاد، فلم يعرف له موضع، وهكذا ظلوا يجهلون مقره .

المقامة الثانية والعشرون
الفراتية

«حكىٰ الحارث بن همام قال أويت في بعض الفترات ، الىٰ سقي الفرات ، فلقيت بها كتاباً أبرع من بني الفرات ، وأعذب أخلاقاً من الماء الفرات ، فأطفت بهم لتهذيبهم ، ولا لذهبهم ، وكاثرتهم لأدبهم لالمآدبهم..»

إنضم الحارث بن همام في بعض اوقات فراغه الى الإراضي الخصبة من الفرات في منطقة الكوفة فالتقىٰ هناك عدداً من الكتاب البارعين والفصحاء من بني الفرات ، وهم كما وصفهم اعذب أخلاقاً من الماء العذب ، وكانوا أصحاب فضل وكرم ، وهم أربعة أخوة أكبرهم احمد ابو العباس ، وابو الحسن علي ، وابو عبد الله جعفر ، وأبو عيسى ابراهيم ، وابو هم محمد بن موسىٰ بن الحسين بن الفرات ، فلازمهم الحارث لحسن أخلاقهم ولأدبهم لا لكثرة طعامهم ومآدبهم، التي عرفوا بها.. أيضاً، فجالس منهم أمثال القعقاع بن شور أحد بني عمرو بن شيبان، وكان ممن جرىٰ مجرىٰ كعب بن مامة في حسن الجوار يضرب به المثل حتىٰ قيل فيه :

وكنت جليس قعقاع بن شورِ
ولا يُشقىٰ بقعقاع جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخير
وعند الشر مطراق عبوس

ووصل بهم الى الزيادة بعد النقصان ، حتىٰ انهم اشركو في مرعاهم ومنزلهم وأنزلوه منزل أهل بيتهم وكأنه واحد منهم.. وإتخذوه أنيسهم وصديقهم في الولاية والعزل

وإتمنوه على أسرارهم في الجد والهزل، فأتفق ان دعوا في بعض الأوقات لتتبع مزارع الرازداقات (والرزداق أو الرستاق بخراسان كالمخلاف باليمن والسواد بالعراق ، وهو قرى الزراعة) ، فإختاروا من السفن ، أكثرها إستقراراً وصموداً وسرعة ، وهي تمر مر السحاب ، وتنساب في الموج مثل الحية، لسرعتها وقوتها.. ودعوه الى مرافقتهم فلبى دعوتهم ، فركبوا السفينة، وكانت تبدو سوداء لأنها مقيرة ، وحين دخلوا بطنها وجدوا فيها شيخاً عليه ثوب خرق ، وعمامة بالية، فكرهت الجماعة مجلسه، وعنفت ووبخت من أحضره، وهمت بأخراجه من السفينة لولا ماثاب اليها من وقار وسكون وتصرف حكيم،.. فلما رأى الشيخ من الجماعة إستثقال ظله. وإستبراد طله، تعرض للمناقشة والحديث، وبعد ان سكت وحمد الله وعطس لم يقل أحد له يرحمك الله، فسكت لحظة من حياء، ينظر فيما آلت إليه حاله وينتظر نصرته وهو المظلوم ،..

وبينما هو كذلك، إنشغلت الجماعة بالنقاش والكلام ، وأحاديث الجد والمجون ، حتى جاء ذكر الكتابتين (يعني كتابة الانشاء وكتابة الحساب) وفضلهما، وتبيان أفضلهما، فقال قائل إن كتبة الانشاء أنبل الكتاب ، ومال آخر الى تفضيل الحساب ، وإحتدت المناقشات، وإمتد الجدل ، حتى لم يبق للجدال موضع ، ولا مسرح ، فقال الشيخ ، لقد أكثرتم ، ياقوم اللغط ، وآثرتم الصواب والغلط ، وإن جلية الحكم عندي ، فإرتضوا بنقدي ، ولا تستفتوا أحداً بعدي،..

وراح يتحدث عن صناعة الإنشاء كونها أرفع وأعلى رتبة ، وان صناعة الحساب أنفع ، وقلم المكاتبة خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب (كأنه يجمع بين الجيد والرديء) وأساطير البلاغة تنسخ لتدرس، ودساتير الحسبانات تنسخ وتدرس (أي تنعدم وتمحي) ، والمنشيء جهينة الأخبار (وهو المشار إليه في قولهم: وعند جهنية ، أو عند جفينه ، الخبر اليقين ، وقال السيرافي ، هو إسم خَمار اجتمع عنده رجلان فشربا وسكرا ثم تواثبا (تشاجرا) فقام آخر يصلح بينهما فقتله أحدهما ، فأخذ أهله الرجلين ، فقال الحاكم عليكم بجفينة ، فان عنده الخبر اليقين ، فلا يقال جهينة، هكذا يقول الأصمعي،.. وقال هشام بن الكعبي ، هو جهينه قال أبو عبيدة وكان ابن الكلبي في هذا النوع أكثر من الأصمعي دقة ومتابعة ، فهو، مثل جهينة ، فحادث العلماء وكبير الندماء ، وقلمه لسان الدولة وفارس الجولة (شبه به قلم المنشيء لان كلا منهما يكون سبباً في الهزيمة)، ولقمان الحكمة وترجمان الهمة، وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير (اي المتوسط في الصلح بين القوم)، به (أي بالقلم) تستخلص الحصون

والقلاع، وتملك النواصي ، ويقتاد العاصي، ويقرب القاصي البعيد، وصاحبه بريء من التبعات، آمن كيد السعاة (اصحاب النميمة وكتاب التقارير)، مقرظ بين الجماعات (اي ممدوح)، غير معرضٍ لنظم الجماعات (والجماعات بالفتح الناس المجتمعة وبالكسر دفاتر الرسوم والمعاملات)..

فلما انتهىٰ الشيخ في ابداء الرأي ، والحكم، الىٰ هذا الحد ، لحظ من لمحات القوم إنه نالَ حبهم وبغضهم، لأنه أرضىٰ بعضاً وأغضب بعضاً، فعقب كلامه بأن قال: الا ان صناعة الحساب موضوعة علىٰ التحقيق ، وصناعة الانشاء مبنية علىٰ التلفيق (والمقصود، هنا ، هو التمويه) ، وقلم الحساب ضابط (أي حافظ) ، وقلم المنشيء خابط (أي يخطيء ويصيب) ، وبين إتاوة توظيف المعاملات ، وتلاوة طوامير السجلات (كتب السجلات) ، فرق بعيد لايدركه قياس ، ولا يتداوله التباس واشتباه .. إذ الاتاوة تملأ الأكياس، والتلاوة تفرغ الرأس، وخراج الأوارج يغني الناظر (اي يصير غنياً) واستخراج المدارج (الكتب) يتعب من ينظر فيها.. ثم ان الحسبة (المحاسبين) حفظة الأموال ، وحملة الأثقال والثقات العدول والسفرة (الكتبة) الثقات ، واعلام الانصاف والإنتصاف، والشهود المقانع (الذين يقنع بشهادتهم) في الاختلاف ، ومنهم المستوفي الذي هو يد السلطان وقطب الديوان وقسطاس الاعمال (اي ميزانه)، والمهيمن على العمال ، وإليه المآب في السلم والهرج (اي الحرب)، وعليه المدار في الدخل والخرج ، وبه مناط الضر والنفع ، وفي يده رباط الاعطاء والمنع ، ولولا قلم الحساب لأضمحلت وضاعت ثمرة الاكتساب والثروات ولأتصل التغابن الى يوم الحساب، ولكان نظام المعاملات محلولاً، وجرح الظلامات مطلولاً، وجيد التناصف مغلولاً ، وسيف النظام مسلولاً (أي لزادت المظالم والمظلومون)..

ثم راح الشيخ يقيم مقارنات بين قلمي الكاتب والمحاسب ، علىٰ ان قلم الانشاء مُتَقَوِّل، (بمعنىٰ مموه ، وربما مفتر وكاذب) وقلم المحاسب مفسر للتأويل ، فالمحاسب مناقش ومستقصٍ ، والكاتب ابو براقش (وابو براقش طائر يتلون ، والكاتب، كناية مثل هذا الطائر: متلون)..

وقال الشيخ: لكن لكليهما حمة يـرقىٰ (وأصل الحمَة: سم العقرب ، وأستعير بالحمة، هنا ، لما ينشأ من القلمين من الأذىٰ) و(يرقىٰ: اي حين يعلو الدرجة وهي من الرقي إذا صعد).. فالكاتب والمحاسب مؤذيان حين يكونان في المناصب العليا ، حتىٰ يلقىٰ كل منهما ويرقىٰ ، أي يقال من منصبه ، أو ينحىٰ من درجته .. ولكل منهما

أعنات فيما ينشأ ويغشىٰ (اي تعب ومشقة وتكلف فيما يكتب ويهدف إليه) ويرشىٰ (اي يعطىٰ الرشوة)، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم قليلون .

قال الحارث بن همام ، فلما أمتع شيخنا الاسماع مما راق وراع ، سألناه عن نسبه وانتمائه ، فخاف وشك في أمنه وسلامه ، وأمتنع عن ذلك محاولاً التملص والهرب ، فظل الحارث قلقاً، شاكاً بأمره نتيجة عدم وضوح الشيخ، ثم فكر قليلاً ، وتذكر بعد حين ، بأن هذه الصفات، وهذا الذكاء وتلك المراوغة، لاتدلل الا علىٰ ابي زيد السروجي الذي لايجارىٰ في بديعه ، وإن كان يعهده صاحب مظهر حسن وقوة في المواقف، فأجابه الشيخ بالايجاب ضاحكاً من قوله، اذ ذاك اخبر الحارث صحبه بصفات ابي زيد الذي لايجارىٰ في بديعه وعجيبه وعبقريته (وعبقرية هي من عبقر، وهو موضع بالبادية ، يقال ان الجن تسكنه ، فنسب إليه كل مايستحسن ويستغرب ، كأن الجن صنعته لغرابته وفرادته ، وعبقري القوم سيدهم ، وهومبني علىٰ قوله عليه الصلاة والسلام في عمر (رض): فلم أر عبقرياً يغري فريه..)

وهكذا خطب الجميع ود الشيخ ، وبذلوا له المال ، فرغب عن الألفة ، ولم يرغب في التحفة.. (اي اعرض عن ودهم ، ومال الىٰ المال والعطايا) لأنه لم ينس لهم استهانتهم به وسحقهم حقه لأجل سمعته ، وكسفوا باله لرثاثة ملابسه ، أي انهم احتقروه لمظهره الخارجي ولملابسه الرثة ، ولم يعرفوا ان خلف ذلك كله جوهر ابداع.. ورفض صداقتهم قائلاً: فما أراكم الا بالعين السخينة ولا لكم مني الا صحبة السفينة . (وصحبة السفينة: مثال يقال فيما لابقاء له ولا دوام) وراح ينشدهم اشعاراً تنطوي علىٰ الحكمة والموعظة الحسنة، بعدم التعجل في الامور ، ومدح من لم تختبره أو ذمه ، فالسليم ـ الصحيح ، ان يتأكد الانسان من خصائص الشيء قبل اعطاء الراي فيه ، والحكم عليه ... ولابد ان يميز الانسان بين البريق الخادع ، والجوهر النقي ، ولايخدع بالمظاهر ، وان من الكرم الا يكشف الانسان عيب أخيه ، بل يساعده علىٰ التخلص منه ، وأن مايكشفه هو الصفات الجيدة، الحسنة فإن إشاعتها والتحدث فيها أكرام لصاحبها ايضاً..وهكذا يدعو ابو زيد الناس واعظاً بأن يرفعوا من يستحق ذلك، فيرفعون قدره ، أما من يستحق الإنحطاط فليبق أمره مستوراً في الظلام لارشاده وتقويمه..دون كشف سره، وهكذا لن يعيب السيف الأصيل، عند الشجاع، كون قرابه بالياً من كثرة الاستعمال، ولايعيب الصقر عشه العادي ..وبعد أن تلا قصيدة هجاهم فيها ووبخهم لانهم لم يعرفوا قيمته ومكانته الادبية ورفعة منزلته ، طلب من الملاح

إيقاف السفينة، فطلع منها ، وذهب سائحاً في الارض، مغضباً..

وهكذا، قال الحارث، تعاهدنا علىٰ الا نحتقر شخصاً لرثاثة ملابسه والا تزدري سيفاً مخبوءاً في غمده..

المقامة الثالثة والعشرون
الشعرية

«حكىٰ الحارث بن همام قال نبا بي مألف الوطن ، في شرح الـزمن ، لخطب خُشي ، وخوفٍ غَشي ،فأرقتُ كأسَ الكرىٰ ،ونصصت ركابَ السرىٰ وجبتُ في سيري وعوراً لم تدمثها الخطىٰ..»

حكىٰ الحارث بن همام حين بعد به حب الوطن في بدء حياته نتيجة حدث عظيم ، أخافه فأرقه وأسهره، حتىٰ قرر السفر بعيداً ، فقطع المناطق الوعرة ومضىٰ في الطرق الصعبة ، حتىٰ وصل بغداد ، موضع الأمن والسلام ، والحافظ المانع من الخوف والقلق ، فأطمأن ، وقصر أهتمامه على لذة يتناولها وكلمة طيبة يتأملها ، فوصل يوماً الى مكان متسع حول قصر الخليفة يسمىٰ (الحريم)،.. لينظر ويتأمل طرافة المكان وجماله ، فاذا الفُرسان يتتابعون علىٰ المكان وهم يجرون، ورأىٰ أيضاً رجلاً كثير الكلام قصير الثوب الذي يجعل على العمامة ويلف علىٰ العنق، وهو يسحب فتىً يافعاً من ثوبه، حتىٰ وصلوا باب الإمارة حيث مكان (صاحب المعونـة) وهو (الـوالي) الذي يـوليه السلطان او الخليفة، حفظ المدينة وكان جالساً علىٰ مرتبته ذاهيبة ووقار، فشكا الشيخ ذلك الغلام اذ كفله طفلاً ورباه ورعاه يتيماً ، وعلمه ، فلما أصبح ماهراً حاذقاً وفاق زملاءه وأقرانه ، تمرد عليه وأستعصىٰ ، ولم يحترم الشيخ ، بل تواقح عليه واستخف به ، ففي الوقت الذي يتعلم منه ويرتوي ، فقد سرقه وخرج عن طاعته وأمره ، فقال له الفتىٰ متسائلاً: علىٰ مَ عثرت مني، حتىٰ تنشر هذا الخزي عني؟ وحلف بالايمان انه ماجحد فضل الشيخ ، ولاهتك حجاب ستره ، وما اذاع عنه مكروهاً ينتهك به حرمته وسره ، ولاعصا أمره ، ولا ألغىٰ تلاوة شكره .

لكن الشيخ وبخه صارخاً: وأي ريب أخزىٰ من ريبك وهل عيب أفحش من عيبك وقد ادعيت سحري ..

اي ان الفتىٰ حين تعلم من الشيخ فنون البلاغة والشعر والالغاز والكلام ، نسبه لنفسه فانتحل شعر غيره، لذا فسرقة الشعر عند العرب أفظع من سرقة الذهب، وغيرتهم علىٰ قصائدهم وافكارهم مثل غيرتهم علىٰ البنات الأبكار ، العذارىٰ..

فسأل الوالي: وهل حين سرق سلخ أم مسخ أم نسخ؟ (والسلخ تغيير اللفظ دون المعنىٰ / أما المسخ فتغييرهما معاً/ أما النسخ فنقله بعينه من غير تغيير كما يفعل النساخ..)

فاجاب الشيخ: والذي جعل الشعر ديوان العرب ، وترجمان الأدب ما أحدث سوىٰ ان بتر شمل شرحه وأغار علىٰ ثلثي سرحه ، (اي ان الفتىٰ اقتطع اجمل القصائد وإنتهب الاجزاء الأثرىٰ ، وهي ثلث الأبيات)

فطلب الوالي من الشيخ ان يتلو أبياته كاملة ليتضح ما أخذه الفتىٰ لنفسه منها فأنشد الشيخ قصيدته، ومنها)

ياخاطب الدنيا الدنية انها
شرك الردىٰ/وقرارة الأكدار
دار متىٰ أضحكتْ في يومها
أبكتْ غدا/بعداً لها من دار
وإذا أظل سحابها لم ينتفع
منه صدىٰ/لجهامة الغرار
غاراتها ماتنقضي وأسيرها
لايُفتدىٰ/بجلائل الأخطار
كم مزدهىٰ بغرورها حتىٰ بدا
متمردا/متجاوز المقدار
قلبت له ظهر المجن وأولفت
فيه المدىٰ/ونَزَتْ لأخذ الثار

فسأله الوالي عما فعل الفتىٰ ، تحديداً ، فاجاب الشيخ بأنه أخذ أبياته السداسية الأجزاء ، فحذف منها جزأين ، ونقص من أوزانها وزنين ، حتىٰ صار الرزء فيها رزأين ، (لأن القصيدة من بحر الكامل وأجزاؤه متفاعلن ست مرات..)، فطلب منه الوالي ان يوضح ما أخذ ، ومن أين أقتطع ، فأسترعىٰ الشيخ الإنتباه إليه ، كي يتبين

الوالي كيف تعدىٰ الفتىٰ على الشيخ ، وليتفهم مقدار جرمه ، ثم أنشد الأبيات التي إختزآها الفتىٰ:

ياخاطب الدنيا الدنيه
انها شرك الردىٰ
دار متىٰ ماأضكت
في يومها ابكت غدا

وهكذا الى آخر القصيدة ، وحين نتبين الفرق بين هذا النص ، وبين أصل الأبيات فسنجد ان الفتىٰ خدف الزيادة (التفعيليتن الأخيرتين) من كل بيت.. وبهذه المقارنة يضعنا الحريري أمام واحدة من براعاته الشعرية وتلاعبه بالوزن والمعنىٰ علىٰ لسان الشيخ ابي زيد السروجي، اذ تقرأ بمعنىٰ آخر ووزن جديد، ففي البيت: ياخاطب الدنيا.. الخ ، حذف: وقرارة الاكدار.. (مثلاً)، فالتفت الوالي الى الغلام ووبخه بقوله: تباً لك من خريج مارق وتلميذ سارق..

فدافع الفتىٰ عن نفسه ، ونفىٰ ذلك ، بل ادعىٰ انه لم يعلم بأبيات الشيخ ولم يسمع بها قبل أن يؤلف قصيدته ، وإنما إتفق توارد الخواطر كما قد يقع الحافر علىٰ الحافر ..

وأطرق الوالي وكأنه ندم علىٰ بادرة ذم الفتىٰ ، فظل يفكر في وسيلة تكشف له الحقائق ويميز بها الفائق من المائق ، فلم يجد وسيلة سوىٰ أخذهما بالمبادرة والمعارضة والمفاخرة ،

فقال لهما: ان إردتما إفتضاح العاطل ، واتضاح الحق من الباطل ، فتراسلا في النظم وتباريا وتجاولا في حلبة الإجازة وتجاريا . (والإجازة هي ان يقول هذا مصراعاً من البيت ، ويقول الآخر مصراعاً) ، فأجابا بلسان واحد ، وجواب متوارد: قد رضينا بسبرك ، فمرنا بأمرك فقال بانه مولع من أنواع البلاغة بالتجنيس (والتجنيس هو تناسب اللفظ واختلاف المعنىٰ) وطلب منهما ان ينظما الآن ـ عشرة أبيات ، وان يكون مضمون ذلك عن شرح الحال مع عاشقة جميلة ومتمنعة عن معشوقها ، وهولها كالعبد حباً وولاءً وطاعة ، علىٰ ان تتم المباراة بيتاً بيتاً الأول يقول والثاني يكمل ، فتبارىٰ الشيخ وفتاه علىٰ ذلك النسق الذي اراده الوالي، فصارت هذه القصيدة:

وأهوىٰ(١)، حوىٰ رِّقي(٢) برقة ثغرهِ(٣) وغادرني(٤) إلف السهاد(٥) بغدره(٦)
تصدىٰ(٧) لقتلي بالصدود(٨) وإنني لفي أسره(٩) مذحار قلبي بأسره(١٠)

أصدق منه الزور[١١] خوف إزوراره[١٢] وارضىٰ إستماع الهجر خشية هجره[١٣]
واستعذب التعذيب منه[١٤] وكلما أجِدُ[١٥] عذابي جَدَّ [١٦]بي حب بره[١٧]

الىٰ آخر القصيدة، التي أنشداها متراسلين ، متساويين ، فبهت الوالي لذكائهما المتعادلين وقال اشهد الله انكما فرقدا سماء ، وكزندين في وعاء ، فطلب الوالي من الشيخ ان يسحب إتهامه ، وسوف يكرمه ، فرفض الشيخ لكفرانه بالصنيع ولعقوقه الشنيع ، فإعترضه الفتىٰ قائلاً له:

(اللجاج شؤوم والحنق لؤم وتحقيق الظنة إثم وإعنات البريء ظلم..) وطالبه السماع له والتسامح عنه ، حتىٰ لو إرتكب خطأ ، وذكره بأبيات قالها له مرة ، وهي تصب في معنىٰ مسامحة الأخ إذا غلط وفيها الكثيرة من العبرة والموعظة علىٰ عادة المؤلف حين يهدف من وراء قصته أو قصائد ابطاله .

الحكم والموعظة الحسنة ، فإعترف الشيخ بذلك ، بعد أن حرك لسانه وحملق مثل الصقر ، وأقسم بالذي زين السماء بالشهب وانزال الماء من السحب ، بإنه مامنعه من الاصْطلاح مع الفتىٰ الا مخافة الفضيحة ، وهي انه لايملك مالاً يديم به زاده وزاد الفتىٰ ، ولالباساً أو اثاثاً .. فالوقت عبوس ، والعيش بؤس..، وراح يشكو للوالي حاله وعرية وجوعه وفقره وبيته المهدم قال الراوي ، فرق الوالي لحالهما وأمرلهما بالمعونة والمال ، وأمر بصرف النظارة ..

وكان الحارث يتمنىٰ معرفة الشيخ وسره حين اطلع علىٰ بلاغته وفصاحته وطريقة تكسبه ، إذ شك بانه ليس سوىٰ صاحبه السروجي ، وكان الزحام قد باعد بينهما ، فلما ذهب الناس دنا منهما الحارث وتأملهما فاذا بالشيخ ابي زيد ، والفتىٰ إبنه .. فعرف ، حينئذٍ مغزىٰ لعبته وحيلته ، وكاد ينقض عليه ، والسلام عليه ، لكن السروجي طلب منه ان لايفعل ذلك ، بنظرة ذات معنىً من عينه ، وإشارة من كفه ، فتوقف الحارث .. لكن الوالي لاحظ ذلك فسأل الشيخ عن مطلبه ، وعن سبب بقائه ، فقال له الشيخ انه أنيسه وصاحب ملبوسه مشيراً الى الحارث، (اي انه صديقه وصاحب فضل عليه)، واذ ذاك ، أذن الوالي للحارث بالجلوس ثم اعطىٰ الشيخ وفتاه ردائين جديدين ، (كسوتين) ، وامضىٰ لهما بالذهب وطلب منهما أن يتعاشرا بالمعروف ، فنهضا من مجلسه وهما يشكران له كرمه ومعروفه ، فتتبعهما الحارث ليعرف مستقرهما ويتزود من مناجاتهما ، فلما خرجوا من مقر الوالي الى مكانٍ خالي ،

فاذا بأحد رجال الوالي يطلب من الحارث العودة ، فقال الحارث للسروجي ان الوالي لم يفعل ذلك الا ليعرف منه سره ، فماذا يقول ، فقال له ابو زيد : بين له غباوة قلبه ، وتلعابي بلُبه ، ليعلم ان ريحه لاقت اعصاراً ، وجدوله صادف تياراً ، فحذره الحارث مخافة غضب الوالي فيشمل السروجي بغضبـه وبطشه ، لكن الشيـخ لم يعر هـذا التحذير اهتماماً ، وذهب بعيدا .. في حين عاد الحارث الى الوالي ، وكان مجلسه قد خلا من الناس ، وتعبه قد إنجلا ، فراح الحارث يصف أبا زيد وفضله ويذم الدهر الذي أتعبه وأفقره ، فسأل الوالي الحارث: الم تكن أنت من اعاره الدست (والدست هو اللباس ، وتأتي ايضا: صدور المجلس.. أو دست القمار بمعنىٰ الربح) فنفى الوالي واحمرت وجنتاه وقال: والله مااعجزني قط فضح مريب ، ولاتكشيف معيب ، ولكن ماسمعت بأن شيخاً دلس بعدما طلس ، وتقلس فبهذا تم له ان لبس ،.. أفتدري أين سكع ذلك اللكع؟ فاخبره الحارث بانه (اي السروجي) غادر بغداد ، فـوراً،.. فهدد الوالي وقال: لولا ادبه لأوغلت في طلبه، وأني لأكره أن تشيع فعلته في بغداد وتقلل هيبتي بين الناس ، فعاهده الحارث بذلك ووفىٰ وعده .

المعاني التي احتوتها الابيات:

١) ـ من الحوة: وهي حمرة تضرب الى السواد ، وقيل سمرة الشفة، ورجل احوىٰ وامرأة حواء .

٢) ـ حوىٰ رقي: حاز ملكي واسترقني (استعبدني) .

٣) ـ اي بلطافة مبسمه وفي نسخة: خصره ، وفي اخرىٰ: لفظه

٤) ـ تركني:

٥) ـ اي صاحب السهر

٦) ـ اي بعدم وفائه

٧) ـ تعرض

٨) ـ اي بالاعراض عني

٩) ـ اسره مصدر اسر العدو اذا شده بالاساراي قيده وحبسه

١٠) ـ باسره: جميعه

١١) ـ الزور: الكذب، الباطل

١٢) ـ انحرافه وميله عني

١٣) ـ **الهجر** (بالضم) الفحش من الكلام ، و(بالفتح) بمعنى الصد والقطع .
١٤) ـ اي استطيب العذاب فيه
١٥) ـ احد : جدد
١٦) ـ جَدَّ : زاد
١٧) ـ إحسانه

المقامة الرابعة والعشرون
القطيعية (النحوية)

«حكىٰ الحارث بن همام قال عاشرت بقطيعة الربيع ، في إبان الربَّيع ، فتيةً وجوههم أَبلجَ من انواره ، وأخلاقهم أبهج من أزهاره ، وألفاظهم أرقّ من نسيم اسحـاره ، فاجتليت منهم مايُزري علىٰ الربيع الزاهر ، ويغني عن رنات المزاهر..»

حكىٰ الحارث بن همام بأنه عاشر في محلة الربيع ، وهي محلة معروفـة ببغداد آنذاك ، وإبان فصل الربيع ، فتية حسني الخلق والخلق ، ألفاظهم أرق من نسيم الأسحار ، فوجد فيهم الأنس بما يعوض عن الموسيقىٰ والطرب ، وكانوا قد أتفقوا علىٰ الود ، والا يستبد أحد برأيه ولايتفرد بلذة ولايفضل نفسه علىٰ صحبه ،..

وفي يوم مشرق ، تجمعوا كي يتنزهوا في البساتين والمراعي الخضر ، وكانوا أحد عشر صديقاً هم في الوفاق والود مثل ندامىٰ جذيمة (وجذيمة الأبرش هو ملك الحيرة ، ونديماه هما مالك وعقيل ، وقصتهما ان جذيمة إلتزم عمر بن عدي ابن إخته وأحله محل ولده فأستهوته الجن ، اي ذهبت به ، فطلبه في الآفاق فلم يجده ، ولاوقع له علىٰ خبر ..ثم ان مالكاً وعقيلاً نزلا منزلاً وهما متوجهان الىٰ جذيمة ، فسر به سروراً عظيماً وقال لهما تمنيا ، فسألاه أن يكونا نديميه ماعاش ، وعاشا ، فنادماه أربعين سنة ماأعادا عليه حديثاً ، فضرب بهما المثل في الود والوفاق) .

وهكذا ذهب الحارث وصحبه وهم علىٰ الود والوفاق ، الىٰ حديقة تكاملت في جمالها وحسنها ، وتنوعت أزاهيرها وتلونت ، ومعهم الشراب والسقاة والشادي الذي يطرب السامع ويلهيه ، ويضيف لكل سمع مايشتهيه.. فلما استقـر بهم الجلوس ودارت

عليهم الكؤوس ، دخل عليهم رجل شجاع عليه ملابس بالية ، فتجهموا ، وإستقبلوه بوجوه عابسة ، فظنوا ان صفويومهم وانسهم وفرحهم قد تعكر .

الا ان الرجل سلم عليهم تسليم أولي الفهم، وجلس يفتح لهم أجمل واعطر ما في الكلام نثراً وشعراً ، وهم بعد منقبضون من إنبساطه، ويتمنون لو غادرهم لازعاجه ، حتىٰ غنىٰ مطربهم:

الى مَ سعادُ لاتصلين حَبْلي
ولاتأوين لي مما الامَي
صبرت عليك حتىٰ عيل صبري
وكادت تبلغ الروح التراقي
وها أنا قد عزمت علىٰ إنتصافٍ
أساقي فيه خلي مايساقي
فإنْ وصلاً ألذ به فوصل
وإن صرماً فصرم كالطلاق

فسأل الرجل لم نصب العازف المطرب (العابث بالمثاني كناية بأوتار العود): لِمَ نصبَ الوصلَ الأول ورفع الثاني؟

فأقسم المطرب بتربة أبويه إنه نطق بما اختاره «سيبويه» ، فتشعبت حينئذ آراء الجمع في تجويز النصب والرفع ، فقالت فرقة رفعهما هو الصواب وقالت طائفة لايجوز فيهما الا الإنتصاب ، واستبهم علىٰ آخرين الجواب واستعر بينهم الاصطخاب .

فلما دب الجدل والاختلاف بين الجماعة ، كان ذلك الواغل الداخل بينهم بلا دعوة ، يبتسم ابتسامة العارف الواثق ، ولم ينطق بكلمة ، حتىٰ اذا سكنت الاصوات المزمجرة ، وصمت الزاجر والمجور، قال ياقوم أنا أنبئكم بتأويله (بتفسيره) وأميز صحيح القول من عليله :ـ انه ليجوز رفع الوصلين ونصبهما، والمغايرة في الاعراب بينهما، وذلك بحسب إختلاف الاضمار، وتقدير المحذوف في هذا الاضمار، فأثار برأيه جدلاً بين الجماعة، ورغبة في معارضته ومباراته.. فأجابهم بقطعة ادبية جميلة ضمنها إثنتي عشرة مسألة من القواعد الاعرابية، والاحاجي والالغاز اللغوية. وفق عدد الجماعة فصعقهم بها، إذ حيرت افكارهم وعقولهم. فلما عجزوا عن حلها، عجزوا ايضاً بالعوم في بحره، فأستسلموا لسحره.. فتراجعوا عما كانوا يشعرون به ازاءه من ضجر

وإنزعاج، بل طلبوا منه الرواية والحل، فتبدلوا من التبرم والضجر منه الى الرغبة في التعلم منه. فلما طلبوا منه ذلك، اصر الا يجيبهم على المسائل الا بعد ان يمدوا له العطاء دون منة، فلم يبق في الجماعة احد لم يخضع لحكمه، فاخرجوا مالديهم من مال، ولما تجمعت لديه العطايا والهدايا وتحقق له مايريد،. اوقد شعلة ذكائه وكشف، حينئذٍ، عن اسرار الغازه، وبدائع اعجازه، ولما عرف القوم مقدار علمه اعتذروا له عما بدر منهم، وطلبوا اليه ان يجالسهم في المسامرة والشرب والطعام. لكنه شمخ بانفه صلفاً وكبرياءً، وراح يُنشد ابياتاً في تعاطي الخمرة، ثم راح يدين سلوكهم. في عدم الاحتفاء بالضيف. وغادرهم مسرعاً.

قال الحارث فعلمت انه كان سراج السروج. وبدر الادب الذي يجتاب البروج ابو زيدَ السروجي.

المقامة الخامسة والعشرون
الكرجية

«حكى الحارث بن همام قال شتوت بالكراج لدين اقتضيه، وارب اقضيه، فبلوث من شتائها، الكالح، وحرها النافح، ماعرفني جهد البلاء، وعكف بي على الاصطلاء.»

اقام الحارث بن همام، في مدينة (الكرج) (وهي مدينة معروفة بشدة بردها تقع بين اصبهان وهمذان) نزلها العجليون) ؛وهي منازل عيسى بعد ادريس بن معقل العجلي) فبنوا فيها الحصون والقصور ايام الرشيد. وبدعم منه، حتى صارت دار اجناد، ومحل وفود وقصاد..

وكان الحارث قد توجه الى هذه المدينة ليجمع ديوناً له، فقاسى من شتائها الشديد، وبردها النافح، ورياحها القوية، فعانى من ذلك حتى لجأ الى مواقد النار ليتدفأ فلا يفارق موضع اتقادها الا للصلاة في مواعيدها. او لضرورة او حاجة ملحة.

واضطر، يوماً بارداً كثيف الغيوم، الى الخروج من البيت لغرض يهمه، فإذا بشيخ ظاهر البشرة قد اعتم بملاءة بيضاء واتزار بفوطةٍ وثنى طرفها فاخرجه من بين فخذيه..

وكان خلف هذا الشيخ جماعة ملتئمون متراصف بعضهم جنب بعض. وهو ينشد، لايبالي بأحد، ابياتاً من الشعر تجمع بين الحكمة والموعظة، وفيها يشكو حاله وفقره وتقلب الزمان عليه، وفيها يقول:

ياقوم لاينبئكم عن فقري
اصدق من عربي أوان القُرّ
فاعتبروا بما بدا من ضري
باطن حالي وخفي امري
وحاذروا انقلاب سلم الدهر
فانني كنت بنيه القدر

حتى يشير الى تقلب الزمان، ورزايا الدهر. عليه، حتى خلت داره ودرست فنفض نتاجه، وكسد شعره، ونثره بين الناس، اذ لم يعد يتكسب من الادب والبلاغة وفنون القول، فاضناه ذلك وعاش فقيراً جائعاً، حتى بات ضعيفاً، نحيفاً كالمغزل.. وهو لا يملك الدفء في بيته ليدفع عنه البرد. خاصة غي ايامه الشديدة (العين والصنبرّ) وهما من أيام برد العجوز تاتي في عز الجمر (او مكفيء الظعن) وانما سميت ايام العجوز لأن عجوزاً من العرب كانت تؤخر جزّ غنمها الى مضي هذه الايام من نوء الصرفة، وكان قومها يخالفونها فيجزون غنمهم قبلها وهي تنهاهم عن ذلك بقولها: إني جربت هذه الايام ورأيتها قتلت اغنام قومي مرة بعد مرة، فلا يطيعونها، فجاء في بعض الاعوام برد شديد في ايام العجوز هذه فهلك غنمهم وكانت مجزوزة، فنسبت الايام اليها..

وانما ياتي ذكر هذه الايام الباردة على لسان الشيخ لانه في مدينة معروفة ببردها اللافح، الشديد لذا اراد ان يقرب الصورة الى الحشد الذي احاطبه كي يكسب عطفهم من خلال بلاغته وشعره فهو في النهاية يقول:

فهل خِضَمٌّ ذو رداء غَمْر، يسترني بمطرفٍ، طِلاب وجه الله لا لشكري (ذو رداء غمر: اي كثير العطاء، ويقال فلان غمر الرداء، ومطرف او : الثوب الخلق، وهو من خز،..)

ثم اردف على شعره خطاباً نثرياً، داعياً ارباب الثراء الرافلين في الفراء، ومن اوتي خيراً، فلينفق، ومن استطاع ان يرفق فليرفق،فان الدنيا غدوروالدهر عثور، والمكنة زورة طيف (كزيارة خيال في المنام) والفرصة مزنة صيف، وراح يتحدث عن كونه تلقى الشتاء بما استطاع، واستعد له قبل مجيئه، لكنه اليوم لايملك شيئاً، فساعده هو وسادته، وجلده هو رداؤه، وكفه الفارغةهي اناء طعامه! ودعا الناس ليتعظوا، بحاله، والعاقل منهم والسعيد من اتعظ بسواه، واستعد لمسراه..

فاعجب حشد الناس بكلامه ومواعظه، فطلبوا منه أن يخبرهم عن نسبه، فاجابهم: تباً لمفتخر بعظمٍ نخر، وانما الفخرُ بالتقى والادب المنتقى، ثم انشد ابياتاً بهذا المعنى منها قوله:

لعمرك ماالانسان الا ابن يومه
على ماتجلى يومه لاابن امسه
وما الفخر بالعظم الرميم وانما
فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

ثم انه جلس منحنياً معوجاً، وقد انقبض بعضه الى بعض، ملتماً على نفسه، مرتعداً من البرد، وهو يدعو: اللهم يامن غمر بنواله (أي غَطىٰ بعطائه)، وامر بسؤاله، صل على محمد واله، واعني على البرد واهواله، واتح لي حراً يؤثر من خصائصه (اي كريماً يختار غيره بطعامه ويفضله على نفسه مع حاجته اليه، ويؤاسي ولو بقصاصة (القليل من الطعام).

قال الراوي فلما افصح هذا الشيخ عن نفسه الكريمة، وملحه وكلامه الجميل، وراح الحارث يفحصه وينظر اليه بدقة، حتى استبان منه انه ابوزيد، وإن تعريه حيلة جديدة من حيله، وادرك الشيخ ان الحارث تعرف عليه فخاف ان يفضحخه فقال:

ـ اقسم بالسَّمرَ والقمر (وفي المثل: لااتيك السمر والقمر، اي سواد الليل وبياضه بطلوع القمر، ويجوز ان يقال الليل والنهار)، واضاف:

والزهر والزهر اي النجوم والازهار، انه لن يسترني الا من طاب خيمه (اي لن يغطيني الا من زكا.. طبعه وكرمه)، واشرب ماء المروءة اديمة (اي سقى الفعل الجميل).. فأدرك الحارث مااراد منه الشيخ وماعناه وان لم يدر القوم معناه، وساءه مايعانيه من الرعدة واقشعرار جلده، فقام واخذ فروته التي كانت له لباسه الحسن نهاراً، وفي الليل غطاء، فخلعها عنه، وقال له: (اقبلها مني..) ، فما كذب الشيخ ان لبسها، وعين الحارث تراها، وانشد :

لله مَن البسني فروة
اضحت من الرعدة لي جُنَّةٌ (اي ستراً)
البسنيها واقياً مهجتي
وقي شر الانس والجِنَةٌ (بالكسر اي: الجن)

سيكتسي اليوم ثنائي وفي

غد، سيكسى سندس الجَنَةْ

(بالفتح: دار النعيم؛ الجنة ضد الجحيم)

وهكذا استطاع ابوزيد بسحر كلامه وعذوبة شعره، أن يفتن قلب الجماعة، فالقوا عليه من الفراء والثياب المبطنة والموشاة، ما اثقله وغلبه حمله، فانطلق فرحاً مسروراً فتبعه الحارث، كعادته، حيث المكان الذي لاخوف فيه عليه، ولاحاجة فيه للاحتزاز او الحذر، وقد بدت السماء نقية لاغيم فيها، (وهو مثل يضرب لخلو الموضع من الناس وكونه فيه وحده فقال الحارث لابي زيد: لشد ماقرسك البرد (اي آذاك) فلا تتعر من بعد... فقال ابوزيد: ويك، ليس من العدل سرعة العذل، فلا تُعَجِل بلوم هو ظلم ولاتقف ماليس لك به علم، فو الذي نور الشيبة وطيب تربة طيبة لولم اتعر لرحت بالخيبة وصفر العيبة.

وهكذا بعد ان اعتبر ابوزيد انه ليس من العدل العتاب واللوم، حالفاً بتراب المدينة على الحارث، معاتباً إياه بأن من طبيعة ابي زيد الانتقال من صيد الى صيد والانعطاف من عمر الى زيد.. وراح يعنف الحارث لكونه منعه وعصيه وفوت عليه اضعاف ماافاده به، وطلب منه ان يتركه لحاله، ويعفيه من لغوه، ويسد دونه باب جده وهزله.. فغضب الحارث وصاح عليه صيحة مازحة انه لولاه ولولا ان منحه فروته وغطابها عيبه لما وصل الى كل هذه العطايا والهبات من الملابس والاغطية، وطلب الحارث منه ان يجازيه على احسانه ويعيد اليه فروته، او يعرفه (كافات الشتوة) وقد وردت في الشعر الذي القاه السروجي على القوم.. فنظر الشيخ الى الحارث نظر المتعجب ، فاخبره بان رد الفروة ابعد من رد الماضي، وهو مستحيل...كما احياء الميت الغابر، واما (كافات) الشتوة، فقد لامه الشيخ لان الحارث نسيها اذ سبق له ان انشدها عليه في بيت الخمار (الدسكرة) وهما بيتان تؤامان من الشعر لابن سكره (ابي الحسن محمود بن عبد الله بن محمد الهاشمي احد الظرفاء من شعراء الدولة العباسية ،كان طويل الباع في الشعر وديوان شعره يربى على خمسين الف بيت وكان يقال ببغداد: ان زمناً جاد بمثل ابن سكره وابن الحجاج لسخي جداً والبيتان هما:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه

سبع اذا القطر عن حاجاتنا حبسا

كِنٌ وَلِيسُ وكانون وكاسُ طلا

بعد الكباب و (كفٌّ) ناعمٌ وكسا

اي كن: بيت، وكيس للدراهم، والكانون: الموقد حيث النار فيه للطبخ والتدفئة، وكاس طلا: المراد ان عنده الخمرة وكأسها، والكباب هو اللحم المشوي، والكف الناعم: كناية للمرأة، والكسا هو الثوب، بمعنى ان كل الكلمات هذه تبدأ بحرف الكاف، وهي مايحتاجه المرء في الشتاء: البيت والنقود والدفء والشراب والكباب والمرأة والملابس..

ثم قال ابو زيد للحارث: لجواب يشفي خير من جلبات يدحى (اي يبلى)

فقال الحارث: فأكتفيت بما وعيت...،

وهكذا خسر الحارث فروته، لسوء حظه، لكنه ربح المعرفة، وان انتابته الرعدة طيلة تلك الايام الباردة،..

المقامة السادسة والعشرون

الرقطاء

«حدث الحارث بن همام قال حللت سوقي الاهواز، لابساً حلة الاعواز، فلبثت فيها مدة، اكابد شدة، وازجي اياماً مسودة، الى ان رأيت تمادي المقام، من عوادي الانتقام، فرمقتها بعيني القلي، وفارقتها مفارقة الطلل البالي..»

نزل الحارث بن همام الى سوقي مدينة الاحواز (وهي مدينة عربية تقع بين البصرة وبلاد فارس ينسب اليها السكر وقصبه، مخصوصة بالحمى حتى قالوا حمى الاحواز، وانما قيل سوقي الاهواز لان في خلالها نهراً على شطيه السوقان) وكان الحارث معوزاً، وقد مرت به ازمة كابد منها، فمضى اياماً مشؤومة، شداداً، حد وجد ان اقامته في الاحواز لاتجلب له سوى العذاب، فغادرها منزعجاً، مغضباً، بعيداً عن جدبها وقلة خيرها، متجهاً الى الخصب والخير العميم والمياه الوفيرة،.. وامضى في ترحاله مدة ليلتين، اذ لاحظ خيمة منصوبة وناراً موقودة، فحدث نفسه ان يصلهما لعله يروي عطشه، ويجد من يرشده، فلما اقترب من الخيمة رأى غلماناً حساناً، وشيخاً عليه ثياب مترفة، وامامه فاكهة زاهية.. فحياة الحارث وتباعد عنه.. فضحك الشيخ اليه واحسن الرد عليه، ودعاه للجلوس، حيث تعجب فاكهته، وتتشوق الى ممازحته، فجلس الحارث للافادة من منادمته، لا لاتبلاع فاكهته وطعامه.. وحين كشف الشيخ عن أدابه وضحك، عرفه الحارث بأنه السروجي بحسن طرفه والفاظه وقبح صفرة اسنانة، وهكذا احاطت بالحارث فرحتان، ولم يدر بأيهما هو اكثر فرحاً واسبغ مرحاً،

ابظهور ابي زيد، في هذه الليلة المظلمة، بعد غيبة، ام بسعة حاله ورفاهه بعد فقره وعوزه.. فاشتاقت نفس الحارث الى معرفة السر في ذلك، ليعرف سبب غناه ويسره، وما الذي اوصله الى هذا، فسأله من اين عودته ورجوعه والى اين ذهابه، وكيف امتلات اوعية متاعه، ويسره وغناه، فأجابه ابو زيد بأنه جاء من (طوس) وهو متوجه الى (السوس) (وهي مدينة بناها سام بن نوح عليه السلام) اما الرفاه والغنى اللذان اصابهما فمن رسالة انشأها وإرتجلها.. فسأله الحارث ان يوضح حقيقته ويسرد عليه رسالته، فرفض ابو زيد، موضحاً له صعوبة مطلبه، او تلبية شرطه بقوله: (دون مرامك حرب البسوس، او تصحبني الى مدينة السوس) فاضطر الحارث على الموافقة، فأنضم معه، واقام، لكن السروجي ظل يعلله ويعده حتى نفذ صبر الحارث، فضاق به واخبره رغبته بالارتحال دونه، بخفي حنين، وبدون فائدة، لكن ابا زيد طمأنه بأنه لن يخلف وعده او يخالفه، وانما اراد تأجيل الحديث ليضمن بقاءه معه، فاذا كان الحارث يستريب ويشك به، فإن الاستماع الى قصص سيرة ابي زيد الممتدة، واضافتها الى اخبار «الفرج بعد الشدة: اسم كتاب مشهور يحتوي على لطائف الاخبار، لابن الجوزي او للقاضي التنوخي، وللمدائني ايضا، كتاب بهذا الاسم)

فطلب منه الحارث ان يقول ماعنده، فراح ابو زيد يروي قصته حين كان في مدينة (طوس) فقيراً معدماً، وكيف استدان ممن هو عسر الاخلاق، متوهماً ان النقود ستحل المشكلة، فراح ينفق ماعنده، حتى انتبه الى نفاد النقود، اذ ذاك طالبه الدائن التسديد له، فحار في امره، واطلع غريمه على عسره فلم يصدق فقره وعوزه، ولاكف عن مطالبته، بل حاول ان يشتكيه عند القاضي، بالرغم من محاولات السروجي الطلب منه الترفق، والتساهل معه، لكن الغريم رفض ذلك، مؤكداً عليه بأنه لايرى الخلاص الا بتسديد ما عليه من دين.. ولما عجز ابو زيد عن اقناعه، شاغله ليترافع معه عند الحاكم في المظالم المعروف بكلامه، لاعند القاضي المعروف ببخله..

واحضر ابو زيد حبراً وورقاً، وانشأ رسالة رقطاء: السواد يشوبه نقط بيض لان احد حروفها منقوط والاخر غير منقوط في كلمات الرسالة كلها.

وهي فن من فنون السروجي في البلاغة والكلام الجميل والموعظة، والرسالة مديح للحاكم الكريم ولحسن اخلاقه، وجاء فيها:

«اخلاق سيدنا تحب، وبعقوته يلب، وحربه تحفُّ ونأيه تلفٌ وخلته نسبٌ، وقطيعته نصبٌ..»

ويضمن الرسالة ابياتاً من الشعر، بنفس الطريقة، في صياغة الكلمات والمديح، وقد ضمنها شكواه من زمنه، وقدرته على النثر والنظم، لكن الزمان جار عليه فأضطر الى الاستدانة من شدة حاجته وفقره، من هذا الغريم الغاشم الذي يلح عليه بحق واجب وخاطب الحاكم، مادحاً كرمه لتعزيز مجده كي يفك وثاقه من الدين..

قال فلما سمع الامير رسالة السروجي فأستأنس جمال لغته وتعبيره، او عز بقضاء حاجته وتسديد دينه وفصل بينه وبين خصمه، ثم استخلصه بفضيلته فبقي معه بضع سنين ينعم بضيافته ويرتع من كرمه، حتى اذا غمره بفيض ماله ورعايته استأذنه بالترحال على ماهو عليه من حسن الحال، فقال السروجي: ايما احب اليك، ان احذيك من العطاء ام اتحفك بالرسالة الرقطاء، فأجابه الحارث بأن املاء الرسالة احب اليه، فقال وهو وحقك اخف عليَّ.. فإن ما يفج في الآذان اهون من نخلة مايخرج من الادان، كفاية على ان الكلام الجميل الذي يدخل الاذن، اسهل من المال الذي يخرج من الجيب، ثم ان ابا زيد وكأنه خجل من كلام صديقه الحارث، فجمع له بين الرسالة والعطية، ففاز منه بسهمين، وانفصل عنه بغنيمتين، فعاد الى العراق، وطنه، قرير العين بما حازه من الرسالة والعين (الذهب والفضة).

المقامة السابعة والعشرون
الوبرية

«حكى الحارث بن همام قال مِلتُ في رَيّق زماني الذي غَبَرَ، الى مجاورة اهل الوَبَر، لاخذ إخْذَ نفوسِهِم الابية، والسنتهم العربية، فشمـرّتُ تشميرَ من لايـألو جهـداً، وجعلت اضرب في الارض غوراً ونجداً..»

مضى الحارث بن همام، فيما تقدم من زمن، الى مجاورة البدو (الذين مالهم هو الابل وكنى بالوبر عنها) ليتخلق بأخلاقهم وطباعهم ونفوسهم الأبيةُ العزيزة، وليتعلم من السنتهم العربية وفصاحتهم، فسعى في الارض يقطع المرتفعات والمنخفضات وقد اقتنى اربعين من الابل وقطيعاً من الغنم، فأنضم الى عرب اشراف، وهم كالـوزراء والملوك، لمكانتهم ورفعتهم، وهم ابناء اقوال (اي فصحاء)، فأنزلوه مكـانة رفيعـة، بينهم، وابعدوا عنه كل اذى، فما اصابه عندهم اي همٍ ولافقد شيئـاً ولا اصابتـه نقيصة او عيب..

وفي ليلة منيرة البدر، ذهبت منه ناقة حلوب، فلم يرتح في البحث عنها، اذ ركب فرسه السريع العدو، وتسلح برمحه الطويل، وسرى ليلتها كلها يجوب الصحراء ويتتبع اثار الاشجار، والواحـات، والاماكن القـاصلة، حتى انتشر نـور الصباح، واذن المؤذن للصلاة، فنزل عن فرسه لاداء الفريضة، وبعد ذلك عاود بحثه لايرى اثراً الا تبعه، ولا مكانا مرتفعاً الا علاه باحثا، ولا وادياً الا قطعه عرضاً، ولا راكباً الا سألة واستفسر منه،.. لكن جهوده كلها ذهبت بغير طائل.. فلم يعثر على ضالته حتى حان وقت الظهير

وكان الحر يعمي البصر، وكما يقول فإن حر الشمس تذهل (غيلان) عن (مي) (وغيلان هو اسم الشاعر ذي الرمة، ومي هي بنت قيس عشيقته ويقال لها (مية)، ايضاً. فكان يوماً طويلاً واحر على الحارث (اطول من ظل القناة واحر من دمع المقلات) (وهي المرأة التي لايعيش لها ولد، فدمعها يكون ساخناً فضرب به المثل في الحرارة).. فأيقن الحارث انه ان لم يلجأ الى مكان يتقي به شدة الحر ويأخذ قسطاً من الراحة بالنوم. فإن التعب والاعياء سيمر ضانه.. وستلحقه المنية فمال الى شجرة عنب تسمى (آلاء) (كثيفة الاغصان، كثيرة الاوراق) لينام تحت ظلها حتى الغروب. فما كاد يأخذ قسطاً بسيطاً من الراحة، ولا استراح فرسه بما يكفي، حتى نظر الى رجل يعدو راكضاً، في هيئة مرتحل ليأخذ نفس مكانه، وينعطف نحو بقعته، فكره الحارث ذلك واستعاذ بالله من شر مفاجيء طاريء، ثم ترجى ان يستدل ويعرف منه شيئاً. على ناقته الضائعة، او يرشده اليها، فلما اقترب منه، وجده يحمل جرابه جاعلاً اياه كالوشاح، وحاضناً حاجات سفره وترحاله، فآنس الحارث لوروده وانساه، للحظة، ناقته الضالة، وطلب منه ايضاح سبب سفره، واتجاه طريقه، وما هو حاله وسره، فأنشد ارتجالاً عدة ابيات يصف فيها نفسه وحالة وسفره وترحاله واعظاً ناصحاً، يضمن اشعاره الحكم والاقوال المعروفة ، وجميل الخصال، تقوله:

«فالمنايا ولا الدنايا وخير
من ركوب الختا ركوب الجنازة»

مؤكدا عدم الإستجارة بواسطة لبذل ، فأن أي مطلب إذا إرتدى حلة العار فبعداً على من يروم المكسب، فإن الموت خير من الذل.. ثم نظر الى الحارث وتساءل عن خبره، فأعلمه بضياع ناقته، وما عاناه في يومه وامسه في البحث عنها، فقال له الشيخ:
«دع الالتفات الى مافات»، وراح ينصحه بأن لايهتم بما راح وخسر. حتى لو كان شقيق الروح (الاخ)، او (الابن) او (القريب)، ثم سأل الشيخ هل لك في ان تقيل، وتتحامى القال والقليل.. (اي هل تستطيع ان تحتمل النوم وسط النار..)
ولما ايده بذلك، إفترش التراب وتمدده، اضطجع، متظاهراً بالنوم والهدوء، فعاهد الحارث نفسه على حراسته، دون نعاس ولكن من شدة تعبه، اخذته غفوة، فلم يفق الا وبالليل قد دخل، والنجم قد اضاء، ولم يكن السروجي موجوداً ولافرس الحارث، فبات الحارث ليلته تلك يقظاً مهموماً، متوحداً حزيناً، يساهر النجوم، وبفكر تارة في كونه

اصبح راجلاً، واخرى في رجعته، حتى اذا بان النهار جلياً ظهر راكب يسرع في الصحراء، فأشار الحارث له بثوبه وتمل ان يعرج صوبه، ويحمله خلفه فلم يهتم له، ويعبأ بل سار بهدوء، فتعبه الحارث ليوقفه، فلما وصل اليه بعد جهد وتأمله وجد ان الناقة ناقته الضائعة، وضالته المنشودة، فراح يجذب زمامها، وهو يقول بانه صاحبها وله لبنها وولدها.. وبينما هما يتجاذبان ويتجالان، وسارق الناقة يصيح ويتواقح ولا يستحي. وبينما الحارث يشتد ويثب مره، ويلين ويستكين، مرة... اذا بأبي زيد السروجي لابساً جلد نمر، قد هجم عليهما هجوم السيل المنهمر، فخاف الحارث ان يكون يومه كأمسه، فذكره بالعهود المنسية، وناشده الله بأن تكون عودته لتدارك ماحصل منه، فقال له ابو زيد: معاذ الله ان اجهز على جريحي، بل اتيتك لاكون عونك، فسكن عند ذلك خوف وقلق الحارث، وفجأة اصبح السروجي صلب الوجه، ونظر الى السارق بقوة ثم سدد اليه الرمح وهدده بأن يقتله ان لم يترك الناقة.. فترك السارق زمام الناقة، فطلب ابو زيد من الحارث ان يتسلمها ويركبها، فانها احد الحسنيين (الغنيمة والشهادة)، وويل اهون من ويلين.

فكان الحارث محتاراً بين لوم ابي زيد وشكره ، وزنة نفعه بضره ، فكان ابو زيد ادرك مايجول بخاطر الحارث ، فقابله بوجه طليق، وانشد بلسان زليق .

يا أخي الحامل ضيمي
دون اخواني وقومي
ان يكن ساءك امسي
فلقد سرك يومي
فإعتفر داك لهذا
وإطّرح شكري ولدمي

ثم قال: انا تئق (اي مغتاظ) وانت مئق (اي: محزون) ، فكيف نتفق (وهذا مثل يضرب للمتخالفين في الرأي والطباع).. ثم حث السروجي فرسه وسار مسرعاً ، فركب الحارث ناقته، وعاد لوجهته ، حتى وصل مكانه بعد تلك المعاناة .

المقامة الثامنة والعشرون

السمرقندية

«اخبر الحارث بن همام قال استبضعت في بعض اسفاري القند ، وقصدت سمرقند وكنت يومئذٍ قويم الشطاط، جموم النشاط ، ارمي عن قوس المراح، الى غرض الافراح ، واستعين بماء الشباب. على ملامح السراب...»

اشترى الحارث في احدى سفارته القند (وهو قوالب من السكر). بضاعة للمتاجرة واتجه بها الى مدينة سمرقند وكانت تابعة للعراق ، وكان يومئذٍ كثير الحركة والنشاط يستعين بقوة شبابه ونضارته ، فوصل المدينة صباح يوم جمعة، بعد السفر وجهده ، فذهب ليستأجر بيتاً من دون تردد، وحين حصل عليه، نقل اليه بضاعته، ثم ذهب الى الحمم ليستحم ويرتاح، اخذاً في (غسل الجمعة) حسب الخبر المأثور (وهو مارواه ابن عمر رض الله عنهما عن النبي عليه السلام، انه قال: من اغتسل يوم الجمعة اخرجه الله من ذنوبه، ثم قيل له استأنف العمل)، ثم بادر خاشعاً نظيفاً ليذهب الى مسجد المدينة الجامع ليصلي الجماعة خلف الامام، وينال فضل الثواب، فنال ماراد.. وتخير مركزه للاستماع الى الخطبة، ولم يزل الناس يدخلون في دين الله افواجاً، ويردون فرادى وازواجاً حتى اذا اكتظ الجامع بهم، وانتصف النهار، برز الخطيب في اهبته متهادياً خلف جماعة من الناس، فصعد المنبر حتى ذروته، فسلم مشيراً باليمين، ثم جلس حتى اكتمل جمع الناس، ثم قام وحمد الله وشكره، وراح يلقي خطبته ومواعظه داعياً الى العمل الصالح، وكدح الاصحاء، وردع النزوات والاهواء، كما دعا الى التقوى وعمل الخير، وذكرهم بتغير الاحوال واغراء المال والال، وزوال الملوك

والسلطات.. وقد تميزت خطبته بالبلاغة وبالبديع، اذ ان كلمات الخطبة كلها غير منقوطة، ومنها:

«رعاكم الله، الى مداومة اللهو، ومواصلة السهو، وطول الاصرار وحمل الاصار، واطراح كلام الحكماء، ومعاصاه اله السماء..

اما الهرم حصادكم. والمدر مهادكم، اما الحمام مدرككم..»..

فلما رأى الحارث بن همام الخطبة نخبة بلا سقط، وعروساً بلا نقط دعاه الاعجاب بنمطها البديع، الى استجلاء وجه الخطيب، فراح يتفحصه وينظر اليه بعمق تبين له بصدق العلاقات اته شيخنا صاحب المقامات ابو زيد السروجي، ولم يكن بد من الصمت في ذلك الوقت، حتى انتهى من فرض الصلاة والانتشار في الارض، فوقف قبالته مسرعاً بلقائه فلما لمحه السروجي حاول القيام بسرعة، مبالغاً في الاكرام والحفاوة، ثم اخذه معه الى داره وقص عليه خصوصيات اسراره.. وحين عم الظلام، وحان وقت المنام، احضر اباريق المدام وهي مغطاة بسداد، فسأله الحارث اتشربها قبل النوم، وانت إمام القوم فقال له: انا بالنهار خطيب وبالليل اطيب، فجادله الحارث في هذا التناقض بالسلوك، فأشاح السروجي وجهه عنه، وراح ينشد بعض الابيات مليئة بالوعظ كعادته، مشيراً فيها الى ضرورة عدم البكاء والندم على مافات، وان يدور الانسان مع الزمن كيفادار، ويتخذ الناس كلهم داراً يسكن اليه، كالارض.. وان يصبر على خلق وعادات من تعاشر.. وان لايضع فرصة السرور، فما يدري المرء ايعيش يومه ام لا.. وقال له: اعلم ان الموت جائله، وقد ادارت على الورى دارا..

وهو في هذه الابيات ينهي القافية بكلمة (دارا) بمعانيها العديد:

الدار (البيت. والدوران، والمداراة والتردد والاحاطة، وهالة القمر، وغير ذلك.. تعهدها به مقتدراً على فنون النظم والبديع، والاجادة فيه.. فلما فرغ السروجي من شعره، اداروا الكؤوس وطربت النفوس ولم يسنطع الحارث من التخلص من الاثم على ان يحفظ سر السروجي ولا يفضحه، فاتبع الحارث رغبة السروجي ورعى عهده، وجعله بين الناس بمنزلة الفضيل (الشهير بالزهد والعبادة وكان في ايام الرشيد واجتمع عليه فوعظه حتى ابكاه، فقال بعض وزرائه: بسك يافضيل، فقد ابكيت امير المؤمنين، فقال الفضيل: انما يدخله النار امثالك تزينون له القبيح، وتحسنون له الامر الفظيع)

وهكذا ارخى الحارث ستار الستر والسكوت والكتمان على مخازي الليل، ولم يزل ذلك رأيه ودأب السروجي، حتى حان وقت عودته الى بلده، فودعه والسروجي مصر على الكتمان وموغل في الشرب، سراً..

المقامة التاسعة والعشرون
الواسطية

«حكىٰ الحارث بن همام قال ألجأني حكم دهر قاسط ، الىٰ ان أنتجع أرض واسط ، فقصدتها وأنا لاأعرف بها سكناً ، ولاأملك فيها مسكناً ، ولما حللتها حلول الحوت بالبيداء ، والشعرة البيضاء في اللمة السوداء ، قادني الحظ الناقص ، والجد الناكص ، الىٰ خان ينزله شذاذ الآفاق..»

في ظروف صعبة وزمان جائر التجأ الحارث بن همام الى مدينة واسط (تلك المدينة التي سميت واسط ، باسم قصر بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة) ، ولم يكن الحارث ليعرف في هذه المدينة أحداً ، ولايملك فيها منزلاً ، فحل فيها غريباً، متوحداً ، ساقه حظه العاثر الى النزول في خان ضم الغرباء والأخلاط ، ولظرافة ساكنيه ، ونظافته ، يرغب الغريب في اتخاذه مكاناً ، فينسيه الحنين الىٰ بيته ..فأستأجر غرفة لوحده ، ولم يناقش في الأجرة ..فما كان منه ، بعد ان استقر في غرفته الا ان سمع جاره الملاصق لغرفته يقول للنازل معه : قم يابني لاقَعَدَ جَدُّكَ (اي لاإنخفض سعدك وحظك) ، ولاقام ضِدُّك (اي عدوك ومبغضك) واستصحب ذا الوجه البدري (أي خذ معك الرغيف) واللون الدري ، والأصل النقي (اراد به الحنطة الجيدة) ، والجسم الشقي (اي الذي كتب عليه الشقاء من الطحن والعجن والخبز في النار وسوىٰ ذلك) الذي قبض ونشر (اي الذي أخذ من الأنبار أي المخزن، ونشر في الشمس) وسجن وشهر (أدخل في الرحىٰ واخرج منها) وسقي وفطم (اي بالماء حال العجن ثم منع عنه الماء عند إتمامه) وأدخل النار (اي عند خبره في التنور) بعد مالطم (أي ضرب باليد وقت خبره) ثم إركض

به الى السوق ركض المشوق ، فقايض به اللاقِحَ المُلْقِحَ (أي بادل وعاوض بـه حجر الزناد ، وانما جعل الحجر لاقحاً ملقحاً لان النار المقتبسة بالقدح لاتكون منه وحده ، ولامن الحديدة وحدها ، ولذلك صلح الوصفات لكل منهما) المفسد المصلح (والمفسد لاحراقه والمصلح للانتفاع به) المكمد المفرح (اي المحزن ـ المفرح) المعني المروح (اي المتعب والمبلغ الراحة) ذا الزفير المحرق (يعني مايخرج من النار) واللفظ المقنع (كناية عما يلفظه الزند ويطرحه من الشرر) والنَّيْل الممتع (العطاء المريح) الذي اذا طرق رعد وبرق (من رعدت السماء وبرقت ورعد فلان وبرق اذا وعد والمراد هنا صوت طرق الزند ولمعان شرره) وباح بالحرق (اي أظهر ناره) ونفت في الحرق (اي القىٰ فيها النار) .

أردنا هنا وضع النص ومقاربه التفسيري لغوياً كي نحافظ على لـذة الاستمتاع بواحدة من الوصفيات الجميلة ، لغة وبلاغة ، التي تتميز بها المقامات .

حين سمع الحارث كلام جاره الى إبنه يحرضه علىٰ الذهاب الى السوق ليقايض الخبز بالزناد ، وكيف يصف الخبز ، ثم الزنـاد .. سكت المتكلم ولم يبق الآ خروج الفتىٰ ، فظهر يتمايل تبختراً ، وليس معه أحد .. فرآه الحارث داهية يلعب بالعقول ، ويغري بالفضول ، إنطلق خلف الغلام ليعرف فحوىٰ مادار من كلام ، فلم يزل الفتىٰ يسعىٰ سعى العفاريت ويتفقد نضائد الحوانيت ، حتىٰ إنتهىٰ عند الرواح الى حجارة القداح ، فناول بائعها رغيفاً وتناول منه حجراً لطيفاً .

قال الحارث: «فعجبت من فطانة المرسل والمرسل ، وعلمت انها سروجية ، وان لم أسال..» .

وهكذا اسرع الحارث الى الخان ليحقق فيما فكر فيه وظن ، فلم تخب ظنـونه في التكهن اذ التقىٰ أبا زيد جالساً في باحة الخان ، فحيا أحدهما الآخر بتحية الأصدقاء ، فسأله السروجي: ماالذي نابك (اي أصابك) حتىٰ زايلت جنابك (اي فارقت ناحيتك)

فقال الحارث: دهر هاض، وجور فاض .

فقال السروجي: والذي أنزل المطر من الغمام ، وأخرج الثمر من والأكمام لقد فسد الزمان ، وعم العدوان ، وعدم المعوان ، والله المستعان ، فكيف أفلت (أي انطلقت من مكانك) وعلىٰ أي وصفيك أجفلت (أي سرت بسرعة)..

فقال الحارث: إتخذت الليل قميصاً ، وأدلجت فيه خميصاً (اي سرت من اول الليل واتخذته ستاراً.. ومضيت فيه جائعاً)

فراح السروجي ينكت الأرض وهو يفكر ، ثم إهتز هزة من إصطاد قنصاً وظهرت له

الفرصة ، فطلب من الحارث ان يصاهر من يداوي جراحه ويطيبها ، ويغنيه ويشريه ، فتساءل الحارث: وكيف يجمع بين غِلٍ وقلٍ (والغل واحد الاغلال وهو الحديد الذي يجعل في العنق وكني به ، هنا ، عن المرأة السوء ، والقل قلة المال) ، ومن الذي يقبل في ضُلَّ إبن ضُلٍ (وهو مثل يضرب لمن لايعرف من هو ولا أبوه ، وكذا طامر بن طامر وهيّ بن بي ..)

فطمأنه السروجي بانه الذي سيشير به ، ويذكره ويعرفهم بما يرغبهم فيه ، وسيكون الوكيل له وعليه ، لأن من عادات هؤلاء القوم جبر الكسير وفك الأسير واحترام العشير وإستنصاح المشير ، الا انهم لو خطب اليهم ابراهيم بن ألزُهد (وهو زاهد يضرب به المثل في الوهد) أو جبلة بن الأيهم (وهو آخر ملوك غسان بالشام) لما زوجوه الا على خمس مائة درهم اقتداء بما من الرسول صلى الله عليه وسلم زوجاته وعقد بهن زواج بناته ... على ان الحارث سوف لن يطالب بصداق ، ولايلجأ الى طلاق ، لأن السروجي سيخطب في موقف عقده ، ومجمع حشده خطبة لم تسمع ، ولاخطب بمثلها في جمع .. فارتاح الحارث ، وإستأنس عند سماعه خبر هذه الخطبة التي ستتلا وتقرأ ، وطلب الى السروجي أن ينفذ هذا الأمر ، وان يدبره تدبير (من طب لمن حب) أي صنعة حاذق لمن يحبه (وهو مثل يضرب في التأنق في الحاجة وإحتمال التعب فيها ، وحب لغة ، في أحب) .

فنهض السروجي مسرعاً ثم عاد متهللاً وقال: أبشر باعتاب الدهر وإحتلاب الدر وليت العقد وأكفلت النقد ...، ثم .. أخذ في مواعدة أهل الخان ، وإعداد الحلوىٰ فلما طال الليل ، وأغلق كل ذي باب بابه ، نادىٰ السروجي في الجماعة أن يحضروا في هذه الساعة ، فلم يبق الا من لبىٰ صوته وحضر بيته ، فلما اصطفوا لديه ، واجتمع الشاهد والمشهود عليه ، جعل يرفع الإصطرلاب (وهو كتاب في حساب الفلك والتنجيم) ، ويضعه ويلحظ التقويم ويدعه ، الى أن نعس القوم وغشي النوم ، فقال له الحارث ياهذا ضع الفاس في الراس ، وخلص الناس من النعاس ، اي دعاه ليحسم بالأمر فنظر السروجي ، نظرة الى النجوم ، ثم أبعد من عقله الوجوم ، وأقسم بالطور والكتاب المسطور لينكشفن سر هذا الأمر المستور ، ولينشرن ذكره الى يوم النشور ، ثم انه جثا على ركبتيه ، واسترعىٰ الاسماع لخطبته ، وهي خطبة فريدة في بلاغتها لاتحتوي كلماتها على النقاط ، مختصة بالزواج بين المسلمين ، وكيف شجع الرسول (ص) على الزواج لأنه يقرب بين البعيدين ، ويؤالف بين الناس على سنة الله ورسوله وراح يشير

بصلة الارحام وكون المصاهرة من الصلاح والورعين ، وامتدح مصاهرهم .
- اي الذي سيتزوج منهم وهو الحارث بن همام - كونه اشرفهم سيادة ومركزاً واحلاهم مورداً واصحهم موعداً ... واوصىٰ بتزويجه وإصلاح حاله وحمد الله ورسوله...

ولما انهىٰ خطبته البديعة النظام ، العارية من الاعجام (الخالية من النقط ، وقد يطلق الاعجام علىٰ ازالة العجمة فتكون همزته للسلب) ، ثم عقد العقد ، ووزع الحلوىٰ التي كان قد أعدها لذيذة وغريبة ، فأقبل عليها الجماعة ، وكاد الحارث أن يمد يده ليأكل منها لكن السروجي منعه زاجراً ، وأمره ان يقوم على خدمة الجماعة وتقديم أواني الطعام ، وماهي الا ثوانٍ حتى خر القوم للاذقان يأكلون بشهية حتى سقطوا كمن صرعتهم الخمرة ، فعلم الحارث ان تلك الفعلة هي من احدىٰ كبائر ودواهي وحيل السروجي فسأله الحارث : هل اعددت للناس حلوى ام بلوى .

فاجاب السروجي بانه لم يجاوز صنع الحلوى وقد مزجها بالبنج ، المخدر ، ووضعها في اوان الطعام المصنوعة من خشب احدى الاشجار... فزجره الحارث على فعلته الشنيعة هذه ، ثم حين فكر في الامر خاف عواقبه ونتائجه ، فزاد قلقه ، واحس السروجي بحال الحارث فطمأنه واعرب له عن شعوره في تلك الاثناء ، وكيف انه ارتع وأوفر واقوى من أي وقت كي يغادر المكان... (وكم من مثلنا غادرها وهي خالية) ودعا الحارث ان كان خائفاً او متردداً ، وبسخريته المهودة ، لأن يأكل من «الحلوى المخدرة» لينام مع الجماعة وحده ، وبعد ان يصحون ويفعلون مايشاؤون ، ليبريء نفسه من صاحبه ، ويطيب له المقام من بعده ، والا «فالمعز المعز قبل ان تسحب وتجر» .. ثم قام السروجي ليستخرج ما في الغرف من اكياس النقود والصناديق ، ويأخذ احسن مافيها ، مع اجود القماش والذهب ، حتى غادر المكان الذي عمل منه فخاً للاخرين ، ولما اطمأن الى ما أخذه من كل غالٍ ونفيس ، شمر عن ذراعيه وتحزم ، واقترب من الحارث بوقاحة وبدون خجل لما فعل ، وكأنه خلع الصداقة ، ودعاه لمصاحبته الى (البطيحة) (وهي منطقة الاهوار بين البصرة وواسط) ليزوجه بأخرى مليحة !

فاقسم الحارث بأنه لن يتزوج مرتين . ومعاشرة ضرتين (اي زوجتين مجتمعتين في عصمة) مؤنباً السروجي قائلاً : قد كفتني الاولى فخراً ، واطلب اخر للاخرى ، فتبسم من كلامه ، وسارع لمعانقته ، لكن الحارث ادار وجهه عنه ، فلما لاحظ إستياء صديقه ، وتوضح له ابتعاده ، انشد ابياتاً من الشعر عن معاتبته ، وتعنيفه له مدعياً بأنه مافعل ذلك بهؤلاء القوم ، الا لأنهم لم يرهم يراعون الضيوف . واختبرهم فوجدهم من اللئام

وليسوا من الكرام... وليس فيهم الا من يخيف غيره او يخاف من غيره، لا بالصفي ولا بالوفي، ولا المختار والذي لايخلف الوعد. ولا البار الوصول اللطيف او العالم ومن يظهر الحفاوة واللطف والسرور لضيفه.. لذا انتقم منهم، ووثب عليهم وثبة الذئب على الخروف، وتركهم صرعى كأنهم شربوا كأس الموت، وهكذا سيطر على كل ماجمعوه واقتنوه رغم الانوف.. فنال مغنمة ذلك منهم، وهكذا ابلغ السروجي بحيلته ماتعجز عنه السيوف، وكم سفك وكم فتك وكم هتك ذوي انفة وكم سار مسرعاً في طريق الذنوب.

ولما انتهى من آخر ابيات قصيدته، حيث يستغفر بها المولى، ليرأف بحاله، ويرحمه، متابعاً الاستغفار، حتى مال قلب الحارث، المغتاظ منه، اليه».. ورجا له ما يرجى للمقترف ذنباً، والمعترف بخطئه.. ثم ان السروجي جفف دمعه المنسكب واخذ جرابه وانسل مغادراً، ودعا ابنه ليحمل الباقي والله الوافي!!

وهكذا وجد الحارث ان بقاءه في الخان سيجلب له الهوان، فغادر واسط، في ذلك الليل، متجها الى (الطيب) وهي مدينة في الطريق بين واسط والبصرة، وهو يحتسب الله على الخطيب!

المقامة الثلاثون
الصورية

«حكى الحارث بن همام قال إرتحلت من مدينة المنصور الى بلدة صور، فلما حصلت بها ذا رفعةٍ وخفض، ومالك رفعٍ وخفض، تقت الى مصر، توقان السقيم الى الأساة، والكريم الى المؤاساة، فرفضت علائق الاستقامة. ونفضت عوائق الاقامة..»

روىٰ الحارث عن سفرته من بغداد الى مدينة صور (وبغداد نسبت الى المنصور لأنه بانيها والمنصور هو ابو جعفر بن عبد الله السفاح الهاشمي ثاني خلفاء بني العباس، ومدينة صور بلدة معروفة على الساحل اللبناني) وهناك.. استطاع الحارث ان يكون صاحب حشمة ونعمة منعماً معظماً. وتمكن من ان يرفع درجة من يواليه ويصادقه ويحط من مكانة من يعاديه، اشتاق الى (مصر) اشتياق المريض الى الطبيب، والكريم الى البذل والعطاء، فترك ماله واهله وولده وصاحبه وحبيبه وعمله، وكل مايعوقه عن السفر، وركب ناقته، واعتلى (ابن النعامة) (والنعامة هي فرس الحارث بن عباد يضرب بها المثل على السرعة) (والنعامة ايضاً، هي الطريق وماتحت القدم)..فأسرع في ترحاله حتى دخل البلدة بعد المعاناة والإعياء حتى مقاربة الهلاك، فرغب فيها ولعاً، كما السكران للشرب صباحاً والسهران لابتداء النهار.. وبينما هو يطوف بها، وهو راكب مطيته يسير ببطء اذ رأى من الناس جماعة على خيول قصيرة الشعر، وكأنهم مصابيح في الليل. فسأل عن العصبة والوجهة، فقيل له اما القوم فشهود، واما المقصد فزواج.. فقادته رغبته للاطلاع، وفضوله، واندفاع الشباب على السير امامهم ليتقدمهم بالفوز

بالفرح والانس وحلاوة العرس. فوصلوا، بعد جهد، الى دار رفيعة البناء، وسيعة الغناء، يشهد لبانيها بالثراء والسناء.. فلما نـزلوا عن صهـوات الخيول، وبـادروا للدخول رأى الحارث دهليزاً سرياً مغطئ بالقماش الرث، وقد علق فيه زنبيل من النوع الذي يضع المكدي فيه طعامه، وثمة شخص جالس على كساء من القديفة فوق دكة فشك الحارث بالامر، وارتاب لهذا التناقض في المشهد، وانتابه التشاؤم من ذلك، لكنه اقترب من الشخص الجالس واقسم عليه بالله القهار ليعرفه من صاحب هذه الدار، فقال له ليس لها مالك معين لا صاحب معروف، انما هي مصطبة المقيفين والحدروزين (والمصطبـة هي دكة يجتمـع عندهـا الفقراء، ويقـال له دكـان ايضـاً.. والمقيفـون والمدروزين (المصطبة هي دكة يجتمع عندها الفقراء ، ويقال له دكان ايضاً والمقيفون والمدروزون ووليجة المشقشقين والمجلوزين، هم الشحاذون الذين يتبعون آثار الناس وينسبون انفسهم ثم يكدون عليهم، والمـدوزون هم صناع الاعمـال البسيطة مثـل المراوح والتعاويذ، ويقال هم الـذين يجلسون في الـدروازة للتكدي، والـوليجة: اي مدخلهم الذي يدخلونه، والمشقشق من يصعد في الدكة، ويصعد آخر في دكة اخرى، وينشد هذا بيتاً وذا بيتاً، وشقشق الفحل: هدر والعصفور: صَوَّت .. اما المجلوز في لسان المكدين فهو الذي يقرأ فضائل الصحابة، والجلواز: الشرطي عند الامير، ونقول: جلاوزة السلطة، اي شرطتهم واذرعهم التي تضرب وتخدم:.

ولما علم الحارث ذلك تحسر على سيره مع هؤلاء القوم وندم على عدم بلوغ الغرض وحاول ان يرجع لكنه استهجن العود واستقبحه ورفضه. فدخل الدار كارهاً متجرعاً الغصص، كما يلج العصفور القفص، فاذا فيها آرائك منقـوشة، وفـرش وطنافس مفروشة ، ونمارق (وسائد) مصفوفة ، وسجوف (سائر) مضمومة الى بعضها ، وقد اقبل الملك (العريس) يتماثل في ثوبه ويتبختر بين خدمه واعوانه ، وجلس كانه ابن ماء السماء . فنادى مناد من قبل الاحماء: وحرمه ساسـان استاذ الاستـاذين وقدوة الشحاذين لاعقد هذا العقد المبجل في هذا اليوم الاعز المحجل ، الا الذي جال وجاب . وشب في الكدية وشاب.. فأعجب اهل الصهر ما اشاروا اليـه ، واذنوا في احضـار المنصوص عليه ، فبرز حينئذ شيخ قد امال الملوان قـامته ونـور الفتيان ثغـامته ، فتباشرت الجماعة باقباله ، وتبادرت الى استقباله..» .

تعجب الحارث لهذا المنظر ، بعد ان نادى احد اقارب الزوج بذلك الطلب في ان لايعقد قران العريس سوى شيخ الشحاذين ، الذي ملأ الشيب شعر رأسه ، حيث

جلس على بساط حبري ، فسكنت الضوضاء لهيبته ، واقترب الى مسنده ، ومسح لحيته بيده، ثم حمد الله المبتديء بالأفضال المبتدع للنوال ، المقترب اليه بالسؤال ، المؤمل لتحقيق الامال ، الذي شرع الزكاه في الاموال ، وزجر عن نهي السؤال (اي منع ونهى اشارة لقوله تعالى: واما السائل فلا تنهر). وندب الى مؤاساة المضطر وامر باطعام القانع والمعبر (الذي يتعرض للسؤال ولا يسأل). ووصف عباده المقربين في كتابه المبين . فقال وهو اصدق القائلين: والذي في اموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم..) وراح يحمد الله على رزقه ، ويعوذ به من استماع دعوة بلانية ، ودعا الله ان يجزي المتصدقين والمصدقات . ويقضي على الربا والصدقات ، ومدح نبينا الذي ابتعثه الله لينسخ الظلمة بالضياء ، وينتصف للفقراء من الاغنياء ، وراعى المسكين وخفض جناحه للمستكين وفرض الحقوق في اموال المثرين ، وبين مايجب للمقلين على المكثرين.. ثم راح يتحدث عن تشريع الله الزواج لتعففوا ، وسن التناسل لكي تتضاعفوا ، مستشهداً بقوله تعالى: (ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

ثم راح شيخ الشحاذين يعرف بالعريس : (ابو الدراج: **كناية عن كثرة سعيه ودرجه في الطلب**) وهو: ولاج ابن خراج (**يعني كثير الخروج والدخول من اجل التكدي**)
ذو الوجه الوقاح: (اي البارد ، الصلب ، الذي **لايستحي من اللوم**)
والافك الصراح: (اي الكذب العلني والهرير والصياح **(متابعة الضجيج) والابرام** والالحاح (الاضجار والاثقال) .

ثم وهو يخطب (يتزوج): سليطة اهلها **(اي السليطة اللسان الصخابة..)**
وشريعة بعلها (اي الموافقة لزوجها)

اسمها: قنبس بنت العنيس (وكان اسمها مأخوذاً من القبس وهو الشعلة اراد انه لحدتها تحرق من يلامسها ، والعنبس من اسماء الاسد) لما بلغه (العريس) من التحافها بلحافها (التغطي بالشيء ، والالحاق كالالحاح) واسرافها في اسفافها وانكماشها على معاشها . وانتعاشها عند هراشها . (اي تهيجها في المخاصمة والعراك) وكان صداقها الذي اعطاه العريس (المكدي) الى عروسه (المكدية) هو:

مخلاة وعكاز وصقاع (وهو رِدء تجعله المرأة على رأسها وقاية من الدهن)
وكراز (كوز ضيق ، او قارورة) ، وطالب من الله تعالى ان يكثر في المصاطب نسلهم (نسل المكدين والشحاذين) .

ولما فرغ الشيخ من خطبته ، راحت النقود تنثر على العريس ، ثم نهض الشيخ وتبعه الحارث لينظر وقفة العريس ، حيث دعاهم وقادهم الى وليمة طعام كبيرة . وحين جلس القوم ، وانشغلوا في الاكل والشرب ، خرج الحارث من الحشد محاولاً الخروج فلمحه الشيخ وسأله الى اين ياتُرَمَ (بخيل) هلا عاشرت معاشرة من فيه كرم فاقسم الحارث بان لايذوق طعاماً او شراباً الا بعد ان يعرف من الشيخ مكان ولادته ونسبه . فتنفس الشيخ الصعداء مراراً ، وبكىٰ مدرارا . حتى اذا استنزف الدمع إستنصت الجمع ، (اي طلب من الجميع الصمت) . ثم راح ينشد ابياتاً عن مسقط رأسه (سروج) حيث كان بها يموج ، وراح السروجي يتأسى لابتعاده عن بلده ومسقط رأسه بعد ان ابعده عنه اولئك المحتلون الاجانب. وتمنى لو كان يوم خروجه منها هو يوم وفاته.. فعرف الحارث انه ابوزيد السروجي، فبادر الى مصافحته واغتنم فرصة الاكل معه من نفس الاناء ، وظل مدة مقامه في مصر يقصد مستفيداً من علمه ولسانه ، حتى لف بينهما غراب البين؛ الموت) ففارقه مفارقة الجفن للعين .

المقامة الحادية والثلاثون
الرملية

«حكىٰ الحارث بن همام قال كنتُ في عنفوان الشباب وريعان العيش اللباب ، أقلي الاكتنان بالغاب ، واهوى الاندلاق من القراب ، لعلمي ان السفر ينفج السفر وينتج الظفر ، ومعاقرة الوطن تعقر الفطن وتحقر من قطن..» .

تحدث الحارث بن همام عن أيام شبابه حيث كان مترفاً ، يضجر من الاقامة في البيت ، او الوطن ويحب الخروج والسفر لعلمه ان السفر يزيد من المعرفة ، ويحقق الفوز، وان السكون في المكان يغلق افاق التعلم والخبرة ، فأستشار واستخار ، وقرر السفر الى ساحل الشام للتجارة ، فلما اقام بالرملة (وهي بلدة في الشام) صادف بها إبلاً تتهيأ للسير ليلاً لتشد الرحال الى مكة المكرمة ، فانتابه الشرق الى زيارة البيت العتيق ، فصفىٰ اعماله وعلاقاته ، ثم انتظم مع رفقةٍ متألقة لهم خبرة في السفر والتجارة ، فساروا ليلاً ونهاراً ، بسرعة متجارزين الخطر ، حتى اقتربوا من (الحجفة) (وهو مكان بين مكة والمدينة المنورة ، يبعد اثنين وثمانين ميلاً من مكة ، وهو قرية تسمى ايضاً .

«مهيعة» تزل فيها بنو عبيد وهم اخوة عاد ، وكان آخرهم العماليق من يثرب فجاءهم سيل الجحاف فأحتجفهم فسميت الحجفة لذلك . فوضع الحارث ورفقته الحقائب ، حتى طلع عليهم بين الهضاب شخص ضاحي الاهاب ، وهو ينادي : ياأهل ذا النادي ، هلم الى ماينجي يوم التنادي ، فانخرط إليه الحجيج ، واحتفوا به واحاطوه ، فلما رأى تجمعهم حوله ، واستعظامهم قوله ، فوقف على مرتفع من الارض ثم تنحنح

مستفتحاً للكلام. وراح يمطرهم بخطبةٍ عصماء عن «المعنى» الحج ، حقيقة فالحج ليس اختيار الابل والرحيل من مكان الى مكان في الهوادج والمحافل ، وتثقيل الابل بالاحمال والزاد والمتاع.. ولا الزهد هو تشمير الاردان او اهزال الابدان ومفارقة الولدان والابتعاد عن البلدان.. كلّا.. بل هو «الابتعاد عن الخطيئة، واخلاص النيه في التوجه الى الكعبة، والتزام الطاعة، واصلاح المعاملات بين الناس ، قبل السفر، اذ لاينقي الاغتسال من الذنوب بالماء ، ولاتعدل تعرية الاجساد بحمل الاثام، ولاتغني لبسه الاحرام عن المتلبس بالحرام. ولاينفع الالتفاف بالازرار مع الإنغمار بالاوزار ، ولايجدي التقرب بحلق الرؤوس مع التقلب . في ظلم الناس وهكذا فان التعبد ليس بقص شعر الرأس عند التحلل من الاحرام. بل بترك التواني والتراخي عن افعال الخير والبر..

وهكذا اكمل هذا الشيخ خطبته بأن لايسعد بعرفـه (وهو مـوقف الحاج المشهور بعرفات) غير اهل المعرفة، ولايتبرك بمنى من يجور على الناس ويعتدي، ولايشهد المقام الا من استقام (اي لاينظر ويشاهد مقام ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بعين الحقيقة. الا من كان مستقيم الاحوال والطريقة).. ولايحظى بقبول الحجة، من زاغ عن المحجة (اي ابتعد عن طريق الحق)، فرحم الله إمرءاً صفا قبل مسعاه الى الصفا، وورد شريعة الرضى قبل شروعه على الاضا (واراد به زمزم).. وراح ينشد ابياتاً من الشعر تصب بنفس المعنى. وخلاصتها ان الذي يتوجه الى الحج لابد ان يكون خالص النية، مؤدياً كل ماعليه من التزامات ازاء اهله والناس والدين، زاهداً بالدنيا، نقي القلب والسريرة.

وادرك الحارث من سحر كلام هذا الخطيب، انه ابوزيد، فارتاح الى ذلك ومكث حتى انتهى من مواعظه، ونزل من مكانه ثم اقترب منه ليراه عن قرب فاذا هو السروجي، الضالة التي ينشدها الحارث، وناظم القلائد التي انشدها فعانقه عناق اللام للالف، ونزله منزلة طيبة، ثم طلب منه ان يرافقه فرفض اذ كان قد اقسم في حجته الا يرادف او يحتمل اويناوب في السير (والمرادفة هو المعادلة على البعير والزميل هو الرديف)... كما اقسم الا يظهر نسبه ولا يتكسب او ينتفع، ولا يرافق او يوافق من ينافق، فنظر اليه الحارث وهو ذاهب يهرول حتى اذا التقى جماعة اخرى من الحجاج اندفع ينشدلها ابياتاً شعرية وعظية منها:

ليس من زار راكباً

مثل ساع على القدم

لا ولا خادم أطا

ع كعاصٍ من الخدم

كيف ياقوم يستوي

سعيُ بانٍ، ومن هدم

..الخ..

ثم ان السروجي اغمض غضب لشانه (سكت)، وانطلق لسانه (لحاله).. فمازال الحارث في كل مورد يرده (موطن الماء نهاراً) ومعرس يتوسدة (ليلاً). يتفقده فيفقده فيستنجد بمن ينشده فلا يجده.. حتى اعتقد ان الجن اختطفه او الأرض إقتطفته فما عانى في الغربة كهذه الكربة... ولا ناله في سفره، بمثلها من حزن على فراق وبعاد صديقه...

المقامة الثانية والثلاثون

الطيبية

«حكىٰ الحارث بن همام قال اجمعتُ حين قضيت مناسك الحج واقمت وظائف العج والشيخ ، ان اقصد طيبة ، مع رفقة من بني شيبة ، ولأزور قبر النبي المصطفى واخرج من قبيل حج وجَفا ، فأُرجِفُ بأنَّ المسالك شاغرةُ وعَرَبَ الحرمين متشاجرة..»

عزم الحارث بن همام بعد ان ادى مناسك الحج . واقام شعائره كالاحرام والطراف والسعي والوقوف بعرفة ، ورفع الصوت بالتلبية ، ونحر الضحايا ، ان يقصد (طيبة) وهي المدينة المنورة) ليزور قبر النبي (ص) مع جماعة من نبي شيبة (ينتسبون الى رجل من قريش اسمه شيبة بن عثمان بن طلحة بن عبد الدار بن قصي ومفتاح الكعبة في عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص)، وانما سمي بعبد المطلب لأن اباه تركه في المدينة عند اخواله فلما مات ابوه توجه اليه المطلب اخوة فاتى به فلما رآه اهل مكة قالوا ماهو الا عبد المطلب ، فشهر به) .

ولكي يتمم واجبه ، في زيارة قبر الرسول (ص) بعد مناسك الحج . تهيأ لذلك ، لكنه علم ، كما اشيع ، بأن الطرق خالية من الناس ، وقد تحدث غارات مما يخيف المسافر عبرها .

فَتحيّر الحارث بين خوفٍ يثبط عزيمته ويعوقه ، وبين اشواق تحفزه حتى استقر تغليب الزيارة ، فاختار جملاً ، واعد عدة السفر ، فسار مع رفقته ، دون ان يوقفهم شيء. ولا يضعف عزيمتهم احد ، مواصلين الليل بالنهار، حتى وصلوا الى موضع.. قبيلة بني حرب ، وقد عادوا تواً من قتال وغزو ، غفرر الحارث ورفقته ان يقضوا النهار

كله في مجلس القوم ، وبينما هم يتباحثون لأختيار المكان الذي قناخ فيه الجمال ومكان مورد الماء العذب البارد ، اذ رأوا القوم يتراكضون كأنهم يسرعون الى هدف معلوم ، فشك الحارث وجماعته بسرعتهم وتتابعهم . فسألوا عما اصابهم ، فقيل قد حضر مجلسهم فقيه العرب) ، وركضهم جاء لهذا السبب ، فقال الحارث لرفقته: الا نشهد مجمع الحي . لنتبين الرشد من الغي . فايدوا دعوته ، ثم نهضوا يتبعون الدليل قاصدين المجلس حتى اذا اقتربوا منه ، وادا روا بصرهم لينظروا الفقيه المقصود فاذا بالحارث يتعرف عليه ، فهو ابو زيد جامع الدهاء وحلي الكلام ، وقد ارسل قليلاً من عمامته على اذنه اليسرى . وارتدى ثوباً طويلاً ليس عليه غيره وقد رفع احد جانبيه ووضعه على منكبيه ، وقد جلس القرفصاء ، واعبان الحي كبارهم واشرافهم به محتفون ، وعامتهم به محيطون ، وهو يقول: سلوني عن المعضلات واستوضحوا مني المشكلات ، فوالذي فطر السماء وعلم آدم الاسماء ، اني لفقيه العرب العرباء ، واعلم من تحت الحرباء (اي السماء)..

فظهرله فتى فصيح اللسان ، جرىء ، اعلمه بأنه خالطفقهاء الدنيا ، واختارمنهم مائة فتوى ومسألة ، فان كان ممن جاء (ببنات غير) (اي بالباطل) والكذب وحقيقته تغاير الحق والصدق ، ويرغب ، فقط ، من القوم بالعطاء والمال ، فليسمع وليجب ليقابل بما يجب .

فأجابه ابو زيد بأن الحق سيظهر ، وينكشف المضمر ، ودعاه لأن يقول ماعنده جهاراً علناً .. فسأل الفتى مائة فتوى ، من بينها : ماتقول في من توضأ ثم لمس ظهر نعله .. فأجاب الشيخ: يجدد الوضوء من بعد (وكان الفتى يقصد بعبارة ظهر نعله: لمس الزوجة..)

وهكذا كان الفتى يلغز بالمعاني ، والشيخ يفهم المقصود فيجيب على المسائل كقوله : ماتقول في الحرام بعد السبت (والمتبادر هنا ان الحرام ماقابل الحلال وان السبت هو اليوم المعروف . والحرام بهذا المعنى لايحل مطلقاً بخلاف المعنى الذي اراده ، وهو ان الحرام المحرم ، والسبت حلق الرأس وحل من تحليل الحج) .

وكقوله: قال ماتقول في بيع الكميت قال حرام كبيع الميت (والكميت هو الفرس الذي إسود عرفه وذنبه من الكمته وهي لون يضرب الى السواد ، وهو بهذا المعنى لايحرم بيعه ، بخلاف المعنى الثاني وهو الكميت بمعنى الخمر ، فهو حرام) الى غير ذلك من تلاعب بالمعاني .

قال: ايحل ضرب السفير ، قال نعم والحمل على المستشير (والسفير ، لغة هو الرسول المصلح بين القوم ، وهو بهذا المعنى لايحل ضربه ، لكن السفير بالمعنى الذي اراده الفتى هو ماتساقط من ورق الشجر ، والمستشير هو الجمل السمين الذي يعرف اللاقح من الحائل..)

وقال: ماتقول في من فقأ عين بلبلٍ عامِداً. قال الشيخ: تفقأ عينه قولاً واحداً (والمعروف عن البلبل انه النوع المعروف من العصافير والاقصاص فيه ، بخلافه المعنى المراد في المسألة وهو البلبل اي الرجل الخفيف .)

قال: فإن بان على المرأة السَّرق ، قال: لاحرج عليها ولافرق (والسرق يلزم فاعله الحد ، وهو من السرقة ، لكن المعنى الذي اراده الفتى في التورية هو بخلافه على المعنى الثاني المراد له: السرق يعني الحرير الابيض .

وهكذا اعترف الفتى بجداره علم هذا الشيخ ، بعد ان سكت سكوت المستحي ، فقال له ابوزيد : ايه يافتى ، فالى متى والى متى اي مانهاية صمتك) ، فقال له لم يبق في كنانتي مرماة ، ولا بعد اشراق صبحك مماراة (اي مجادلة) ثم انشد ابياتاً من الشعر وقال: اللهم كما جعلتنا ممن هدي ويهدي فاجعلهم ممن يهتدي ويهدي (اي يستفيد ويعطي الهدية) . فساق اليه القوم عدداً من الابل هدية ومنحة ، مع جارية جميلة ومغنية ، وسألوه ان يزورهم من حين الى اخر ، فنهض وهو يعدهم بالرجوع اليهم ، ونيل مايتمنوه .. فاعترضه الحارث وقال له عهدي بك سفيهاً؛ اي خفيف العقل بالانشغال باللهو واللعب والعبث) فمتى صرت فقيهاً..؟ (والفقيه في العرف العالم بالحلال والحرام من الاحكام والمسائل الشرعية). فظل السروجي صامتاً بعض الوقت ، ومترددا ثم انشد قصيدة تشير ابياتها الى ضرورة ان يلبس الانسان لكل زمان لبوساً ليماشي النعمة والفقير . ومن الضروري ان يتصرف في مجالسة الناس كل بما يلائمه . ليروق الجليس وعند الرواة لابد من معرفة ادارة الكلام . وبين السقاة يدير الكؤوس، وطوراً يغط فيسيل الدموع ، وطوراً يلهي فيأسر النفوس ويفرحها بقوله بليغ الكلام وجميل النثر والشعر والوعظ والحكمة. حسب المقام المطلوب .

فقال له الحارث سبحان الذي حولك من مذهب ابليس الى مذهب ابن ادريس (ويعني به الشافعي محمد بن عبدالله بن محمد وهو احد الائمة المجاهدين في السنة) فدعاه الى ترك المهاترة وان لايفضح سره ، وطلب منه ان ينهض معه الى مسجد يثرب في المدينة المنورة ، عسى ان يتطهر بالزيارة، من اوساخ الذنوب ، فرفض الحارث ان يسير

معه الا بعد ان يعلم التفسير للمسائل الملغزة التي طرحها على القوم ، وحين شرح له الكلام الملغز به في المعاني والاسئلة ، وكشف عن المستور ، شد الحارث معه الرحال، وسار، وظلا يتسامران مدة المسايرة، مما انسى الحارث طعم المشقة والتعب، وود لو يطول معه المسير على الدرب ، حتى اذا دخلا مدينة الرسول عليهالصلاة والسلام ، وفازا من الزيارة ببلوغ الامل ، اشأم السروجي (اي ذهب الى الشام)، واعرق الحارث فشرق، اي ذهب الى بلد العراق .

المقامة الثالثة والثلاثون
التفليسية

«حكى الحارث بن همام قال عاهدت الله تعالى مذ يفعت، ان لا اؤخر الصلاة ما استطعت، فكنت مع جوب الفلوات، ولهو الخلوات، اراعي اوقات الصلاة، واحاذر من مأثم الفوات، واذا رافقت في رحلة او حللت بحلة، مـرحبت بصوت الـداعي اليها، واقتديت بمن يحافظ عليها...

عاهد الحارث نفسه مذ كان شاباً يافعاً أن يؤدي فروض الصلاة بمواقيتها، حتى في اسفاره ونزهاته، وكان يحاذر من تأخير ادائها.. ويرحب فرحاً بصوت المؤذن، ويقتدي بمن يحافظ عليها بمواعيدها (حسب قوله عليه الصلاة والسلام:

من قال حين يسمع المؤذن مرحباً بالقائلين عدلاً مرحباً بالصلاة واهلاً، كتب الله له الف الف حسنة، ومحاعنه الف الف سيئة ورفع له الف الف درجة).

وحين سافر الى مدينة تفليس (وهي بأذربيجان) صادف ان صلى مع جماعة من الفقراء، فلما انتهوا من الصلاة، وتهيأوا للذهاب، ظهر لهم شيخ ضعيف نحيل مصاب بالفالج، اذ يلتوي جانب فمه حين يتكلم، وهو يرتدي ملابس رثة، ويقسم على كرم القوم ان يتحملوا مشقة استماع كلامه، ثم لهم الخيار من بعد، وبيدهم البذل والعطاء او المنع والحرمان.. فاحاط به الناس جلوساً وكأنهم رؤوساء العرب، وهم ساكنون في اماكنهم، وكأنهم الهضاب والربى، فلما آنس ورأى حسن انصاتهم ورجاحة عقولهم، وكثرة حلمهم، خاطبهم معرفاً بحاله فأما يغني الخبر العيان. وينبيء عن النار الدخان. اي ان مظهره يدل على فقر حاله. وقص عليهم قصته، وكيف كان صاحب ملك وجاه وولي

نعمة ومنصب، وقد ساعد ووصل وحال، حتى حلت به الكوارث فمحت الثروة والخير والبركة، حتى اصبح بيته خالياً، وكفه اصفراً وثوبه ضـراً وعيشه مـراً. واطفالـه يتكاثرون ويبكون من شدة الجوع، ويتمنون إمصاصة النوى). ولم يقم الشيخ هذا المقام الشائن ويكشف عن سره واوضاع اهله وبيته لولا انه شقي ومرض وشـاب. وتمنى لو انه لم يكن حياً وموجوداً، ثم تحسر بأسف وحزن. كتأسف الحزين السريع البكاء وأنشد شعراً بصوت ضعيف يشكو فيه تقلب الدهر وعدوانه عليـه، ببلاغـة وسحر لغة وجمال نظم، فسحر المحيطين به والمستمعين به والمستمعين مؤثراً فيهم، فأرادت الجماعة أن تعرف حقيقته وسره، بعد ان تعرفت على حاله وبلاغته، فطلبوا منه ان يكشف نسبه، فرفض رفض من اتبلي بالمشاق، وجعل يلعن الضرورات ويـأفف ويتضجر من فقدان المروءات، وقال شعراً:

لعمرك مل فرع يَدُلُّ
جِفاهُ اللذيذُ على اصله
فَكُلْ ماحلا حين تؤتى به
ولا تسأل الشهدَ عن نحله
ومَيِّزْ اذا مااعتصرت الكروم
سلافة عصرك من خله
لتغلي وترخص عن خبرةٍ
وتشريَ كُلًّا شِرى مثله
فعار على الفطنِ اللوذعي
دخول الغميزةِ في عقله

قال الحارث: فأزدهى القوم بذكائه ودهائه، واختلبهم بحسن ادائه مع دائه، ختى جمعوا له المال والعطايا، وقالوا له معتذرين انه حام حول بئر فارغة، وتعرض لخلية نحل خالية، فليقبل بهذه الهدايا القليلة، التي لاتستحق الشكر ولا الذم.

وهكذا نزل عطاءهم الكثير مع الاعتذار محل الكثير، فشكرهم على ذلك، ثم راح يقطع الارض خبطاً.. فلاحظ الحارث ان الشيخ مغير لحيلته. متصنع في مشيته -فنهض يتتبع اثره، والشيخ يراقبه بطرف عينه محاولاً الابتعاد عنه، حتى اذا خلا الطريق، وامكن التحقيق، نظر الى الحارث نظرة الوجه البشوش والود الخالص بعد ان غش وخلط. وقال له اعتقد انك غريب وتطلب الرفعة في الطريق، فهل لك في رفيق يرفق

بك، ويعينك، ويستر عليك وينفق، فقال له الحارث: لو أتاني هذا الرفيق لنا التوفيق... قال له: لقد وجدت فاغتبط (افرح) واستكرمت فارتبط.. ثم ضحك طويـلاً وتمثل.. للحارث بشراً سوياً فاذا هو شيخنا السروجي لاعيب في جسمه، ولا فمه، ولاشبهة في ملامحه، ففرح بلقائه وكذب مرضه وهم بلومه على سوء مقامته، ففتح فمه وانشد قبل لومه:

ظهرتُ برثٍ لكيما يقال

فقير يزجي الزمان المزجى

واظهرت للناس أن قد فلجت

فكم نال قلبي به ماترجى

ولولا الرثاثة لم يُرث لي

ولولا التفالج لم ألق فجا

بمعنى لولا مظهره وتظاهره بالمرض والفقر، لما حصل على الاعجاب والمال والعطايا ولانال رحمة احد.. وتلك بعض طرائق الكدية واساليبها، اذ يظهر بمظهر غير مظهره لينال العطف وليثير الانتباه...

ثم قال للحارث انه لم يبق له بهذا الارض مرتع ومكان، ولا في اهلها مطمع، فأن كنت الرفيق فالطريق الطريق.

قال الراوي: فسرنا متجردين، ورافقته عامـين اجردين، وكنت عـلى ان اصحبه ماعشت، فابى الدهر المشت (اي المفرق).

المقامة الرابعة والثلاثون
الزبيدية

«اخبر الحارث بن همام قال: لما جُبتُ البيد الى زبيد ، صحبني غلام قد كنت ربيته الى ان بلغ اشده ، وثقفته حتى اكمل رشده ، وكان قد انس بأخلاقي ، وخبر مجالب وفاقي ، فلم يكن يتخطى مرامي، ولايخطىء في المرامي..»

حين قطع الحارث بن همام المسافات حتى وصل الى منطقة زبيد (وهي بلدة باليمن بينها وبين صنعاء اربعون فرسخاً ، وليس في اليمن ايمئذ ، بعد صنعاء منها ولا اغنى من اهلها ولا اكثر خيرا ، وهي بلدة كثيرة البساتين والمياه والفواكة من الموز وغيره) وكان بصحبة الحارث غلام تربى عنده حتى كبر فبلغ مبلغ الرجال حنكة وتجربة، وقوة وعقلاً وكان الحارث قد قومه وأدبه حتى أتم اصلاحه.. وكان الغلام قد تأنس بطباع الحارث واعتاد عليها، وجرب مقاصده ولم يخطىء في اغراضه ، فالتصقت اعماله الصالحة بقلبه ، فافرده وجعله خالصاً في حضوره وسفره.. لكنه مات حين وصلا زبيد ، وظل الحارث عاماً لايتناول طعاماً كما يجب، ولايريد بديلاً عن الغلام.. حتى اضطرته الوحدة واكدارها ومتاعب عمله وتنقلاته الى الاستعانة بغلام اخر .. ليسد الحاجة ، فلجأ الى تاجر العبيد ليوفر غرماً يعجب اذ قلب ، ويحمد اذا جرب ممن علمه ودربه من العقلاء .

اضطر صاحبه الى عرضه للبيع في السوق من ضغط الافلاس وبحكم الحاجة. فتحرك تجار العبيد وكل منهم يثب متعجلاً لتلبية حاجة الحارث ، واعداً بانجاز مايريد ، في الموعد المقرر..

وبعد مرور شهور السنة ، وفي الشهر المحدد الذي كان الحارث قد سألهم فيه ووعده بتلبية طلبه ، وجد النخاسين ناسين او متناسين فعلم ان ليس كل من وعد ، وفا..وان لايحك جلده مثل ظفره . الاتكال والاعتماد على الغير، فخرج الى السوق باحثاً بنفسه عن مطلبه ، حاملاً معه الذهب والفضة، ليستعرض الغلمان ، ويتعرف على الاثمان، واذا برجل ملثم يعترضه وهو يمسك غلاماً من زنده، وينادي بشرائه، ممتدحاً خصاله، واصفاً اياها شعراً كقوله:

من يشتري مني غلاماً صنعا
في خلقه قد برعا
بكل مانطت به مضطلعا
يشفيك ان قال وان قلت وعى

ويستمر الرجل بوصف شمائل الغلام في الحذق ، والخلق والاستجابة والوعي والوفاء والطاقة والقناعة والصدق والامانة ونكران الذات، وهو ممن لايفشي سراً، متمكن والادب شعراً ونثراً. ولو ضنك العيش والحاجة وكثرة العيال، الجياع ، العراة ، لما اضطر بيعه، ولا استبادله، بملك العالم.. فتأمل من الحارث خلق الغلام القويم، وشكله الحسن، وحسنه الخالص، حتى خاله من ولدان الجنان ثم سأله عن اسمه ليتعرف على لهجته ولفظه واصالة نسبه، فلم ينطق بكلمة حسنة ولاقبيحة ولاتكلم كلام ابن حرة او عبدة، فاعرض وابتعد عنه.. ورفض عجزه عن اداء الكلام في المطلوب والمرام.. لكن الغلام غرق في الضحك، ثم بالغ في خفض رأسه مرة ورفعها اخرى، من غلبة الضحك ، ثم نظر الى الحارث وانشد ابياتا بليغة منها:

يامن تَلَهَّب غيظه إن لم ابح
باسمي له واهكذا من ينصف
ان كان لايرضيك الا كشفه
فاصخ له انا يوسفُ
ولقد كشفُ لك الغطاء فإن تكن
فطِناً عرفت وما إخالك تعرف

بمعنى انه حر ولايجوز بيعه، يشير بذلك الى بيع يوسف الصديق عليه السلام..

فأرتاح الحارث لهذه المعاتبة الشعرية، التي اذهبت غضبه، حين كشف عن نفسه فملك قلبه، واسره بكلامه الجميل... حتى نسي الحارث التحقيق في امره، ولم يكن همه الا مساومة مالكه ومعرفة ثمنه، وكان يعتقد ان مالكه سيساومه في ثمنه، لكن الرجل اكد بأن الغلام إذا قل ثمنه وخفت كلفته يتبرك به مولاه وسيده فيحبه ويقربه اليه، وهو يفضل تحبيب الغلام الى الحارث، اكثر من امتلاء الجيب.. لذا طلب منه مائتي درهم فقط وحين تسلمها من الحارث شكره وكان الحارث فرحاً اذ نقده المبلغ في الحال كما ينقد في الرخيص الحلال، ولم يخطر بباله ان كل رخيص غال، فلما تمت الصفقة ووجب الرحيل، بكى الغلام ثم اقبل على صاحبه وقال:

لحاك الله هل مثلي يباع
لكيما تَشْبعُ الكرِشُ الجياعُ

وهل في شرعِة الانصاف إني
أكلف خطة لاتستطاع

وإن أُبلىٰ بروعٍ بعد روعٍ
ومثلي حين يُبلىٰ لايُراع

أما جربتني فخبرت مني
نصائح لم يمازحها خداع

وكم ارصدتني شركاً لصيدٍ
فعدتُ وفي حبائلي السباع

ونطتَ ليَّ المصاعب فاستقادت
مطاوعة وكان بها إمتناع

وأي كريهة لم أبل فيها
وغنم لم يكن لي فيه باع

وما ابدت لي الأيام جرماً
فكشف في مصارمتي القناع

ولم تعثر بحمدالله مني
على عيب يكتم أو يذاع

حتى قوله:

على إني سأنشد عند بيعي
اضاعوني وأي فتىً اضاعوا

الى آخر القصيدة الجميلة والبليغة التي يمتدح فيها شمائله، ويبالغ في حقه ومعرفة مكانته فلما وعا الشيخ أبياته وأدرك معنى شعره، راح يكلمه تكليم الطفل الصغير بما يسره ويعجبه كما تفعل الامهات بأولادها، وهو يبكي ويؤكد إنه أحَل هذا الغلام محل ولده بل لايميزه على فلذات كبده ولولا حاجته وعوزه، وخلو منزله وانطفاء سراجه لما خرج من بيته حتى يبيع نعشه، وقد خاطب الحارث قائلاً له: وقد رأيت مانزل به من لوعة الفراق وهو سهل الاخلاق... فطلب من الحارث ان يسلي قلب الغلام ويزيل حزنه وان يعاهده على الاستجابة لطلبه وإعادته اليه، حين يتمكن من توفير ثمنه، نادماً.. فإن الله يقبل عثرة النادم، فوعده الحارث بذلك وعداً خالطه الخجل والحياء وفي القلب اشياء.. آنذاك قرب الشيخ الغلام اليه، وقبل مابين عينيه، وانشد شعراً وهو يبكي واعداً الغلام به بأن فراقه لن يطول، و.. سلمه للحارث معتبراً اياه نعم المولى ثم ذهب.. فلبث الغلام باكياً حتى قطع الشيخ مسافة، مبتعداً، فلما استفاق وكفكف دمعه قال للحارث: اتدري لم اعولت وعلى م عولت؟

(اي عزمت واعتمدت وقررت) فأجابه الحارث بأن فراق مولاه هو الذي أبكاه فرد عليه الغلام بأن الحارث لايعرف شيئاً، وراح ينشد ابياتاً جديدة يشير فيها الى ان بكاءه لم يكن بسبب فراق الاحباب، وإنما على جاهل حين ارتفع نظره اوقعه في ورطة، فضيع دراهمه، واكد الغلام على الحارث بأنه ألم يحدثه ويفهمه بأن الحر لايباع. وسأله: ألم تفهم المعنى في قصة يوسف الصديق..

فلم يهتم الحارث لكلامه، واعتبر ماقاله مزحةً، لكن الغلام وقف وقفة الذي على حق، وتبرأ من العبودية، فإحتدم الجدل والنقاش بينهما حتى وصلت المخاصمة الى الضرب فالمحاكمة، فلما اوضحا للقاضي الصورة، وقدم كل منهما قصته قال القاضي: الا ان من انذر فقد اعذر، وان الفتى قد حذر الحارث فصار معذوراً، وان التقصير يقع على الحارث لأنه لم ينتبه للتحذير او النصيحة، والغلام حر والحر لايباع، ولاحق للحارث فيه.. وأخبر القاضي الحارث بأن والد الغلام أتىٰ به امس، قبل الغروب، ويعلن أبوته له وانه وريثه، فسأل الحارث القاضي ما اذا كان يعرف اباه، فأجابه القاضي: وهل يُجهل ابو زيد الذي جرحه جبار وعند كل قاضي له اخبار واخبار.. فأستاء الحارث وغضب،

ولكن بعد فوات الأوان، فعرف ان لثام الشيخ كان خديعة، فأطرق خجلاً امام القاضي الذي قال له: ياهذا ماذهب من مالك هو ماوعظك ولاأجرم عليك من أيقظك، فأتعظ بما نالك، وكاتم اصحابك ما اصابك.. وتذكر هذه الحادثة لتكون عبرة لك.. وبعد حين / حين التقى الحارث الشيخ السروجي، اعتذر له بكلام لطيف لكنه لم يعد له دراهمه... فسامحه وعاد الى صداقته.

المقامة الخامسة والثلاثون
الشيرازية

«حكى الحارث بن همام قال مررت في تطوافي بشيراز على نادٍ يستوقف المجتاز ولوكان على اوفاز، فلم استطع تعديه، ولاحظت قدمي في تخطيه، فعجت اليه لأسبك سر جوهره، وانظر كيف ثمره من زهره، فاذا اهله افرادٌ، والعاج اليهم مغاد..» .

في تطوافه بين المدن، مر الحارث بن همام بمدينة شيراز (وهي اكبر مدن فارس، كانت تابعة للدولة العربية الاسلامية، انذاك) فتوقف عند منتدى يغري المسرع العابر المتعجل لأن يتوقف عنده ليعرف سره وباطن امره، فاذا اهل المنتدى افراد لامثيل لهم في صفاتهم ولانظير:..

والهائل اليهم يكتسب الفوائد .. فبينما هم في حديث حلو اطرب من الغناء وألذ من الشراب، توسطهم رجل يرتدي ثوبين باليين، يقارب عمره من الثمانين (العمرين) (ويقال نهز الصبي الحلم إي قاربه، قيل العمر ثلاثون سنة لان الانسان من الشبيبة الى الاربعين. في ازدياد ونماءٍ وقوة، ثم من الاربعين الى الثمانين، في نقص ، فاذا بلغ الثمانين فقد استوخى عمر الزيادة وعمر النقص، وقيل العمر الناقص، وقيل العمر الغالب ستون، والثاني مائة وعشرون..)

وهكذا جلس هذا الشيخ الذي قارب العمرين، وقد حيا الجمع بلسان فصيح ومنطق سليم، وقد شبك بيديه حول ساقيه، وراح يتكلم، وهو يردد: اللهم اجعلنا من المهتدين، فاستحقره الجالسون لملابسه الرثة، ونسوا ان المرء باصغريه (قلبه ولسانه) يقوم ويكمل بهما، لابملابسه او مظهره..

وراح المنتدون يتداعون فصل الخطاب، بمعنى انهم إختلفوا عليه وتجادلوا وكان الشيخ جالساً لايظهر اية علامة، بل ظل يختبر افهامهم، حتى عرف فاضلهم وناقصهم وحين استخرج ماخفي من اسرهم ومعارفهم قال:

ياقوم، لوعلمتم ان وراء الفدام (وهو ما يسد به فم القارورة) صفو المدام (اي الخمرة الصافية)، لما احتقرتم ذا إملاق (اي صاحب ملابس بالية) وقلتم ماله من خلاق (اي لانصيب له من الخير، ومنه قوله تعالى: ومالني الاخرة من خَلَاقٍ).. ثم فجر الشيخ من ينابيع الادب، والنوادر المختارة من الكلام (النكت النخب) والجميل العجب، المدهش، وحين سحرهم بكلامه وخلب لبهم، تهيأ لمغادرة المكان، فتعلقت به الجماعة، ومنعته من الذهاب، وقال له: قد أريتنا وسم قداحك، فخبرنا عن قيضك ومحك (والقيض هو قشر البيضة اليابس، والقيق قشرها اللين الذي تحت القيض، والمح هو صفار البيضة الذي في داخلها، يريد: اخبرنا عن ظاهر امرك وباطنه.. اي عرفنا بنفسك ونسبك) فصمت الشيخ صموت من افحم (اي سكت لإنقطاع حجته)، ثم بكى بصوتٍ عالٍ قال الراوي: فلما رأيت شوب ابي زيد وروًبه (الشوب هو العسل والروب هو اللبن الرائب الخاثر، والمراد: صدقه وكذبه. وفي الحديث الشريف: «لاشوب ولا روب في البيع والشراء» أي لاغش ولاتخليط).

والحارث يعرف السروجي واسلوبه المألوف وكثرة معارفه، فتأمله على سهوم محياه، وستر مكره، وان لم يشتبه به، حتى اذا كف عن بكائه، وعرف ان الحارث عرفه، رمق الحارث بنظرة الساخر ثم راح ينشد بلسان متباكٍ مستغفراً الله عن قتله شابة عانساً كبرت في بيت ابيها ولم تتزوج، وهي ممدوحة الاوصاف في الاندية، ولم يخش من قتلها وارثاً، او من يطلب الدية، (وهي مايدفعه القاتل لأهل المقتول) ولم تزل نفسه في خيلالها وغيها، ومتمادية في قتل الابكار، حتى نهاه الشيب عن تلك المعصية، فلم يرق مذ شاب شعر راسه من اعلى الصدغ، «دماً» من عاتقٍ يوماً، ولا مصبية «صبية» وها هو اليوم على مايظهر منه، ومن شغله الذي يتكسب منه، وقلة خيره يربى بكراً طال تعنيسها وحجبها حتى عن الهواء، وهي بالرغم من تعنيسها مخطوبة، ومطلوبة، كما هي المرأة الجميلة الغانية.. وهو يحتاج الى مائتي دينار لتجهيزها، وهو لايمتلك درهماً واحداً، فراح يستعين بهم على امره لمد يد المساعدة له، فلم يبق في الجماعة الا من اعطاه واكرمه، فلما نجحت حيلته، وجمع المبلغ المطلوب راح يثني عليهم بصالحٍ، وهو يستعد لمغادرتهم، فتبعه الحارث ليتعرف على سر ربيبة خدره، هذه البكر الغانية، ومن قتل من

الابكار العوانس الصبيات.. فانتبه الشيخ للحارث وعرف رغبته فقال له شعراً:

قتل مثلي ياصاح مزج المدام
ليس قتلي بلهذم او حسام
والتي عنست هي البكر بنت الـ
الكرم لا البكر من بنات الكرام
ولتجهيزها الى الكاس، والطاس
قيامي الذي ترىٰ ومقامي

فادرك الحارث ماكان يعنيه السروجي بالبكر والعاتق والعانس والمصبية، فهي كلها مسميات للنبيذ، ومن كناياتها.. وهكذا عرف تلاعب السروجي بالالفاظ والمعاني كي يخدع اهل فارس ممن كانوا يتنافسون بالمعاني والاحاجي والالغاز.. فتغلب صاحب الملابس الرثة عليهم جميعاً.. بعقله ولسانه..

لافي مظهره وهندامه ، تلك حكمة الزمن والانسان

المقامة السادسة والثلاثون
الملطية

«اخبر الحارث بن همام قال أَنختُ بملطية، مطية البين، وحقيبتي ملأىٰ من العين، فجعلت هجيراي، مذ القيت بها عصاي. ان اتورد موارد المرح، واتصيد شوارد المُلَحْ».

اخبرنا الحارث بانه حين وصل الى (ملطية) وهي بلدة من بلاد الجزيرة) وكان يضع على ناقته حقيبة مليئة بالذهب والفضة.. وكان هدفه نشدان الراحة والمرح والبحث عن الاماكن والمنتديات الادبية، حيث الجدل الثقافي والفكري، كي يقتبس ويستفيد من نوادر الكلام الجميل، والنكت (الالفاظ) اللطيفة، حيث اعتاد ان لايفوته منها منظر ولا مسمع. ولاخلا منه، ملعب ولا مرتع.. حتى اذا لم يبق له في هذه الامكنة والمنتديات حاجة وسبب. ولا في البقاء فيها رغبة. يعمد الى انفاق الذهب، في شراء احتياجات رحلة جديدة. لبحث دائم عن المعرفة، وهكذا.. فحين اتم اعداد مستلزمات سفرته وتهيأت قافلته للرحيل، رأىٰ تسعة رجال قد (سبأوا قهوةً) (أي اشتروا خمرة: والقهوة والسبيئة من اسماء الخمر)، وقد جلسوا على ربوة ظهروا فوقها، وقد بان لطفهم ورقتهم لكل ناظر، وفكاهتهم حلوة الالفاظ ورقيقة، فاغرى ذلك الحارث فاقترب من مجلسهم واستاذنهم السماح له بمنادمتهم لا لمدامتهم، بل لممازحتهم لابزجاجتهم..

اي من اجل المجالسة والافادة من لطفهم ولفظهم، لالغرض الشرب معهم). فاذنوا له فصار عاشرهم. ولما انتظم معهم معاشراً لهم، وجدهم (ابناء علاتٍ) (اي: مختلفون ابوهم واحد وامهاتهم شتى، لغةً، ويقال ابناء الاخياف بالعكس، اما ابناء الاعيان فهم ... ام والمعنى انهم كانوا غرباء عن المكان الا ان الادب والعلم جمعهم في قرابة،

ووفق بينهم كأنهم من نسب واحد، فساوى بينهم في الرتب، والمكانة حتى لاحوا مثل كواكب السماء، وبدوا كالجملة المتناسقة الاجزاء، والمتناسبة.. ولذلك ابتهج الحارث بهم و برفقتهم.. فمحمد طالعه على ذلك، وراح يجادلهم ويزاحمهم الكلام الجميل، ويتطارح معهم موضاعات الادب والشعر واللغة والاخبار، والمسائل العويصة.

واللجوء الى التبادل كأنهم يتبادلون السلع كقولك: اذا عنيت به الكرامات ما مثل النوم فات (والكرامات لفظ معناه الظاهر جمع كرامة، ولك ن تجعل منه الكرى ـ بمعنى النوم ـ مات (بمعنى فات)..

وقس على ذلك مما سيأتي من الأحاجي). وثمة معان اخرى هي:

الكرا ـ مات ـ الكرى فات (الكرى ـ النوم، مات ـ فات)

وراحوا يكشفون السهى والقمر ويجنون الشوك والثمر، وبينما هم ينشرون الجديد والقديم، ويتعرفون على الغث والسمين، دخل عليهم شيخ قد ذهب حسنه وظل علمه وتجربته، فوقف وقفة من يسمع ؤينظر، ويلتقط ماينثر، الى ان قال كل الجالسين ماعندهم، وافرغوا كل مالديهم فلما رأى توقف قرائحهم، ولم يأتوا بعد من حديث، جديد، حيث توقفوا تماماً عن الجدل والمفاوضة، قال لهم:

ماكل سوداء تمرةً

وكل صهباء خمرة..

فتعلقوا به، وانتبهوا إليه، ورجوه أن يقدم لهم ماعنده من كلام جميل أحاجي وملح وطرائف، والا فسيعاقبونه على تحديه لهم، إذ ليس سهلاً ان يلقي بكلامه هكذا ويمضي، اذ لابد يأتي بالجديد ولا يتهم ويمضي الى حاله.

فقال لهم اذا طلبتم إثارة كلامي واستنطاقي فأقول لكم حكماً ولاحكم النبي سليمان..ع

وقال لهم: اعلموا ان وضع الاحجية هو لأمتحان الألمعية، واستخراج الخبية، والخفية.. وشرطها ان تكون ذات مماثلة حقيقية، والفاظ معنوية ولطيفة ادبية، فمتى نامت هذا النمط (اي خالعت هذا النوع والطريقة) ضاهت السقط ولم تدخل السفط: (اي ماثلت الردى ولم تخزن في الكتب والذاكرة) واستمر يتحدث اليهم. بأنهم لم يحافظوا على هذه الحدود، وتميزّوا اوفرقوا بين المقبول والمرودود... فوافقوه على كلامه كونه صدق وبالحق نطق، وكلبوا اليه ومنه ان يأتيهم بجديده وابتكاراته من بيلغ المعاني، وما يماثل الاحاجي والالغاز التي كانوا يتبارون بها، فمد الشيخ عنقه، مفكراً

قليلاً ثم قال لهم واحداً، واحداً، بيتاً للمديح، ثم بيتاً اخر يحتوي اللغز والاحجية، مثل قوله:

ـ ماذا يماثل قولي

جوع إمِدَّ بزادِ

ثم قال وهو يضحك، مخاطباً الشخص الثاني:

ما مثل قول المحاجي

ظهرٌ أصابته عين

ثم قال للثالث:

يامن نتائج فكرِهِ

مثل النقود الجائزة (بمعنى النافذة)

مامثل قولك للذي

حاجيت صادف جائزة

والى الرابع قال:

مامثل تناول الف دينار

اخو الذكاء المسنجلي

مامثل اهمل حليةً

بين هُديتَ وعَجِّلِ

والى اخر قوله: مامثل قولك للذي أضحى يحاجيك أكففِ أكففْ

والى اخر قوله:

مثل قولي الشقيق أفلْت

والى اخر: مامثل قولك للمحاجي ذي الحجى (صاحب العقل).. ما إختارفضه

وكقوله: اوضح لنا مامثل قولك للمحاجي دُسْ جَماعَه

قال الراوي، فلما انتهى من كلامه هز منكبيه، وقال:

يامن له النكتُ (وهي من الكلام ماتهذب) التي يشجي الخصوم بها وينكت

انت المبين فقل لنا

مامثل قولي خالي اَسْكُتْ

ثم امهلهم يفكرون باقواله واحاجيه. فان عجزوا وطلبوا منه تفسيرها لهم. فسيفعل، ثم طرح عليهم احاجي جديدة. عدا تلك التي تماثل وتشابه ماكانوا به يتطارحون الكلام..

وراح يقول لهم واحداً، واحداً مايلي:
يامن اذا اشكل المعمى (اي زاد في الصعوبة والخفاء)
جَلَتْهُ افكارُهَ الدقيقة (أي كشفته وأظهرته)
إن قال يوماً لك المحاجي
خذ تِلَكَ مامثله حقيقهْ
ثم التفت الى الثاني وقال:
يامن بدا بيانه
عن فضله مبينا
ماذا مثال قولهم
ممار وحش زُيِنًا؟
ثم الى الثالث قال: مامثل قولك كالذي
حاجاك انفق تقمع
وللرابع: ماذا يماثل قولى
إستنش ريح مُدَامَه
وللخامس: مامثل قولك للذي
اضحى يحاجي غِطِ هلكىٰ
(هلكى: جمع هالك بمعنى بائر وجمعه بور)
وللسادس قال: يا أخا الفطنة التي
بان فيها كماله
سار بالليل مدة
اي شيء مثاله
ثم السابع: مامثل احببْ
فرومه (الجبان ويقال له لاع)
ثم الثامن: مامثل قولك اعط اعط إبْ
ريقاً يلوح بغير عروه
والتاسع: مامثل قولك للمحاجي
ذي الذَّكاء الثور ملكي
والعاشر: ماذا مثال صغير جحفلة
بَنّيةُ تبياناً يَنَمُّ به (اي يظهره ويذيعه)

قال الحارث بن همام، فلما أطربنا بما سمعناه ، وطالبنا مكاشفة معناه ، قلنا له لسنا من خيل هذا الميدان ، ولا لنا بحل هذه العقد يدان ، فإن ابنت مننت وإن كتمت غممت ، فظل يشاور نفسه ويقلب قدحيه حتىٰ اقنعوه فأقبل علىٰ الجماعة ، اهل البلاغة والبراعة ، فأوكلوا إليه معرفة الإحجيات تلك.. ولما اقبل الغروب ، هَمَّ بالانصراف بسرعة ، فسئل عن المقر ، فتنفس كما تتنفس الحزينة الثكول ، قال الراوي : هذا ابو زيد السروجي ، الذي أنشد أبياتاً فيها حنين الىٰ ارضه وأهله ، فأخبر الحارث أصحابه عنه ، وعن حسن تزيينه للكلام ، وقدرته عليه ، ثم حين التفت يبحث عنه ، فاذا بالشيخ قد وثب ونهض ليهرب بما ربح منهم من مالٍ وعطايا .. فلم يعرفوا اين ذهب .

■تفسير الأحاجي الموجودة في هذه المقامة .

-جوع أمد بزاده: فمثله طوامير (جمع طامور أو طومار وهي الصحيفة ، ومعنىٰ طوىٰ جوع ، ومير من مارة الطعام يميره ، مثل قوله: أمز بزاد .

- وأما: ظهر أصابته عين فمثله مطاعين (جمع مطعون ومطا مثل ظهر وعين من عانه أصابه بالعين) .

-وأما صادف جائزة فمثله الفاصلة (الحائلة بين الشيئين ضد الواصلة وكلما الفا مثل صادف وتكتب بالياء اذا إنفردت ، صلة وصلة بمعنىٰ جائزة وهي العطية)

- وأما تناول الف دينار فمثله: هادية (تأنيث الهادي والعنق أيضاً ومعنىٰ: ها خذ وتناول ، وديّة: هي مايُعطىٰ لأهل القتيل ، وهي من الذهب ألف دينار) وهكذا يأتي علىٰ بقية الاحاجي: (أهمل حيلة فمثله الفاشية) ، وأكفف أكفف فمثله مهمه ، واما الشقيق أفلت فمثله أخطار ، وأما ما أختار فضة فمثله أبارقة ، لان الرقة من اسماء الفضة وقد نطق بها النبي (ص) فقال: في الرقة ربع العشر .

وأما دس جماعة ، فمثله: طافية...وأما خالي أسكت ، فمثله: خالصة .

وأما خذ تلك فمثله هاتيك...وأما حمار وحش زينا ، فمثله: فرازين (جمع فرزان الشطرنج) لأن الفرا حمار الوحش ، ومنه الحديث: كل الصيد في جوف الفرا.. وهكذا... الى بقية الأحاجي والالغاز، التي أظهر فيها ابو زيد السروجي براعته في التفوق علىٰ أهل الكلام والبلاغة ..

المقامة السابعة والثلاثون
الصعدية

«.. حكىٰ الحارث بن همام قال أصعدت الىٰ صَعْدَة ، وأنا ذو شطاط يحكي الصعدة ، وإشتداد يبدر بنات صعدة ، فلما رأيت نضرتها ، ورعيت خضرتها ، سألت نحارير الرواة ، عمن تحويه من السراة ، ومعادن الخيرات ، لأتخذه جذوةً ، في الظلمات ، ونَجّدةً في الظلمات ، فنعت لي قاضٍ بها رحيب الباع ، خصيب الرباع ، تميمي النسب ، والطباع ، فلم أزل أتقرب إليه بالإلمام ، وأتفق عليه بالإجمام ، حتىٰ صرت صدىٰ صوته ، وسلمان بيته..» .

توجه الحارث بن همام الىٰ مدينة (صعده) (وهي من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً ، يضرب المثل بحسن وجمال نسائها..)

وكان الحارث معتدل القوام ، وذا قدره علىٰ الركض بحيث يسبق الحمر الوحشية أو النعام ، والنعام هنا كناية عن (بنات صعدة) .. فلما رأىٰ جمال المدينة وحسنها وخضرتها ، وطبيعتها البهيجة ، سأل رواتها الثقاة عمن تحويه من سادتها وشرفائها وخيرة مبدعيها ليتخذهم مناراً له وقدوة حسنة ، وليستنجد فيهم من المظالم والتجاوزات التي قد تقع عليه ، فوصف له قاضٍ واسع الاطلاع ، كريماً بسخاء ، ميسور الحال ومعروف النسب فهو من تميم ، وهي قبيلة معروفة وموصوفة بالمجد ومكارم الاخلاق ، فظل الحارث يسعىٰ إليه ويتقرب ، بالاجتماع عليه والتردد علىٰ

زيارته ، كي يجعل من نفسه قريباً له ، ثم راح يقلل زياراته ويباعدهـا عملاً بقـول الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) : زرغباً تزدد حباً ... حتىٰ صار الحارث صدىٰ صوت القاضي ، من شدة تعلقه به وملازمته له واتحاده معه ، وكأنه من أهل بيته .. اذ كان الحارث يلازمه للافادة من منافعه وعلمه فينظر جلسات ومناقشات الخصوم ، وينتدب سفيراً (واسطة خير) بين المعصوم منهم والموضوع للاصلاح بينهم ..

فبينما كان القاضي جالساً ذات يوم للحكم ، إذ دخل شيخ رث الثياب مرتعشاً ، نظر إليه الجميع نظرة فاحصة ، فزعم ان له خصماً غير منقاد ، فلم يكن الا كضوء شرارة ، أو وهي إشارة، حتىٰ أحضر غلام كأنه الأسد الضرغام .

فقال الشيخ: ايد الله القاضي ، وعصمه من التغاضي ، إن ابني هذا كـالقلم الردي والسيف الصدي ، يجهل أوصاف الأنصاف ، ويرضع أخلاف الخلاف ، ان أقدمت أحجم ، واذا أعربت أعجم ، وإن أذكيت أخمد ، ومتىٰ شويت رمد ... وراح الشيخ يتحدث عن تربيته لغلامه مذ كان صغيراً حتىٰ شب وكان له ألطف أب وقرب ... لكنه عصا أمره ، وظل يختلف معه ويعانده.. فأقتنع القاضي بشكوىٰ الشيخ، ومخالفـة الغلام له ومناكدته له ، وأكبر الشكوىٰ فقال أشهد ان العقوق أحد الثكلين ولرب عقم أقر للعين (اي اذا عق الولد أباه ولم يبره فكأنه فقده ، ولربما العقم أروع للانسان من الولد العاق) ..

فقال الغلام ، وقد استياء من هذا الكلام: والذي نصب القضاة للعدل وملكهم أعنة الفضل والفصل ، إنه ما دعا قط الا أمنت، ولا أدعىٰ الا آمنت ، ولا لبىٰ الا وأحرمت ، ولا أورىٰ الا وأضرمت، بيد أنه كمن يبغي بيض الأنوق (وهي ذكر الرخ ويقال الرخم وهو من الطير الاسطوري النادر والانوق انثاها ولايظفر ببيضها لان أوكارها تقع في رؤوس الجبال ، ومنه المثل المعروف: أعز من بيض الأنوق).. واستمر الفتىٰ في كلامه عن أبيه الشيخ ، بـأنه يطلب الطـيران من النياق (وهي أنثىٰ الجمـل ، دلالة علىٰ المستحيل) .

فقال له القاضي: وبم أَغْتَنَكَ (أي أتعبك) وأمتحن طاعتك؟

فاجاب الغلام: انه منذ صفر من المال (اي أصابه الفقر والعوز) ومني بالمحال (أي إبتكىٰ بالجدب والقحط) راح يطلب منه أن يستجدي ويطلب العطايا من الناس ليكثر شربه ويزداد ، وينجبر من حاله مانقص وجف ، وقد كان أخذني بالدرس ، وعلمني أدب النفس ، أَشربَ قلبي (أي سقاه وملأه) بأن الحرص متعبة ، والطمع معتبة ،

والشر متخمة والمسئلة ملامة .. (اي انه ربا هذا الغلام وعلمه علىٰ الاخلاق الفاضلة ضد الطمع والجشع والتسول) وراح الغلام ينشد أبياتاً مؤشرة من الشعر ، مليئة بالحكمة والموعظة ، والرضا بالعيش وشكر الله علىٰ نعمته والقليل من العطاء ، وكونه الانسان لابد أن يكون حريصاً لئلا يحط من قدره ومنزله وان يحمي عرضه كالليث الذي يدافع عن لبوته ، وان يَصبر علىٰ ماينتاب الانسان من فقر ، كصبر أولي العزم، والا يرق ماء وجهه بالسؤال والاستجداء فالحر من يخفي ألمه وعوزه وفقره ، ومن إذا رثت ثيابه ، لايجب أن تبلىٰ أخلاقه ، والا يتغير جوهره ... وهكذا دعا الغلام في أبياته الشعرية الى قيم الكرامة والإباء وعزة النفس والصبر على الفقر والنوائب ،.. فعبس الشيخ وراح يتهجم على إبنه أمام القاضي ، ثم لان وهدأ وكأنه ندم على ماقال ، فراح يلاطف الغلام في الكلام ، ويعاتبه كونه قال يوماً شعراً يناقض القيم التي طـرحها الآن ، وراح الشيخ يردد علىٰ مسمع القاضي شعراً ادعىٰ بـأن إبنه قـاله ، فغضب القاضي ورأىٰ تناقض قول الفتىٰ وفعله ، وتحليه ، أو أدعائه بما ليس فيه ، فقال له: أتميمياً مرة وقيسياً أخرىٰ ، وهو مثل يضرب للمتلون ، أي يشبه الغلام نفسه وينسب الىٰ تميم مرة بالاتصاف بالأخلاق الحميدة ، وبقيس مرة بالأخلاق النميمة ..

ولما رأىٰ الشيخ أن القاضي سينصف له ، ويؤيده ، راح ينشد شعراً يمتدح بـه القاضي ويحثه علىٰ نصح الغلام وثنيه وتحذيره عن الادعاء والكذب ..

ففرح القاضي لقول الشيخ ، وأجزل العطايا والهبات ، ثم التفت الىٰ الغلام وراح يلومه مجدداً علىٰ عقوقه ، فلما أدرك الغلام بأنه سيخسر المعركة ، قام وتبعه الشيخ وهو ينشد مادحاً القاضي مجدداً ..

وحار الراوي بين تعريف الشيخ وتنكره ، فتبعه الىٰ مكانه ليطلع علىٰ سره وليتعرف علىٰ حقيقته وشخصيته ، فلما وصل إليه ، أبدىٰ الشيخ الطرب والفرح والإرتياح ، وقال: من كاذب أخاه فلا عاش ، فعرف الحارث ان الشيخ هو السروجي ، فأسرع اليه ليصافحه ، ويعرف سانحه وبارحه ، لكن السروجي غاب كما غاب إبنه!

وما عمله الشيخ والغلام ، ليس أكثر من حيلة ليصطادا العطايا والهبة من القاضي!

المقامة الثامنة والثلاثون

المروية

«حكىٰ الحارث بن همام حبب إلي مذ سعت قدمي ، ونفث قلمي أن أتخذ الأدب شرعةً ، والإقتباس منه نجعةً ، فكنت أنقب عن أخباره ، وخزنة أسراره ، فإذا ألفيت منهم بغية الملتمس وجذوة المقتبس ، شددت يدي بغرزه ، وإستنزلت منه زكاة كنزه..»

إتخذ الحارث بن همام الأدب متعه ، منذ صباه ، فكان ينقب عن أخباره و علماء أسراره ، فاذا لقي عندهم مايبحث عنه، أفاد منهم ووجد فيهم مطلبه ، وتمسك بصحبتهم ومرافقتهم.. ولم يجد مثل السروجي رفيقاً غزير الثقافة والعلم ومثله أسير من المثل، وأسرع من القمر في النقل ..

وكان الحارث مشتاقاً طلاقاته ، وإستحسان مجالسته، والاستماع الىٰ خطبه وأحاديثه ، لذا فهو يستسهل الاغتراب ، ويستعذب السفر والعذاب من أجل ملاقاته ، فلما وصل الحارث الى مدينة (مرو) ، وهي بلدة بالعراق (حيث كانت خراسان تابعة للعراق) ، وقد بشر الطير الحارث بانه سيلقىٰ السروجي ، وإعتبر الطير بريد الخير ، فراح يبحث عن أبي زيد في المحافل وعند ملتقىٰ القوافل ، فلم يعثر له علىٰ خبر ولا أثر.. حتىٰ غلب عليه اليأس وإنزوىٰ متأملاً ضجراً...

وذات يوم ذهب الى والي (مرو) ، وجلس في مجلسه مع جمع من اصحاب الفضل والخير والسيادة ، فإذا أبو زيد يظهر فجأة وهو يرتدي ملابس رثة ويتظاهر بطباع المتملق، فحيا تحية المحتاج وهو يلتقي رب التاج (والتاج من لباس الملوك وهو عصابة مزينة بالجواهر) ، ثم قال لوالي مرو:

إعلم وقيت الذم ، وكفيت الهم ، أن من عدمت به الأعمال أعلقت به الآمال ، ومن

رفعت له الدرجات ، رفعت اليه الحاجات، وإن السعيد من إذا قدم، وواناه القدر ، أدىٰ زكاة النِعم ، كما يؤدي زكاة النَّعَمِ ، وإلتزم لأهل الحَرُم ، مايلتزم للأهل وَالحَرَم .

واستمر يمتدح صفات وشمائل هذا الوالي الذي أصبح عميد مصره، وعماد عصره والذي يتوجه إليه المحتاجون ، وتؤمل العطايات من كرمه ، وتنزل المطـالب ببيته ، وتستنزل الراحة من كفه ،..

وبعد هذا المديح ، راح ابو زيد يشكو حاله أمام الوالي ، بكونه إفتقر بعد أن كان ثرياً ، وهو يقصد الوالي بعد أن اصابته مصيبة ، وأخذ به الضعف والإعياء من سوء حالته ، لذا فهو يرجو من فضل الوالي ، الكثير ، ومن جاهه الرفقة ، وطلب إليه ان يوجب مايجب عليه ، ويحسن كما احسن الله إليه ، وحذره من إن يتردد في العطاء الىٰ من يطلب منه مالاً أوحاجة ، فوالله مامجد من جمد ، ولارشد من حشد ، بل اللبيب من اذا وجد جاد ، وان بدأ بعائدة عاد ، والكريم من اذا إستوهب الذهب لم يَهَبْ أن يهب .

ثم سكت السروجي ، لحظة ، وهو يراقب تأثير كلامه العذب ونطقه الجميل علىٰ الوالي ويستأنس أكثر بمديحه ، وجميل قريحته ، فأطرق يفكر .. فأختلط الأمر علىٰ أبي زيد ولم يدرك سر صمت الوالي وتأخير عطائه وصلته ، فاغتاظ غضباً ، وأنشد بعض الأبيات يشير فيها الىٰ ضرورة عدم تحقير الأديب لأن مظهره وملابسه الرثة لاتدل علىٰ جوهره ، ودعا الىٰ الإهتمام بصاحب الفكر إن كان ساكتاً أومتحدثاً ، كما دعا الىٰ إكرام السائل وإنعاش المستغيث ، فخير مال الانسان ماأشاد به ذكراً طيباً تتناقله الناس وتجعل لصاحبه صيتاً وسمعة طيبة ، ثم انشد قوله .

وما علىٰ المشتري حمداً بموهبةٍ
غبنٌ ولو كان ما اعطاه ياقوتاً
لولا المروءة ضاق العذر عن فطنٍ
اذا اشرأبت الىٰ ماجاوز القوتا
لكنه لإبتناء المجد جد ومن
حب السماح ثنىٰ محو العلىٰ ليتا
وما تنشق نشر الشكر ذو كرمٍ
الا وأزرىٰ بنشر المسك مفتوتا

ثم راح يتلو أبياتاً في مدح الحمد والشكر ، وكونهما لايلتقيان مع البخل ، وعن صفات السماح عند الناس ، وكون الانسان السمح سيظل محبوباً ، أما البخيل فيظل

ممقوتاً وطلب في قصيدته من الوالي أن تجود كفاه بالعطايا، كي يأخذ نصيبه ثمناً لها أروع الكلام ، ودعا لأن يأخذ الانسان نصيبه من الزمان قبل أن ينقلب عليه ويريه النوائب فالدهر أنكد من أن يستمر به حال ، شاء الانسان أم كره..

فقال له الوالي: تالله لقد احسنت، فأي ولد الرجل أنت ، فنظر إليه عن تمنع وأنشد له ، وهو مقارب بين جفنيه:

لاتسأل المرء من أبوه وزر

خلاله ثم صله أو فأصرم

فما يشين السلاف حين حلا

مذاقها كونها ابنة الحصرم

قال الحارث ، فقربه الوالي لبيانه الفاتن وكلامه الجميل ، حتى أحله مقعد القريب ثم فرض عليه عطاياه وهداياه فخرج وهو ممتلىء مالاً وهدايا ، فتبعه الحارث ، وحين وصل إليه هنأه بما حصل ، فقال السروجي انه نال ذلك بفضله لا بفضوله ، وبقوله .. ثم قال:

تُعساً لمن جدب الأدب ، وطوبىٰ لمن جد فيه ودأب.. ثم.. ودعه وذهب .

المقامة التاسعة والثلاثون
العمانية

«حدث الحارث بن همام قال لهجتُ مذ أحضر ازاري . وبقل عِذاري بأن أجوب البراري علىٰ ظهور المهاري ، أنجدُ طوراً ، وأسلك تارة غوراً ، حتىٰ فليتُ المعالم والمجاهل ، وبلوت المنازل والمناهل ، وأدميت السنابك والمناسم ، وأنضيت السوابق والرواسم ، فلما مملت الإصحار وقد سنح لي أرب بصحار ، ملت الىٰ إجتياز التيار ، وإختيار الفلك السيار ، فنقلت إليه أساودي ، واستصحبت زادي ومزاودي..» .

قال الحارث بن همام إنه ولع منذ صباه ، ثم شبابه بأن يتحول في البراري ويرحل بين المدن والصحاري علىٰ ظهور النوق ، فقطع الأماكن المعلومة والمجهولة ، وخبر البيوت وجربها ، وكما عرف مواضع الماء .. فأدمىٰ حوافر الخيل ، وأخفاف الإبل وأهزل الخيل والإبل السريعة ، من كثرة ترحاله وتنقلاته ،.. فلما مل السفر في الصحراء ، حتىٰ وصل بلدة (صحار) (وهي قصبة اليمامة وتعرف بعمان علىٰ ساحل البحر ، انذاك) فأختار سفينة كي يسافر عليها متجاوزاً أمواج البحر ، وتقلباته ، فنقل أمتعته وزاده ، فلما تهيأ القوم لبدء الرحلة ليلاً ورفعوا الأشرعة ، سمعوا نداءً من الشاطيء ، والصوت يقول لهم:

ياأهل ذا الفلك المزجىٰ ، في البحر العظيم ، بتقدير العزيز العليم ، هل أدلكم علىٰ تجارة تنجيكم من عذاب أليم ،..

فاستجاب القوم للنداء ، وطلبوا من صاحبه ان يهديهم ويخبرهم ماعنده ، فطلب منهم استصحابه ، كونه ابن سبيل يود العودة الىٰ بلده ولا يملك ما يعيش عليه ، وهو

مسافر خفيف الظل ، ولايبغي سوىٰ موضع متواضع.. فأجمع القوم علىٰ قبوله، بعد ان مالوا الىٰ كلامه الجميل ، واتفقوا الا ينجلوا عليه بالطعام اليسير، والمال الصدقة ،.. فلما وصل السفينة، استعاذ بالله الملك من مسالك الهلك ، وقال للقوم بان الله تعالىٰ ما أخذ علىٰ الجهال ان يتعلموا ، حتىٰ أخذ علىٰ العلماء ان يعلموا ، وان معه تعويذ ة مأخوذة عن الأنبياء ، ونصيحة براهينها صحيحة ، وليس من طبعه الكتمان والحرمان .. فتبادل القوم الرأي ، وتفهموا مقصده ، فقال لهم ان مامعه هو حرز السفر عند المسير فى البحر .. والسلامة من الغم اذا جاش موج اليم ، وبها إستعصم نوح من الطوفان ، ونجا ومن معه من الحيوان علىٰ ماصدعت به أي القرآن،.. ثم راح يقرأ بعض أساطير تلاها، وتمويهات مزينة كشفها ، وقال إركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ، ثم تنفس تنفس المغرمين ، أو عباد الله المكرمين ،.. وقال لهم انه قام فيهم مقام المجتهدين ونصحهم نص المبالغين ، وسلك بهم حجة الراشدين الهادين..

فأعجب القوم ببيانه البادي الطلاوة ، وارتفعت أصواتهم له بالتلاوة ، وأنس قلب الحارث من كلامه ، وأحس انه يعرف حقيقة شخصيته، فسأله ألست السروجي؟ فأجاب الشيخ: نعم.. فإرتاح الحارث لرفيق سفره ، ورفه عن نفسه ،.. ولما يزالوا يسيرون ، والبحر ساكن، والجو صحو ، والعيش صفو ، والزمان لهو ، والحارث يلتقيه بمحبة ، ويفرح بمناجاته والحديث معه ومسامرته ..

حتىٰ عصفت ريح الجنوب علىٰ السفينة ، فصعد الموج صاخباً من كل مكان ، فمالوا بسفينتهم الىٰ إحدىٰ الجزر ليستريحوا ريثما تؤاتيهم الريح المناسبة ، فظلوا مدة من الزمن حتىٰ نفذ الزاد غير اليسير الذي كان معهم ، فقال ابو زيد السروجي : انه لن ينال ثمار أمله من هذه الرحلة ، فطالب الحارث أن يغادرا السفينة ، فأيده الحارث ، فذهبا الىٰ الجزيرة بحثاً عن طعام، وطافا فى ارجائها . وهما يتفيآن بظلال اشجارها، حتىٰ وصلا الىٰ قصر مشيد كبير له باب من حديد ، يحرسه عدد من العبيد ، فكلماهم للوصول الىٰ هدفهما ، لكنهما وجدا كل واحدٍ منهم حزيناً كئيباً ، فسألاهم عن سبب هذا الحزن والغم ، فلم يجيبوا لا بكلمة طيبة ، ولا بكلمة رديئة .. فبادر خادم كبير السن ، وهو يبكي، وطلب إليهما الا يوسعاهم سباً ولا يوجعاهم عتباً ، فهم في حزن شامل وشغل شاغل عن الحديث ، فسأله ابو زيد ان يوضح لهما الأمر ، ولسوف يجد فيه عرافاً عليماً ، ووصافاً شافياً ، فقال الرجل ان صاحب هذا القصر هو رئيس هذه

الجزيرة وكبيرها ، الا انه لم يخل من حزن لكونه بلا ولدٍ يرثه ويحكم بعده ، ولم يزل يختار النساء الكريمات ، ويتخير منهن النفائس، حتىٰ بشر بحمل كريمة محذرة من النساء ، فحملت منه ، فنذرت النذور ، وأحصيت الأيام والشهور .

ولما جاء المخاض عسرت المرأة ، حتىٰ خيف علىٰ الأم والطفل ، وليس في الجزيرة من يعرف الراحة ، ولا طعم النوم مخافة أن يحدث لها ولمولودها مكروه .. ثم راح الرجل يبكي من جديد ، فطمأنه السروجي مشيراً إليه بأن يبشر بالفرج لان عنده «تميمة» خاصة بالطلق ، وسيتلوها لتسهيل ولادة المرأة وإزالة عسرها بعون الله .. فركض الخادم والغلمان مبشرين مولاهم بمجيء الفرج ، وما هي الا لحظات حتىٰ جاء من يرحب بهما ، ويدعوهما للدخول الىٰ القصر ، فلما دخلا علىٰ الحاكم ومثلا بين يديه ، قال لأبي زيد : ليهنك منالك إن صدق مقالك .. ولم يفل فالك ، فوعده بالخير والعطاء ان صدق قوله ، فجلبوا قلماً مبرياً وزبداً بحرياً (والزبد هنا حجر معروف شديد البياض رخو رقيق يوجد علىٰ وجه البحر يوضع في الأكحال ، ذكر الحكماء ، إن من خاصيته اذا علق علىٰ امرأة ماخض، سهلت ولادتها) .

كما جاؤا بالزعفران قد نقع في ماء وردٍ نقي ،.. فراح السروجي يسبح الله ويستغفره ، ثم أبعد الحاضرين ، ووبث ثم أخذ القلم وكتب علىٰ الزبد بالمزعفر:

«ايهذا الجنين ، إني نصيح لك ، والنصح من شروط الدين / أنت مستعصم بكنٍ كنين ، وقرار من السكون مكين / ماترىٰ فيه مايروعك من إلفٍ مداجٍ و لاعدوٍ مبين / فمتىٰ مابرزت منه تحولت ، الىٰ منزل الأذىٰ والهونِ / وتراءىٰ لك الشقاء الذي تلقىٰ ، فتبكي له بدمعٍ هتون / » .

وأنجز الأبيات الشعرية الاخرىٰ ، ثم طمس المكتوب علىٰ غفلةٍ ، وشد الزبد في خرقة حرير، بعدما ضمخها بعبير ، وأمر بتعليقها علىٰ فخذ المرأة الماخض ، وأن لاتعلق بها يد حائض ،.. فلم تمض الا لحظات حتىٰ نزل الجنين من بطن أمه بقدرة الواحد الصمد ، فأمتلأ القصر سروراً ، وأحاطت الجماعة بأبي زيد تثني عليه وتقبل يديه ، وتتبرك بمساس ثيابه ، حتىٰ خيل الىٰ الحارث إنه أحد أفضل زهاد الكوفة (مثل أويس القرني أو دبيس الاسدي) ثم إنثالت عليه الجوائز والهدايا والصلات ماجعله غنياً ، وتحققت له الآمال والأمنيات ، ولما يزل ينتابه الرزق منذ ولد الطفل الولد ، الىٰ أن أعطي البحر الأمان ، وتسهل المضي الى عمان ، فأكتفىٰ ابو زيد بالعطية . وتأهب للرحلة فلم يسمح الوالي بمغادرته بعد تجربة بركته ، بل أو عز وأمر بضمه الىٰ جماعته وخاصته

وعياله ، وأن تطلق يده في خزانته .

قال الحارث بن همام، فلما رأيت أبا زيد قد مال الىٰ حيث بكتسب المال رحت أعنفه وأوبخه ، معاتباً إياه لمفارقته اصحابه ورفاقه .. فرد السروجي عليه بأبيات من الشعر ، يدين فيها مايواجه الحر من ضنك في البلاد ، وبأنه حر في إختيار الأرض لمتي تضمن كرامته وعيشه السعيد وحريته ..

ومنها هذه الأبيات:

لاتصبون الى وطنْ
فيه تضام وتمتهن

حتىٰ قوله

وأعلم بأن الحر في أوطانه يلقىٰ الغبن
كالدر في الأصداف يستزرىٰ ويُبخس في الثمن

ودعا السروجي الحارث ان يتبعه في هذا المنهج، لكن الحارث اعتذر منه فتوادعا ، حتىٰ ركب الحارث السفينة ، وهو يعاني ألم فراقه وصحبته ..

المقامة الأربعون
التبريزية

«..أخبر الحارث بن همام قال أَزمعتُ التبريز من تبريز ، حين نَبَتْ بالذليل والعزيز ، وخلت من المجير والمجيز ، فبينا أنا في إعدادِ الأُهبةِ ، وإرتياد الصحبةِ ، ألفيتُ بها أبا زيدٍ السروجي ملتفاً بكساءٍ، ومحتفاً بنساء..»

حين قرر الحارث بن همام الخروج الى السفر من (تبريز) (وكانت قرية في أذربيجان من عمل خراسان بينها وبين المراغة ، آنذاك ، عشرون فرسخاً ، وهي تابعة الى الدولة العربية الاسلامية)..

حيث لم تعد تبريز للإقامه آذت الناس الأعزة والشرفاء وأبعدتهم ، وخلت من الأمان والاستقرار ، كما افتقدت الكرماء والمجيز السخي ، (وهو الذي يعطي الجائزة ، أو الذي يجيز القافلة من مواضع الخوف أي يحميها ، أو هو الولي والوصي).. فبينما هو مستعد لذلك الترحال ، لمح أبا زيد السروجي ، وهو يرتدي الملابس الجيدة ، وقد أحاطته مجموعة من النساء الجميلات ، فسأله الحارث عن أمره ، والى أين يذهب بهذا القطيع من الظباء (الجميلات) ، فأشار أبو زيد الى إمرأة منهن باهرة الجمال ، وقال لصاحبه انه تزوجها لتؤنسه في غربته ، وتبعد عنه ضجر العزوبية ، ولتعوضه في أسفاره وترحاله عن الأقارب والأصدقاء فوجد فيها «عرق القربة» اي تماطله في حقه ، وتتمنع عليه ، وتكلفه فوق طاقته ، فذهب وإياها الى الحاكم ليشكوها أمامه ، فإن إنتظم مابينهما فالوفاق ، والا فالطلاق الطلاق ..

فرغب الحارث أن يعرف نتيجة المحكمة بين الشاكي والمشتكي ، فأجل سفره حتىٰ حضر مجلس القاضي وكان معروفاً ببخله الشديد ، وحين وقف السروجي أمام القاضي برك من يديه ، وشكىٰ له زوجه كونها صعبة القياد وغير مطيعـة له ، وهي نفـورٌ ، ولاتستجيب له وتمنحه حقوقه ، فزجرها القاضي محذراً إياها من مخالفة زوجها فإن مخالفة الزوج تغضب الرب وتوجب الضرب . فقالت للقاضي شاكية هي الاخرىٰ بأن أبا زيد ممن يدور خلف الدار ويأخذ الجار بالجار ، فوبخه القاضي وطرده ، لكن السروجي أكد للقاضي بان زوجته كاذبة ، لكن الزوجة ردت عليه التهمة وألبسته إياها ، فأنزعج أبو زيد ، وزفر مغتاضاً غاضباً ، وأندفع يقذف زوجته بسيل من التهم والشتائم ، وراح يعدد حسنات نساء شهيرات كبلقيس والزباء ورابعة العدوية والخنساء ، وهو يعير زوجته من انها لو تجمعت لها كل خصال وشمائل ومكانة هاتيك النساء لما عاد إليها زوجاً .. فتذمرت المرأة وغضبت وراحت ، هي الاخرىٰ ، تصب عليه اللعنات والشتائم بنفس الطريقة ، اذ عددت خصال وشمـائل أبـرز الشخصيات الأدبيـة والفكريـة كالحسن والشعبي والخليل والحريري وقساً وعبد الحميد الكاتب وأبا عمر الجاحظ وأبن قريب .. ورفضت أن تكون له حتىٰ لو اجتمعت فيه صفات هؤلاء جميعاً ..

فقال لهما القاضي: أراكما (شناً) و (طبقه) ، ودعاهما الىٰ المصالحة والعودة الىٰ البيت ، لكن المرأة لم تكف عن شتم أبي زيد ، فأشترطت الا تعود إليه الا إذا كساها ، ولاترفع له شراعها الا إذا أشبعها ، فحلف السروجي بالمحرجات الثـلاث اي (والله وبـالله وتالله) ، (وقيل هي الطلاق بالثلاث) .. بانه لايملك سوىٰ ثيابه البالية ، فنظر القاضي في قصصهما وأنزعج ووبخهما في كونهما تسافها في مجلس القضاء ، وتبادلا الشتائم ، وقال ان أمير المؤمنين نصبه ليكون قاضياً بين الخصوم ، لابين الفرقاء ، وطلب منهما ايضاح مشكلتهما والإفصاح عن سرهما ، وهددهما بالعقوبة كي يجعلهما عبرة للناس ان لم يقولا الصدق .. فسكت السروجي لحظة ، وكأنه محرج ، ثم أنشد أبياتاً أشار فيها الىٰ علاقته بزوجته ، وكيف كانت علاقة مثالية وممتازة وانه كان يعتاش علىٰ الأدب والاحاديث والأراجيز الشعرية .. لكن الفقر والعوز جعـلاه يقصر بحقها ، فثـارت ثائرتها عليه ، ..

وردت الزوجة، أيضـاً، بأبيـات من الشعر، كـونها هي التي لقنت الشيـخ هذه الأراجيز، وراحت تهجو القاضي الذي جاءه وقصده السروجي وزوجته يطمعان بكرمه ، لكن دون جدوىٰ .. فلما رأىٰ القاضي البخيل قوة لسانهما وصلابة موقفهما، أدرك أن

المصيبة حلت عليه بدهائهما ، ولابد له من أن يرضيهما، وأعتبر هذا اليوم بالنسبة إليه يوم نحس، وخسران، ويوماً عصيباً يصاب فيه المرء ولا يصيب ، فطلب من حاجبه ان يريحه من هذين الثرثارين وأن يقطع لسانهما بدينارين (أي يسكتهما ويرضيهما بدينارين)، ثم ان القاضي فرق الأصحاب ، ومن كان في مجلسه ، وأغلق الباب متشائماً من هذا اليوم..

وحين سلم الحاجب الدينارين الذهب الىٰ أبي زيد وزوجه ، قال لهما: أشهد إنكما أكثر أهل الأرض حيلة ودهاءً ، واوصاهما بأحترام مجالس الحكام ، والإبتعاد عن فحش الكلام ، فما كل قاضٍ مثل قاضي تبريز ، ولاكل وقت تسمع فيه الأراجيز ..

فقالا له: مثلك من حجب وشكرك قد وجب،..

ونهضا وقد حظيا بدينارين، من ذهب ، وأصليا قلب القاضي نارين .

■ وقد أودع الحريري هذه المقامة العديد من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية والاراجيز..، مثل قوله (لقيت منها عرق القِربة: وهو مثل يضرب لمن يلقىٰ شدة من الأمر الذي يزاوله ، كما ان حامل القِربة يلقىٰ جهداً حتىٰ يعرق في ذلك الزمان) .

والمقامة هذه تدلل مثل غيرها من مقامات الحريري علىٰ خبرة الكاتب في معرفة أمثال العرب وجميل كلامهم وحكمهم .

المقامة الحادية والأربعون

التنسية

«حدث الحارث بن همام قال أطعت دواعي التصابي ، في غلواء شبابي ، فلم أزل زيراً للغيد ، وأذناً للأغاريد ، الىٰ أن وافىٰ النذير وولىٰ العيش النضير ، فقرمت الىٰ رشد الإنتباه ، وندمت علىٰ مافرطت في جنب الله ، ثم أخذت في كسع الهنات بالحسنات ، وتلافي الهفوات قبل الفوات..»

كان الحارث بن همام ممن يأنس الىٰ العشق والميل الىٰ الصبا وزيارة النساء الناعمات الجميلات في مجالسهن ، كما كان محباً للغناء ، مستمعاً جيداً للطرب ،.. لكنه، حين جاءه النذير وتغيرت أحواله ، ومعيشته المرفهة ، ترك ذلك العبث واللهو ، واشتاق الىٰ المغفرة والتوبة وطاعة الله ، ليعوض عن سيئاته بالاعمال الحسنة ، قبل فوات الأوان.. فترك العبث واللهو مع النساء الناعمات الجميلات ، ومخالطة المغنيات والجواري ، وأقترب من أهل العبادة ، وهكذا إبتعد بداره عن كل خليع ، وهاجر من بلدة الىٰ اخرىٰ ، حتىٰ حل ببلدة (تنيس) (وهي بلدة في مصر قريبة من دمياط) فحل بمسجدها الأنيس ، ورأىٰ فيه حلقة ملتحمة وجمهرة محتشدة من الناس ، وقف رجل وسطهم فصيح اللسان ، يشكو بني آدم وأخطائه ونزواته ولهوه ، (والذي ركن من الدنيا الىٰ غير ركين ، وذبح من حبها بغير سكين).. فراح هذا الشيخ يعظ الناس بالابتعاد عن اكتناز المال وجمعه ، وراح ينشد أبياتاً من الشعر فيها الموعظة عن اولئك الذين وخطهم المشيب وتؤذن شمسهم بالمغيب ، ممن اتخذ اللهو في شبابه ، ثم حين شاخ راح يعظ الناس ، وهو زاهد عن متاع الدنيا ولهوها ولما انتهىٰ من أبياته المبكية

الواعظة ، نهض صبي ، وقد خلع ثيابه وراح يلقي خطبة معقباً علىٰ كلام الشيخ وما فيه من موعظة وحكمة وإرشاد ، وطالب الناس ممن يريد أن يصلح مستقبله ويقبل التوبة فليظهر حسن نيته بالتبرع له ولهذا الشيخ ،.. فاستجاب القوم له ، ثم وقف الشيخ وراح يجمع من الحاضرين النقود والهبات حتىٰ إمتلأ كيسه ،.. وبعد ذلك مضىٰ مسرعاً يتمايل من فرحه ، ورفع الغلام الأيدي وطلب من النـاس أن يرفعـوا اكفهم بالدعاء ، ليؤمنوا عـلىٰ دعائـه ، ثم ذهب وراء الشيخ راكضـاً مسرعاً ،.. فتبعهمـا الحارث،.. ولما آمنوا الطريق ، والمفاجأة، التفت الشيخ الىٰ الحارث وسلم عليه تسليم الصديق .. وقال له : هل اعجبك ذكاء هذا الغلام؟.. انه إبني!

فشهد الحارث له ، بانه لشجرة مثمرة ، ثم دعا ابو زيد صديقه الحارث الىٰ البيت ليتبادلا كؤوس الكميت ، فوبخه الحارث قائلاً: ويحك أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ،

فتضاحك السروجي، وراح ينشد أبياتاً تدلل علىٰ رغبته في ازاحة الأسىٰ وتـرويح القلب والاكتئاب بتلك السهرات والمسرات ، وخاطب الحارث بانه لايصحب من يطرب، وليس له برفيق ولا طريقه بطريقه ..

وغادر السروجي صاحبه مسرعاً ، وتركه حائراً مشتاقاً لحسن كـلامه وعـذوبه ألفاظه واشعاره .

المقامة الثانية والاربعون
النجرانية

«حكىٰ الحارث بن همام قال ترامت بي مرامي النوىٰ ، ومساري الهوىٰ الىٰ أن صرت إبن كل تربةٍ وأخا كل غربة ، الا إني لم أكن أقطع وادياً ولا أشهد نادياً ، لا لإقتباس الأدب المسلي عن الاشجان ، المغلي قيمة الإنسان ، حتىٰ عرفت لي هذه الشنشنة ، وتناقلتها علي الألسنة ،..» ________________

تحدث الحارث بن همام عن اسفاره واغترابه عن الوطن متتبعاً حبه للأدب الباعث علىٰ الفرح المسلي عن الاحزان والهموم ، والذي يعلي من شأن الانسان ويغنيه بالمعرفة ، حتىٰ عرف الناس عنه هذه العادة ، وتناقلتها الألسن فصارت تلك صفة ملازمة له تماماً كالحب العذري صفة بني عذره ، والشجاعة صفة لأبي صفره ، (وهم قوم: ظالم بن سراق ، وإبنه المهلب ابن ابي صفره أمير البصرة الذي غزا جرجان وطبرستان ، وله في الحرب مواقف معروفة..)

ولما وصل الحارث الىٰ بلدة نجران (وهي من اليمن سميت باسم بانيها نجران بن زيد بن يشجب بن يعرف بن قحطان).. والتقىٰ هناك بالأصدقاء والجيران ، يزور أنديتها صباح مساء ، ويتخذها مكان فكاهته وسمره ، وليطلع فيها علىٰ مايفرح وما يحزن ،.. فبينما هو في نادٍ مزدحم ومجلس عامر اجتمع فيه الناس ، إذ جلس شيخ كبير عليه ثوب بسيط ، حيا الحاضرين تحية مخادع ، وبلسان حاد فصيح ، وراح يخطب فيهم قائلاً: يابدور المحافل وبحور النوافل (اي الكرام ، والنوافل هي العطايا) ، قد تبين الصبح لذي عينين ،..

ثم ناشدهم ، واعظاً ، متسائلاً : هل يحسنون العون ، أم أنهم يبتعدون عما يدعون من كرم ونبل .. فأستفزهم تساؤله وأغضبهم قوله ، وطلبوا منه أن يوضح أمره ، فسألهم بماذا كانوا يتحدثون ويتبارون؟ أجابوه بالالغاز ، فراح يعيب عليهم ماقدموا،.. فلامه الناس ، فإعتذر وندم علىٰ قوله وطلب منهم ان يحتملوه قليلاً فالصبر من صفات الكرام ، فطلبوا منه أن يقول ماهو جدير بالاعجاب وغريب عن الاسماع والمعارف فطلب ان يقول الالغاز ليحتكم ، بعدئذٍ ، للمتفوق المتميز ،.. فقبلوا بذلك وارتاحوا ، ورضوا بما اشترط فأنشد ملغزاً في «مروحة الخيش» (ومروحة الخيش هذه هي ثياب خشنة من الكتان تستعمل في العراق ، تكون مثل شراع السفينة تعلق في سقف البيت ويعمل لها حبل منها تجر به ، وتبل بالماء وترش بماء الورد ، فاذا أراد الرجل النوم جذب حبلها فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذىٰ الحر ويستطاب معه النوم) ثم أنشد أيضاً أبياتاً في «حابول النخل» (وهو الحبل الذي يصعد بـه النخل ويتخذ من اللحاء وهو ليف النخل ولذلك جعله منتسباً الىٰ أم وهي النخلة :

ومنتسب إلىٰ أمٍ
تنشّا أصله منها
يعانقها وقد كانت
نفته برهةً عنها
به يتوصل الجاني
ولا يُلحىٰ ولاينهىٰ

ثم راح يلغز في «الومأموم به عرف الإمامُ
كما باهتْ بصحبته الكرام
له إذ يرتوي طيشان صادٍ
ويسكن حين يعروه الأوام
ويذري حين يستسعىٰ دموعاً
يرقن كما يروق الإبتسام

ثم راح يلغز في «الميل» المستعمل لتكحيل العين ، ثم في «الدولاب» (اي: الناعور) فلما إنتهىٰ من أمثلته الخمسة هذه ، طالب أن يأتي القوم بخمسة مثلها .. وحاول القوم لكنهم عجزوا ، وطالبوه بإتمام ألغازه حتىٰ تكون عشراً ، ففرح لذلك ، فأنشد أبياتاً في «المزملة» (وهي الجرة أو الخابية الخضراء في وسطها ثقب مركب فيه قصبة من

فضة أو رصاص ليشرب منها ، سميت بذلك لأنها تزمل ، أي تلف بشيء من الخيش تكون في دورهم أيام الصيف يبرد الماء ثم يصب فيها مصفىً بارداً ، ثم أنشد ملغزاً في «الظفر» ثم في «حَلَب الكرم: اي الخمرة» ثم في «الطيار» (وهو معيار الذهب لأنه على شكل الطائر) .

وهكذا سحرهم ببيابه وألغازه وأشعاره ، فلما رآهم حائرون ومندهشون دعاهم الى استخراج المستور أو الاستسلام مثل الجهلاء ، فإعترفوا له بأنه أتى بالصعب وما لا يفطن له من الكلام ، وإنه استطاع أن ينصب لهم الشباك فيصطادهم ، وطلبوا منه أن يتحكم كيف يشاء لنيل المغانم والشهرة ، ففرض على كل لغز عجزوا عن حله نقوداً تدفع فوراً ، فجمع منهم النقود ، بعد أن حل لهم الالغاز وفسرها .. وقبل ان يهم بالمغادرة طلب القوم منه أن يعرف بنفسه ونسبه ، فراح يتحدث عن (سروج) كونها مطلع شمسه ، وربع هواه وأنسه ، وإنه إضطر لمغادرتها والحرمان من نعيمها ، مغترباً بين البلدان ، يبحث عن رزقه ومورد عيشه ، فحاول القوم اغراءه بالبقاء .. لكنه غادرهم دون أن تؤثر به الوعود ، والترغيب .

المقامة الثالثة والاربعون
البكرية

«حكىٰ الحارث بن همام قال هفا بي البين المطوح ، والسَّيْرُ المبَرح ، الىٰ أرض يضل بها الخِرّيت ، وتَفْرَقُ فيها المصاليتُ ، فوجدت مايجد الحائر الوحيد ورأيت ماكنتُ منه أحيدُ ، الا إني شجعتُ قلبي المزؤُود ، ونَسَأتُ نضويَ المجهودَ ، وسِرت سير الضارب بقدحين ، المستسلم للحين..»

دفع الفراق والسفر بالحارث بن همام الىٰ أرض بعيدة يضيع فيها الدليل العارف والشجاع المقدام ،فوجد مايحير عقله ،ورأىٰ ماكان منه يبتعد ،ويتجنبه..لكنه شجع قلبه المذعور ،وساق جمله المهزول ،فسارحذراً ،ولم يزل في تردده مجتازاً المسافات ، حتىٰ كادت الشمس تغيب ، فلم يدر هل يتوقف فيمنع دابته عن السير أم يستمر ، وبينما هو يفكر ، فاذا به يلمح شبح جملٍ مستتر بجبل ، فتمنىٰ أن تكون ناقة رجل مستريح ، فتوجه إليه ، فاذا هو كما ظن .. إذ وجد شخصاً ملتفاً بكسائه المخطط ، وهو نائم.. فجلس عند رأسه ، حتىٰ هب من نومه ، فلما فتح عينيه وأحس بمن فاجأه نفر وتباعد فزعاً خائفاً ، متسائلاً: أخوك ام الذيب؟ (وهو مثل يضرب في الارتياب والشك بالشيء) بمعنىٰ: صديق أم عدو .

فاجاب: خابط ليل ضل المسلك (أي انه يسير ليلاً ولا يدري اين يتوجه ، فقد أضاع الطريق) فقال له: إسألني أخبرك .

فطمأنه ، إذ ربَّ أخ لك تلده أمك ، فذهب قلق الحارث وذهبت مخاوفه وأحس بالنعاس فنام مطمئناً ، بعد أن إتفقا علىٰ مواصلة السير سوية ، ليمضيا معاً بقية

الليل ،.. ولما إتضح الصباح عرف الحارث رفيق رحلته وسمير ليلته ، فاذا هو أبو زيد السروجي ، مطلب الناشد ومعلم الراشد ، فتبادلا تحية الصديقين المحبين إذ إلتقيا بعد فراق ، ثم تحدثا طويلاً ، فتبادلا الأسرار والأخبار ،.. وبعير الحارث يـزفر من التعب ، أما راحلة السروجي فتمشي على عجلة ، فأعجب الحارث بقـوتها وإمتـداد صبرها ، فراح يمعن النظر في خلقها، ويسأل السروجي من أين اختارها فقال ابو زيد ان لهذه الناقة خبراً حلواً ، وحفزه بأن يحكيه له ، فأنصت الحارث بشغف، فحدثه ابو زيد انها عرضت عليه لشرائها في حضرموت. وكابد وعانى في تحصيلها ، ومازال يجوب البلدان ، معتادة على السفر الطويل لايلحقها التعب ، ولا توازيها ناقة في السير ، وهي ناقة معافاة ، فأعدها أبو زيد للخير والشر ، وأنزلها منه محل البار السار ، لكنها هربت منه ، منذ مدة ، وكان ماله سواها ناقة ، فأستشعر الأسف ، ولازمه الحزن ، وخاف الموت فنسي كل مصيبة مرت به قبل ذلك ، فمكث ثلاثة أيام لايستطيع السبر ولايذوق طعاماً أو يهنأ بمنام الا قليلاً ، ثم أخذ يتتبع الطرق ويفتش مواضع سروح الإبل ، ومواضع بروكها ، وهو لايستثني مكاناً الا وبحث فيه عنها.. بدون يأس ، وكلما تذكر صفاتها وشمائلها في السرعة وكأنها تسابق الطير ، يشعر باللوعة والأسى ، وبينما هو جوار بيوت مجتمعة عند بعض القبائل إذ سمع من شخص بعيد ، منعـزل ، نداءً يقول : من فقد مطية حضرمية سهلة ولاتحرك راكبها ، جلدها فيه علامة ، ونعلها فيه نتوء في موضع الأخمص تزين الماشية ، وتعين الناشية (اي الجارية حديثة السن) ، وتقطع المسافة النائية ، وتظل أبداً لك مدانية (مقاربة) ، لايتداولها الفتور والضعف ، ولايعترضها الوجع ، ولاتحتاج الى العصا ، ولاتعصي في من عصى ..

قال ابو زيد : فجذبني الصـوت الى الصائت ، وبشرني بـدرك الفائت ، فـذهب السروجي الى المنادي وسلم عليه ، وقال له سلم المطية وتسلم العطية (اي الهدية) فسأله: وما مطيته ، وراح ابو زيد يصفها وصفاً جميلاً لاأروع منه كونها: ناقة جثتها كالهضبة ، وذروتها كالقبة ، وحلبها ملء العلبة،..

ووعده ابو زيد ان يعطيه عشرين ديناراً في مدينة «يبرين» (وهي من بلاد العواصم بين اليمامة والبحرين) ثم استزاد العطية، وعلم بأن المنادي أخطأ، فحاول ان يبتعد عن السروجي حين علم رغبته، وأنكر عليه إمتلاكه لتلك الناقة، فأصر السروجي على تكذيبه، وهم بتمزيق ثيابه وهو يتشابك معه، لكن الرجل لم يغيرّ رأيه، بل أصر على ان المطية ليست بطلب السروجي، وان لم يكف عن ذلك، سيشكوه الى قاضي الحي، فأن

أوجبها له فليأخذها، وان منعها عنه فلا يحق لأبي زيد ان يتكلم، فذهبا مسرعين الى القاضي وكان شيخاً وقوراً متواضعاً، وقد وضع عمامته على رأسه بهدوء، فراح السروجي يتظلم ويتألم، وصاحبه ساكت لا يحرك فاه للكلام، حتىٰ اذا انتهىٰ السروجي من كلامه أبرز الرجل نعلاً ثقيلة الوزن، معدة للطريق الغليظة، وقال: هذه التي عرفت، إياها وصفت.. فإن كانت هي التي أعطي بها عشرين، وها هو من المبصرين فقد كذب في دعواه، بمعنىٰ إنه يبصر ويرىٰ عياناً ان النعل ليست ذات قيمة، ليدفع بها عشرون، فان كان يدعي ذلك مع علمه ان مثلها لا يساوي هذا القدر، فهو كاذب، أو المعنىٰ ان هذه النعل الثقيلة لو صفع بها إنسان صفعة واحدة لعمي، وهذا يقول إنه صفع بها عشرين وهو كما ترونه من المبصرين، فهذا دليل على كذبه في دعواه..

فقال الحكم: اللهم غفراً..، وجعل يقلب النعل ظهراً وبطناً، ثم قال: أما هذه النعل فنعلي، وأما مطيتك ففي رحلي، فأنهض لتسلم ناقتك وإفعل الخير، فقام أبو زيد وشكر الحكم بأبيات شعرية، فأجاب الحكم بأبيات ذات موعظة، يؤكد فيها عدم وجوب الشكر على الواجب، وان شر الناس مَنْ اذا وضع في مقام القضاء والعدل ظلم، او من إسترعىٰ وضع ليرعىٰ جماعة، فلم يرعَ الحُرم... ثم أن الحكم أمر من يجلب الناقة لأبي زيد دون منة او فضل او طلب لأحسان.. ففرح السروجي بعد ان قضىٰ حاجته..

استأنس الحارث هذه الحكاية، وطرافتها.. وطلب من السروجي مزيداً من سحر بلاغته وحسن لفظه، فراح ابو زيد يروي له، انه قرر حين ذهب الى تهامة ان يتخذ زوجة له تعينه، فحين أوشكت الخطبة أن تتم، تردد أبو زيد خائفاً من الغلط في إختيار النساء، وبات ليلته يناجي قلبه المعذب، ويقلب العزم المذبذب المضطرب حتىٰ عزم على الخروج وقت السحر، ليشاور أول من يبصر فلما إنتهى الليل بادر للخروج منذ أول النهار، كمن يطلب الضالة، فألتقىٰ بفتىٰ يافع وصبوح الوجه يشفع جماله لصاحبه حتىٰ اذا أخطأ.. فتفاءل ابو زيد بأطلالته البهيجة، وإستضاء برأيه في موضوع الزواج، فقال له الفتىٰ: أو تبغيها عواناً (أي متوسطة الحال ليست بكراً صغيرة ولا عجوزاً كبيرة)، أم بكراً تعاني..

فقال له السروجي: إختر لي ما ترىٰ فقد فوضتك أمري.

وقال له الفتىٰ: إليَّ التبيين، وعليك التعيين،

وراح يقدم له مواصفات النساء ، فالبكر هي: الدرة المخزونة لحسنها وشرفها ، وهي كالبيضة المكنونة (المخبأة المستورة) ، والباكورة الجنية (أي: أول ثمرة الشجرة

وجنيها الناضج) ، التي لم تذبل ، والسلامة الهنية (اي الخمر ماسال من العنب من غير عصر ، كناية عن كونها لم تلمس) وهي كالروضة الأنف ، والطوق الذي ثمن وشرف لم يدنسها لامس ولا إستغشاها لابس.. (اي الزوج) ، ولا مارسها عابث ولا وكسها طامث (أي نقص قيمتها) . ولها الوجه الحي ، والطرف الخفي ، واللسان العيي ، (يعني الذي لاسلاطة فيه) ، والقلب النقي ..ثم هي الدمية الملاعبة واللعبة المداعبة ، والغزالة المغازلة (الممازحة) ، والملحة الكاملة ، والوشاح الطاهر (القشيب، الجديد،..) والضجيع الذي يشب ولا يشيب (أي يجعلك شاباً ولايشيبك) .

وهكذا يأتي الفتىٰ علىٰ وصف المرأة العذراء البكر ، ثم يبدأ بوصف المرأة الثيب (أي المنقادة) فهي الخبيرة العالمة او المؤنسة والمجالسة والمدبرة ، الفطنة ، المختبرة .. خدمتها مزينة ، وعقلتها هينة ، وعريكتها لينة،.. الخ فخيره الفتىٰ ان يختار بين الأثنتين.. فأعجب ابو زيد بهذا الفتىٰ ، وقال له سمعت ان البكر أشد حباً وأقل خداعاً ومكراً ، فقال لعمري لقد قيل هذا ولكن كم قولٍ آذىٰ ، وراح الفتىٰ يصف البكر وصفاً آخر مختلفاً عن مدحه لها ، فقال: أما هي المهرة الأبية العنان ، والمطية البطية الإذعان ، والزندة المتعسرة الإقتداح ، والقلعة المستصعبة الإفتتاح ، ثم أن مؤونتها كثيرة ، ومعونتها يسيرة ، وعشرتها صلفة ، ودالتها مكلفة ويدها خرقاء ، وفتنتها صماء ، وعريكتها خشناء وليلتها ليلاء ، وفي رياضتها عناء ، وعلىٰ خبرتها غشاء ، وطالما أخزت المنازل وفركت المغازل وأحنقت الهازل ، ثم انها التي تقول أنا البس وأجلس فأطلب من يطلق ويحبس.. فسأله السروجي: فما ترىٰ في الثيب ياأبا الطيب؟ فقال: ويحك أترغب في فضالة الماكل وثمالة المناهل واللباس المستبذل والوعاء المستعمل.. وهكذا راح يأتي بالأوصاف القبيحة غير المستحبة في المرأة المتزوجة سابقاً ..

وحين سأله السروجي هل يرىٰ بأن يترهب؟ فأنتهره الفتىٰ ووبخه إنتهار المؤدب عند زلة اللسان ، وأكد له بان لارهبانية في الاسلام ، وأكد عليه بأن القرينة الصالحة ، تصلح البيت وتلبي الصوت وتفض الطرف وتطيب العرف ، وبها ترىٰ قرة عينيك وريحانة أنفك وفرحة قلبك وخلد ذكرك وتعلة يومك وغدك .

وهكذا شجعه علىٰ الزواج ، وصورله متعة المتأهلين وشرعة المحصنين ومجلبة المال والبنين، ثم إبتعد عنه مغضباً ، وتركه حائراً، وحين سأله ان ينتظر لأنه تركه في حيرة ، قال له الصبي إنك لتدعي الحيرة ، لتستغني عن المهيرة ، وهي الحرة الغالية المهر ،..

فتركه السروجي ، وأقسم الا يشاور الصبيان .

قال الحارث للسروجي ، أقسم بمن أنبت الأيك ، ان الجدل منك وإليك ، بمعنىٰ ان هـذه القصة ومـادار فيها من حـوار ، لهو من صنـاعتك ونتـاج مخيلتك فضحـك السروجي ، وقال للحارث: الق العسل ولاتسل .

ثم راح الحارث يمتدح الأدب ويتعصب له ، فأنشد عليه السروجي بعض الأبيات تأكيداً بأن الادب لايشبع الجوعان ، ثم مضيا في طريقهما حتىٰ بلغا النزل ، وموضع الإبل ، فلقيا غلاماً لم يبلغ الرشد فحياه أبو زيد تحية المسلم وسأله وقفة المفهم ، سائلاً: أيباع ها هنا الرطب بالخطب ، وانبلح بالملح ، والثمر بالسمر ، والعصائد بالقصائد ، والثرائد بالفرائد ، والدقيق بالمعنىٰ الدقيق.. فنفىٰ الصبي ذلك فأرتاح ابو زيد ، لكن الفتىٰ عرف ان هذا الشيخ شويطين فتعرف علىٰ فنه وقال له خذ الجواب شاملاً: أما بهذا المكان فلا يشترىٰ الشعر بشعيرةٍ، ولا النثر بنثارةٍ ، ولا القصص بقصاصه ، ولا الرسالة بغسالةٍ ولا حكيم لقمان بلقمةٍ ، ولا أخبار الملاحم بلحمةٍ ، وأما جيل هذا الزمان فما منهم من يميح (يعطي) إذا صيغ له المديح ، ولا من يجيز اذا أنشد له الأراجيز ، ولا من يغيث إذا أطربه الحديث ، ولا من يمير ولو إنه أمير ، وعندهم ان مثل الأديب كالربع الجديب ، وان الأدب لاقيمة له ان لم يفصده مال ، وهكذا علم أبو زيد الحارث بأن الأدب قد بار ، وولت أنصاره الأدبار.. وطلب منه أن يخوضا في حديث القصاع ، لأن الأسجاع لاتشبع من جاع ،.. فطلب منه أن يأخذ سيفه ليرهنه ويأتي بالطعام.. فما لبث أن ركب الناقة ورفض الصدق والصداقة ، فمكث الحارث ينتظره طويلاً ، ثم نهض يتعقبه فلم يَرَله أثراً، فكان الحارث كمن ضيع اللبن في الصيف، فلم يلقه ولا السيف .

المقامة الرابعة والاربعون
الشتوية

«حكى الحارث بن همام قال عشوتُ في ليلة داجية الظلم، فاحمة اللمم ، الى نار تضرم على علم، وتخبر عن كرم، وكانت ليلة جوها مقرور، وجيبها مزرور، ونجمها مغموم وغيمها مركوم، وانا فيها اصرد من عين الحرباء والعنز الجرباء..»

قصد الحارث بن همام في ليلة باردة غائمة مظلمة، ناراً بعيدة مشتعلة تخبر عن كرم اصحابها، وكان الحارث بردانا، فلم يزل يحث ناقته ويطيب نفسه حتى اوشك الوصول الى المكان حين ابصر شخصاً تبين اسراعه في السير منحدراً من الجبل ينشد مرتجزاً ، يحيي هذا المسافر ليلاً، حيث اهداه ضوء النار الى رحيب الباع (الواسع العطاء: كرماً)، رحب الدار.. مرحب بالطارق الطالب الطعام القليل، ترحاب البخيل (جعد الكف بالدينار)، ليس بمائل ولا بمزور عن الضيوف، ولابيطيء متأخر اذا بخلت نجوم المطر، فهو على بؤس الزمان القاسي مضيافاً (جم الرماد)، لم يخل بيته ليل نهار من نحر النوق السمينة، واشتعال النار.. اعلاناً عن الضيافة والكرم

فالتقى الحارث وجهاً انيساً مرحباً وصافحه بأريحية، واقتاده الى بيت مليء بالنوق الحوامل، والجواري تجيء وتذهب لخدمة الضيوف، وموائده تدور، وبزوايا البيت واركانه اضياف قد اوصلهم نفس الشخص واجلسهم هنا، وهم يشربون ويمرحون ويطربون، وهم منتشون جداً.. فأخذ الحارث مكانه بينهم وراح يجاريهم، اذ ارتاح لهم وتعلق بهم ولعاً.. وحين اخذ قسطاً من الراحة، قدمت له

وللضيوف موائد اخرى كالهالات دوراً والروضات نوراً وقد امتلأت بأطيب الاطعمة، فأكلوا حد الشبع واكثر، ثم جلسوا مجلس السمر وقد اخذ كل منهم ماعنده من الملح والطرف والاخبار والالغاز، ماعدا الشيخ الذي غمر المشيب فوديه، وكان مرتدياً ملابس رثة، وجلس مبتعداً عن الجميع.. فأغاضهم ابتعاده وازعجهم، الا انهم احسنوا له القول، وترددوا خشية الاكثار في الكلام معه، اذ كلما رغبوا ان يفحص القول كما فعلوا، ابتعد عنهم مترفعاً، أنفةً وكبرياء، ثم.. قال لهم: عندي اعاجيب ارويها بلا كذب عن العيان والمشاهدة،..

حتى وصفوا هذا الشيخ بأبي العجب، اذ راح يلقي ابيات شعر، فيها الملغز من المعاني والكنايات كقوله: «بول العجوز» كناية عن (لبن البقرة)، والعجوز، ايضاً ، من اسماء الخمرة، كقوله: رأيت ياقوم اقواماً غذاؤهم/ بول العجوز وماعني بى العنب..

وكيف رأى مجدبين ممن اصابهم القحط، وهم (يشتوون خرقة): (والخرقة، هنا ،.. بمعنى قطعة من الجراد)

واستمر يلقي بأبيات الشعر من قصيدة بائية تحتوي على كلمات لها معان هي غير ظاهرة مثل: (قادرين) وهم هنا (الطباخون) و (القادر هو الطابخ في القدر، والقدير: المطبوخ فيها)

- وكاتبين وما خطت انا ملهم حرفاً

ولا قرأوا ماخط في الكتب (والكاتبون، هنا هم: الخرافون)

- وتابعين عقاباً في مسيرهم

(والعقاب هنا هو الراية، وكانت راية النبي (ص) تسمى العقاب.)

- ومنتدين ذوي نبل بدت لهم

نبيلة فأنثنوا منها الى الهرب

(والنبيلة، هنا هي: الجيفة.. ومنه: (تنبل) البعير، اذا مات)

- ونسوة بعدما اولجن من حلب

صحبن كاظمة من غير ماتعب

(وكاظمة هنا من كظم الغيظ، وليست المكان)

- ومدلجين سروا من ارض كاظمة

فأصبحوا حين لاح الصبح في حلب

(وفي حلب، هنا: بمعنى اصبحوا يحلبون اللبن!)

وهكذا (شجار بين السبب: فالشجار، هي المظلمة والسبب: الحبل) و (غبيراء): يعني الخمرة، و (مفعول): يعني العطشان و (المأسور) بمعنى الذي يجد الاسر، وهو احتباس البول.

و (حائكاً): والحائك، هنا هو الذي مشى، حرك منكبيه وفجج بين ركبتيه!

وهكذا سحرهم ببلاغته وعجائبه من ملح الكلام، فراحوا يفكرون في الشعر الذي قاله وتأويله وتفسير ماعرض به من الكلام الخفي، وهو يلهو بهم ويسخر حين عجزوا عن فك تلك الالغاز، وعلموا ان هذا الشيخ ممن يرغب في (الشكم): اي العطاء على سبيل المجازاة،

وحين وجد المضيف مقدار الحرج في وضع ضيوفه، جلب للشيخ ناقة عيدية وحلة سعيدية، وقال له: خذهما حلالاً، ولاتزر اضيافي زبالاً،

فقال الشيخ: اشهد انها شنشنة اخزمية، واريحية حاتمية..

ثم قابلهم بوجه طليق بشوش، ودعاهم الى النوم ليصبحوا نشطين، وكي يعوا تفسير المتعسر، فارتاح الجميع للفكرة، وناموا.. ولما ثقلت اجفانهم وثب الشيخ الى الناقة فرحلها ثم ارتحلها.. وغادر المكان وهو ينشد ابياتاً تدلل على هدفه ومقصده وهي مدينة (سروج) فعلم الحارث ان هذا الشيخ ليس سوى ابا زيد السروجي، فأخبر القوم بأمره فنسوا ماخبث منه بما طاب، ثم تفرقوا في كل اتجاه وطريق.. وهم اصحاب..

المقامة الخامسة والاربعون
الرملية

«حكى الحارث بن همام قال كنت اخذت عن اولي التجاريب ان السفر مرآة الاعاجيب، فلم ازل اجوب كل تنوفة، واقتحم كل مخوفة، حتى اجتلبت كل اطروفة، فمن احسن مالمحته، واغرب إستملحقه ان حضرت قاضي الرملة، وكان من ارباب الدولة والصولة..»

اخذ الحارث بن همام حكمة ذوي الخبرة التي تقول بأن السفر مرآة العجب وراح يجوب البلدان ، غير خائف ولامبال بالصعوبات والاهوال، كي يحصل على المعرفة ويجمع الطرائف والملح..

ومن اجمل واحسن واغرب ماستملحه، انه حضر يوماً مجلس قاضي بلدة الرملة (وهي من مدن الشام)، وكان من ذوي الجاه والسلطة، وحل في مجلسه شيخ رث الثياب، وان ظهرت عليها سمات الجمال،..

وحين حاول الشيخ الكلام، واظهار المطلوب، والافصاح عنه، منعته فتاة من ذلك اذ القت وشاحها جانباً، وانشدت بلسان فصيح وبجراأة، بعض ابيات الشعر شكت فيها زوجها لانه لم يحج الى بيت الله سوى مرة، ولم يكمل العمرة بعد الحجة، ولكونها لم تعص له امراً، لكنها لاتستطيع ان تعصي امر الله، لذا فهي تطالب بالافتراق عنه او الطلاق منه، بعد ان اطاع الشيطان، ولم يطع ربه.

فقال القاضي منبهاً الشيخ بما نسبته الفتاة اليه وتوعدته عليه، ونصحه بالابتعاد عما يعيبه، وحذره من ان يبغض امرأته.. فجلس الشيخ على ركبه وراح يلقي بكلماته شعراً، ايضاً، شاكياً حال الدنيا معه، وعارضاً فقره وجوعه، وكان

مطيعاً لله، لكن الفقر دفعه الى ارتكاب المعاصي فابتعد عن زوجته لارغبة منه في ذلك، ولكن اتقاء الانجاب، لكونه معدماً ولايستطيع ان يعيل طفله..

قال الحارث فأنفعلت المرأة من قول الشيخ، واظهرت الحجج للرد عليه ومجادلته، شاتمة اياه، واصفة اياه بأنه احمق لايطعم ولايقاتل، فهل يضيق بالولد ذرعاً ولكل واحد رزقه، وراحت تسفه اقواله كونه سفه نفسه لذا اصبحت شقية وتعيسة بسبب اهماله لنفسه ولعائلته.

فقال لها القاضي: اما انت فلو جادلت الخنساء لانثنت عنك خرساء، واما هو فإن كان صدقه في محله ودعوى عدمه وفقره، فله في هم بطنه مايشغله من ولده، فأطرقت المرأة تنظر من زاوية عينيها، غير مرتاحة، وهي لاتجيب حتى اعتقد الحارث والقوم بأنها استحت وخجلت اوحل بها الفوز المقصود..

وقال لها الشيخ: تعساً لك ان زخرفت وزينت قولك، او كتمت ماعرفت فقالت ويحك، وهل بعد المنافرة كتم، او بقي لنا على سرختم وما فينا الا من صدق، وهتك صونه اذ نطق، وتمنت لو لاقت البكم، ولم تلق الحكم او القاضي.. ثم التفت بوشاحها وتباكت لفضيحتها فجعلت القاضي مندهشاً من امرها يلوم الدهر ويؤنبه.. ثم احضر من الدراهم الفين وقال ارضيا بهما، وابتعدا عن الخصام بين الالفين، فشكراه على حسن التصرف والصرف، وإنطلقا وهما كالماء والراح، مؤتلفين..

واطرق القاضي، بعد انصرافهما وابتعادهما يثني على ادبهما، ويتساءل عمن يعرفهما، فقال له عينُ اعوانه: اما الشيخ فهو السروجي المشهود بفضله، واما المرأة فهي زوجه، واما تحاكمهما فحيلة ومكيدة من فعله، واحبولة من حبائل خدعه وغدره، فانزعج القاضي مما سمع وغضب كيف خدع، ثم قال للواشي بهما: مم فردهما، واتبعهما لتعيدهما،.. فنهض.. وعاد بعد حين يضرب التراب عن ملابسه، فسأله القاضي ان يحدثه عن سرهما، فقال الرجل انه تبعهما حتى ادركهما خارجين الى الصحراء، وقد ركبا ناقتهما، وحاول ان يغريهما بالمال والعطايا وتعهد لهما بتحقيق وتنفيذ كل مايرغبان ان هما عادا معه، لكن الشيخ رفض وفضل الفرار، أماهي ففضلت العود، فلما تبين الشيخ خطأ رأيها امسك بأذيال ثوبها وانشد لها ناصحاً، ومنه قوله:

طيري متى نقرت من نخلة

وطليقها بتة بتله

(بتة بَتْلَه: اي الطلاق الذي لارجعة فيه..)

ثم قال للرجل: لقد عملت ما امرت به فارجع من حيث جئت وقل لمرسلك ان شئت:

رويدك لاتعقب جميلك بالاذى

فتضحي وشمل المال والحمد منصدع

حتى قوله: وان تكَ قد ساءتك مني خديعة

فقبلك شيخ الاشعريين قد خدع

فقال القاضي: قاتله الله فما احسن شجونه واصلح فنونه، ثم انه اعطى لرائده بردين (ثوبين) صرةً من الذهب والفضة، وامره بأن يلحق بالشيخ وزوجه ويبل يديهما بهذا الحباء وليُبن لهما للادباء!

المقامة السادسة والاربعون
الحلبية

«روى الحارث بن همام قال نزع بي الى حلب شوق غلب، وطلب ياله من طلب، وكنت يومئذ خفيف الحاذ، حثيث النفاذ، فأخذت اهبة السير، وخففت نحوها خفوف الطير، ولم ازل مذ حللت ربوعها، وارتبعت ربيعها افاني الايام في ما يشفي الغرام، ويروي الاوام، الى ان اقصر القلب عن ولوعه، واستطار غراب البين بعد وقوعه..»

اشتاق الحارث بن همام لزيارة حلب، وكان يومذاك لامال له ولا ولد، كما كان سريع البت في اموره واتخاذ قراره، فهيأ نفسه للسفر سريعاً، ونفذ ذلك حتى وصل حلب.. فأمضى الربيع كله ، وهو يمضي الايام بالانس والافراح وبكل مايزيل اللوعة والهم عن الفؤاد، وليروي ظمأه من المتعة واللذة، حتى اكتفى.. فالح عليه فراقها، وحثه صفاء باله ومرحه الحلو بأن يقصد حمص ليصطاف ببقعتها وليتعرف على اهلها، فأسرع اليها،.. وحين وصلها وحل بها راح يَتمتع بطيب نسيمها، وعذوبة مناخها، آنذاك لمح شيخاً هرماً وعنده عشرة صبيان، فذهب الحارث اليه، ليعرفه بأدباء حمص فرحب وحياه بأحسن تحية، وجلس قربه ليستمع جميل كلامه وبلاغته، او ليتعرف على ثمرة منطقة، وسر حمقه، فلم يلبث ان اشار بعصاه الى اكبر صبيته، وطلب منه ان ينشد (الابيات العواطل):
(والابيات العواطل، هي التي لاتوجد في كلماتها نقط..)، وحذره ان يماطل فجلس الفتى على ركبتيه كالليث وانشد من غير تردد:

اعدد لحسادك حد السلاح

واورد الآمل ورِدَ السماح

وصارم اللهو ووصل المها

وأعمِل الكُوَم وسمر الرماح

الى آخر القصيدة الحكمية الوعظية الخالية من النقاط.

ثم دعا الشيخ صبياً آخر وطلب اليه ان يقول (الابيات العرائس) اي تلك المنقوطة:

فبرى القلم، وقسط، ثم احتجز اللوح وخط:

فتنتني فَجننَتني تجني

بتجن يفتن غب تجني

(وتجني: الاولى، هنا هي اسم امرأة)

واستمر يخط الابيات التي كل حروف كلماتها منقوطة.. فلما نظر الشيخ الى ما كتبه وتصفح ما انجزه، اثنى عليه، ثم دعا (قطرب) فإقترب منه يحكي نجم دجية او تمثال دمية (أي انه مثل النجم الساطع في الليلة الداكنة، او مثل تمثال جميل)

وقال له الشيخ: ارقم (الابيات الاضياف) وتجنب الخلاف (ويقصد هنا ذوات الكلمتين احدهما منقوطة والاخرى بغير نقط، فراح الفتى يكتب:

اسمح فبث السماح زين

ولاتخب آملاً تضيف

ولاتجز رد ذي سؤال

فنن أم في السؤال خَفَّفْ

وهكذا أكمل الفتىٰ قصيدته كما أمره الشيخ ، فقال له: لاشلت يداك ، ولاكلت مُدَاك ، ثم نادىٰ علىٰ صبي آخر إسمه «عشمشم» فلبىٰ نداءه غلام جميل فأمره الشيخ ان يكتب «الأبيات المتائم» (اي الأبيات المتماثلة لان كل لفظين منها تجنسان تجنيساً خطياً ، وهي جمع متآم اي المرأة التي تأتي في كل مرة إذا ولدت بتو أمين) فكتب الفتىٰ:

زُنِيَّتْ زينبُ بقدٍ يَقُدُّ

وتَلَاهُ ويَلَاهُ نهدُ يَهُدُّ

جندها جيدها وظرفُ وطرف
ناعسُ تاعسُ بحدٍ يحُدُّ
قدرها قدزها وتاهت وباهت
واعتدت واغتدت بخدٍ يخدُّ

الىٰ آخر القصيدة ، الشيخ ماكتبه الصبي وتأمله فاستحسن خطه واستصح ضصبطه ، قال له: لاشك عشرُك ولا إسنحبث نشرك ثم أهاب بفتىٰ فتان يسفر عن أزهار بستان ، فقال له أنشد البيتين المطرفين (المشتبهي الطرفين اللذين اسكتا كل نافت ، وأمنا أن يعززا بثالث) فأنشد:

سِمْ سَمةً تحسُنُ آثارُها
وأشكر لمن اعطىٰ ولو سمسمةْ
والمكر مهما اسطعت لاتأته
لتقتني السؤدد والمكرمةْ

وهكذا أمر صبياً اخر بايضاح مايشكل من ذوات السين ، ففعل شعراً ، وطلب من آخر أن يبين الصادات المكتسبة (اي المختلطة التي تلتبس بالسين) ففعل وطلب من ثالث أن يبين له ما عقدُ هجاءِ الأفعال التي آخرها حرف إعتلال ، فكتبها شعراً أيضاً .. فطرب الشيخ لما أداه ثم عوذه وفداه ، فطلب من آخر ان يكتب بتمييز الظاء من الضاد ، فأنشد بصوت أجش أبياتاً احتوت علىٰ الكلمات التي فيها ظاء ، فاستحسن فعله الشيخ ، ومدحه واثنىٰ عليه وعلىٰ رفقته الذين ثقفهم تثقيف العوالي ، وطلب أن يذكروه ويشكروا له ولا يكفرون ..

قال الحارث ، فعجب لما أبدىٰ من براعة معجونة برقاًعةٍ (أي بقلة الحياء) وراح الحارث يتفحصه وينظر إليه ملياً ، فلما إنتبه إليه الشيخ ، نظر إليه وابتسم فقال له: لم يبق من يتوسم (اي ينظر ويتأمل) ،، فبهت الحارث لفحوىٰ كلامه ووجده أبا زيد عند ابتسامه ، فلامه الحارث لأنه اختار حرفة الحمقىٰ ، فأجابه السروجي بأبيات من الشعر ، ثم بكلام يمتدح فيه حرفة التعليم كونها أشرف صناعة (مهنة) وأربح بضاعة ، لكن من يمارسها يخرف في أمد يسير ، وتكون أفعاله مثل أفعال الأطفال ..

فقال الحارث مادحاً إياه بكونه إبن الأيام ، وعلم الاعلام والساحر اللاعب

بالإفهام المذلل له سبل الكلام ..

ثم ظل الحارث مقيماً بمجلسه ، مستفيداً من معارف الشيخ وعلومه ، الى ان غابت أيام العز ، وغابت الأحداث الغبر ، ففارقه، وهو دامع العينين .

المقامة السابعة والأربعون
الحجرية

«لاحكىٰ الحارث بن همام قال احتجت الى الحجامة ، وأنا بحجر اليمامة ، فأرشدت الى شيخ يحجم بلطافةٍ ، ويسفر عن نظافة ، فبعثت غلامي لإحضاره وأرصدت نفسي لإنتظاره ، فأبطأ بعدما إنطلق ، حتىٰ خلته قد أبَقَ ، أو ركب طبقاً عن طبق ..»

حين كان الحارث بن همام في مدينة اليمامة (وهي بلاد الزباء والزرقاء ومنها ظهر مسيلمة الكذاب ، وبها أدعىٰ النبوة ، وهو من بني حنيفة وهم سكانها واليمامة بلدة كثيرة النخيل..) .. فإحتاج الى الحجامة (وهي سحب الدم من الجسم بواسطة التبضيع ، أو الكؤوس التي توضع على جسم المريض أو الشخص في مواضع الألم..) .. فدلوه علىٰ شيخ يحجم بشكل جيد ولطيف ، وبشكل نظيف وصحي ، فأرسل غلامة لإحضاره ، وظل ينتظره فتأخر الغلام حتىٰ ظن الحارث انه هرب أو مات.. لكنه ، عاد ، بعد حين خائباً ، وحين سأله الحارث عن سبب تباطؤه وتأخره وعدم قضائه الحاجة ، رغم ان الشيخ مشغول كمن هو في حرب.. فكر الحارث الذهاب الى الحجام فتحيرَّ في أمره ، لكنه ، أخيراً ، وجد الا لوم علىٰ من يذهب الى مكان حاجته ومجمعه ، فشاهد منظره ، ووسط حشد الناس حلقات حلقات رأي شيخاً نظيف المظهر خفيف الحركة ، وقد وقف بين يديه للحجامة فتىٰ منتصب القامة ، كالسيف . والشيخ يقول له اراك أبرزت رأسك واعطيتني ظهرك قبل ان تعطيني دراهمك ، وتقول هذه لك ، ولست ممن يبيع نقداً بدين ، ولايطلب أثراً بعد عين ، فإن أنت أعطيت الأجور حجمت في «الأخدعين» ، (وهما عرقان في موضع الحجامة) وإن كنت ترىٰ البخل أولىٰ ، وخزن الفلوس في النفوس ، فأقرأ (عبس وتولىٰ) واغرب عني والا..

فقال له الفتىٰ مقسماً بالله الذي حرم الكذب كما حرم صيد الحرام ، بأنه مفلس ولكن تيقن بعطيتي ، وامهلني أتوفر على النقود ، لكن الشيخ رفض تلك الوعود قائلاً: ان الوعود مثل غرس الشجر هو بين أن يدركه العطب والهلاك أو يدرك منه الرطب ، فما يدريني أيحصل من عودك جني ، أم أحصل منه على الضنىٰ والمرض .. ثم ما الثقة بأنك حين تبتعد ستفي بما تعد ، وقد صار الغدر كالتحجيل في حلية هذا الجيل ، (أي ان الغدر أصبح يمتدح كما يمتدح البياض في قوائم الخيول) وطلب الشيخ من الفتىٰ ان يبتعد عنه ويرحل الى أي مكان خال..

لكن الفتىٰ استوىٰ إليه وقد استولىٰ عليه الخجل ، وقال والله ما أخلف الوعد سوىٰ الوغد الخسيس ، ولايرد مستنقع الغدر الا الوضيع القدر ولو عرفت من أنا لما اسمعتني هذا الكلام القاسي ، لكنك جهلت فقلت وحين وجب ان تسجد ، بلت ،.. فما أقبح الغربة والفقر وأحسن قول من قال: إن الغريب الطويل الذيل ممتهن فكيف حال غريب ماله قوتُ لكن الشيخ لم يرحم الفتىٰ ، حتىٰ لو كان ابن بيت فخر ، وحسب ونسب ، فهو هنا ليس في موضع المفاخرة بل جاء ليحجم ظهره ، وحتىٰ لو كان زاد على بيت عبد مناف شرفاً أو عبد المنان مكانة ، (وهما من اشراف قريش وسادة الكعبة واشراف اليمن) فلا فائدة.. وكأن الفتىٰ يضرب في حديد بارد .. وحذره بضرورة ان يتباهىٰ ويفخر بماله لابأجداده ، وبمحصوله لابأصوله ، وبصفاته لابعظام أمواته ، وبنفائسه لابأنسابه ، كما نصحه بالا يطع الطمع فيذله ولايتبع الهوىٰ فيضله ، وراح ينشد له الاشعار التي تحتوي امثال هذه المواعظ ، لكن ميزة هذه الاشعار ان المؤلف لعب على اللغة والوزن ومهارة النظم ، فقدم الكلمتين الأخرتين من كل بيت بنفس الحروف ، ولكن بمعنيين مختلفين كقوله:

بني أستقم فالعود تنمي عروقه قوياً ويغشاهُ اذا ماالتوىٰ التوىٰ (يعني ان العود مادام مستقيماً فهو يسمو ، وعروقه تنمو .. اما اذا اعوج والتوىٰ، اصابه الهلاك والموت) .

وهكذا أردف كلمات اخرىٰ في الابيات الاخرىٰ مثل:

بالطوىٰ طوىٰ

إن اطاع الهوىٰ هوىٰ

الى الحر انضوىٰ ضوىٰ

اذا ما النوىٰ نوىٰ

ما ارعوىٰ عوىٰ

فقال الغلام للجمهور ، ياللعجيبة ، والطرفة الغريبة ، أنف في السماء وأست في الماء ولفظ كالصهباء وفعل كالحصباء (اي انه يجمع النقيضين مثل اللفظ اللذيذ كالخمرة المشوبة وفعل مؤلم كرجم الحصىٰ..)

ثم أقبل علىٰ الشيخ بلسان سليط ، فصيح جاد ، وغيظ مستشيط ، ثم إمتنع عن الكلام وتحفز للقيام ، فأحس الشيخ بأنه آلم الفتىٰ وحرجه ، فحاول تطييب خاطره ، لكن الغلام رفض، وأبىٰ الا المشي بدائه والهرب من لقائه ، ثم دخلا في عراك وسباب وجذب وخصام حتىٰ ضج الفتىٰ وبكىٰ لخسارته وشتمه وفضيحته ، فأخذ الشيخ يعتذر منه دون جدوىٰ ، فتجمع الناس أكثر فأكثر وحاول الشيخ أن يسترضي الفتىٰ دون فائدة ، اذ وقف الغلام امام النـاس وراح يتحدث ببـلاغة عـالية عن عيشتـه المنغصة ، وحالته التي وصل اليها بحيث يتعذر عليه توفير المال للحجام ، ثم فجأة انتبه الى نفسه فأمتنع عن البكاء بعد ان فضح حالته وواقعه.. وقال للشيخ! لقد أردت فضحي ، وحققت ماأردت وحاول ان يغادر المكان لكن الشيخ تشبث به ، وترك عمله ليستجدي الناس ويحفزهم لمساعدة هذا الفتىٰ ، أذ راح الشيخ يشكو حاله كـونه لايملك قوت يومه وعياله ، ولو توفر له ذلك لما أضطر ان يفعل بالفتىٰ مافعل..

وهكذا راح يتحدث الى الناس شاكياً حاله وحال الفتىٰ حتىٰ كسب عطفهم ، فكان الحارث أول من اعطاه درهمين ، ثم راح الناس يمنحونهما العطايا والهبات فجمع الشيخ ماأفرحه وملأكيسه ، وقال للغلام هذا ربح أنت صاحب الفضل فيه ، ودعاه ليقتسم معه النقود .. ثم هم الشيخ بالرواح ، فتابع الحارث ذلك الشيخ وعرف فيه صاحبة السروجي ، من خلال أرجوزته الشعرية التي القاها ، والتي تدلل علىٰ خدعته الذكية ، وماجرىٰ بينه وبين إبنه امام الناس ليجني النقود ، بالحيلة.. فونخه علىٰ عملِهِ الرذيل،.. لكن الشيخ كمن لم يسمع فانطلق هو وإبنه مثل فرسي رهان .

وكان مؤلف المقامات : الحريري ، قد أودع في هذه المقامة بضعة عشر مثلاً من امثال العرب فسرها وأوضح ماإلتبس بها كقوله (بطء فند) مولىٰ عائشة بنت سعد بن ابي وقاص ، وكانت بعثته بالمدينة لتقتبس لها ناراً،فقصد من فوره مصر وأقام بها سنة ، ثم جاءها بعد السنة وهو يشتد ومعه جمر ، فتبدد منه ، فقال: تعست العجلة! وأما قوله له (أنف في السماء وأست في الماء) فهو مثل يضرب لمن يكبر فعالاً .. الخ

المقامة الثامنة والأربعون
الحرامية

«روىٰ الحارث بن همام عن أبي زيد السروجي قال: مازلت مذ رحلت عنسي ، وأرتحلت عن عرسي وغرسي ، أَحِنُّ الى عيان البصرة ، حنين المظلوم الى النصرة ، لما أجمع عليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية من خصائص معالمها وعلمائها ، ومأثر مشاهدها وشهدائها ، وأسال الله ان يوطئني ثراها لأفوزن بمرآها..» .

هذه المقامة هي أول مقامة أنشأها الحريري ، وقال الشيخ زين الدين محمد بن أسعد العراقي ، هذه أول مقامة أنشاها (كتبها) الحريري رحمه الله ، حيث روىٰ الحارث بن همام نقلاً عن أبي زيد السروجي منذ ركب ناقته القوية الصلبة، مسافراً بعيداً عن زوجه وأولاده ، وهو في أشد حالات الحنين الى مشاهدة البصرة ، تماماً مثل شوق وحنين ورغبة المظلوم الى النصرة.. وذلك لما وصله من أخبار طيبة أتفق فيها اصحاب العلوم والمعارف ورواة الأخبار ، عن خصائص هذه المدينة وعن معالمها وعالمها وعلمائها ، وميزات ومأثر مناظرها ومشاهدها ، وميزات شهدائها ومن دفن فيها ..وكان يتمنى ان يراها ويطلع على مناظرها وقراها..فلما تحقق له ذلك راح يتأمل المدينة ، فخرج ذات يوم في آخر الليل يتمشىٰ في أماكنها ويجتاز دواخلها، فوصل به التجوال الى محلة معروفة بالاحترام والتعظيم، منسوبة الى بني حرام (وهي قبيلة معروفة) ، ذات مساجد مشهودة ، وحياض مورودة ومبان وثيقة ، ومنازل أنيقة ، وخصائص أثيرة ومزايا كثيرة .

وأنشد ابياتاً يصف فيها ميزات هذه المحلة وما فيها ماشئت من دين ودنيا وجيران

اختلفوا في المعاني فبعضهم مفتون برنين أوتار العود والغناء وآخر مضطلع بتلخيص الكلام ، وآخر مهتم بتخليص الكلام ، وآخر مهتم بتخليص أسير ، وكم من قارىء فيها ومضيف إنشغلا بالقراءة وبتقديم الطعام للضيف ، وكم من معلم للعلم فيها ومجلس للكرم والعطاء ، وكم منزل غناءٍ لاتـزال أصوات الغنـاء فيه عـالية حيث الغـانيات المنشدات الجميلات .... وهكذا فبينما هـو يتجول في طـرقها ، ويستجـلي جمالهـا وحسنها ، أبصر مسجداً مشتهراً بطرائفه وعجائبه ، ومضيئاً بجماعته ، وقد اجرى أهله ذكر حروف البدل وراموا يتجادلون في ذلك . فجلس معهم مستفيداً من علومهم ، وبعد ان ارتفعت اصوات النقاش والجدل واذا بصوت المؤذن يعلن وقت الصلاة ، ثم تبع التأذين ، بروز الامام ولما قضى الفرض وكاد الجمع ينفض ، وظهر من بين الجماعة كهل حلو الفصاحة ، له مظهر حسن ولسان بليغ ، خاطب القوم ناصحاً واعظا بخطبة عضماء كلها حكم ومواعظ مثل قوله :

إن لبوس الصدق أبهى اللبوس الفاخر

وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الأخرى

وإن الدين إمحاض النصيحة

والارشاد عنوان العقيدة الصحيحة

وان المستشار مؤتمن ، والمسترشد بالنصح جدير ...

حتى يصل الى وصفه لنفسه وكيف كان يعاقر الخمرة ثم تاب وندم وهو يعلن توبته وندمه أمام الناس ، وانشد ابياتاً يطلب فيها تحديد كفارته ليباعد بها ذنبه ويقترب من ربه ..

قال ابو زيد : فلما حل عقدة كلامه ، وقضى حاجته من الشكوى ، ناجتني نفسي ، ياأبا زيد هذه فرصة صيد .

وهكذا شمر ابو زيد ، عن يدٍ وأيدٍ وراح ينشد شعراً يخاطب فيه هـذا الرجـل ، ويضيف له حاله مذ كان في مدينة سروج حتى الوقت الذي احتلها فيه الروم ، واخذوا كل ماكان يملك ، فتاه وتشرد في البلاد يستجدي الناس بعد ان كان هو المجتدى .. وطلب منه أن يُجيرهُ على الزمان ويساعده بالمال ليفك إبنه من يد الأعادي ، وبذلك ينال الرجل الثواب وتنمحي مآثمه وبذلك تقبل الانابة ممن تـزهد ، وتلـك هي كفارة من إنحرف عن طريق الهدى والصواب حتى قال في آخر قصيدته :

فاقبل النصح والهدية

وأشكر لمن هدىٰ

واسمع الآن بالذي

يتسنىٰ.. لتحمدا

ولما أتم ابو زيد كلامه ، وأوهم المسؤول صدق كلامه ، أغراه حب الجود والكرم الىٰ مواساة ابي زيد ، فاعطاه في الحال عطاءً قليلاً ، ووعده بالعطية الوافرة، فعاد ابو زيد الىٰ بيته فرحاً بنجاح مكره وخدعته ، وقد حصل علىٰ ذلك علىٰ سوغ الثريد ، ووصل من حوك القصيدة الى أكل العصيدة . قال له الحارث: سبحان من ابدعك فما اعظم خدعك وأخبث بدعك.. فاستغرق السروجي بالضحك ، وانشد أبياتاً لخص فيها فلسفته في الحياة ، واقتناص الفرص والربح . من خلال الخداع والمكر..

المقامة التاسعة والاربعون

الساسانية

«حكىٰ الحارث بن همام قال بلغني ان أبازيد حين ناهز القبضة، وأبتزه قيد الهرم النهضة، أحضر ابنه، بعد ماستجاش ذهنه ، وقال له يابني انه قد دنا إرتحالي من الفَناء ، وإكتحالي بمرور الفَناء ، وأنت بحمد الله ولي عهدي ، وكبش الكتيبة الساسانية من بعدي، ومثلك لاتقرع له العصا ، ولاينبه بطرق الحصىٰ ..» .

تحدث الحارث بن همام عن ابي زيد السروجي حين بلغ الثالثة والتسعين وسلبه كبر سنه القدرة على القيام والحركة ، فأحضر ابنه ، بعد أن جمع شتات عقله ، وقدح ذهنه ، وراح يوصيه بدنو أجله ، وإنه اصبح ولي عهده ، ورئيس جماعة المكدين من بعده ، وهو الابن المحنك الذي استمد التجربة من أبيه ، وهولا يحتاج الى تنبيه أو تذكير ، لكن طلب منه ان يحفظ وصيته والا يعصي أمره وان يحذو حذوه ويقتدي به ، ويتعرف على نصحه ويستضيء بنور رأيه ، فإن فعل ذلك يزدهر بيته بالمال والخير ، وان تناسىٰ وصيته ، ونبذ مشورته عاش في الضنك والفقر والجوع ، وزهد أهله فيه ولم يحترمه قومه .

وراح السروجي يشير الى ابنه بانه جرب حقائق الأمور ، وتصاريف الدهور فرأىٰ المرء بمالهِ لابنسبه ، وبالبحث عن مكسبه لاعن حسبه ، وكان يسمع ان المعاش إمارة وتجارة وزراعة وصناعة، ولينظر الى من يمارسها وأيها أوفق وأنفع فلم يجد فيها معيشة رغداً وطيبة، أما فرص الولايات وماتحصل عليه بسرعة فهي كالاحلام والرؤيا لاتفسير لها لاختلاطها .

وأما بضائع التجارة فعرضة للمخاطر واطعمة للغارات ، وأما اتخاذ الضياع

والتعرض للزرع فمنهكة ومتعبة ، وقيود عائقة عن السفر والترحال ، وقلما خلا ربها عن إذلال وهي ليست رائجة أو مريحة للقلب .

وأما حرف اولي الصناعات فغير فاضلة من القوت ، ولا نافعة في جميع الاوقات ومعظمها مرتبط بنشاط الانسان وقوته وشبابه ، ولم ير السروجي ماهو طيب المنال لذيذ الطعم وافي المكسب ، صافي المشرب ، الا الحرفة التي وضع لها ساسان أساساً وهي الكدية ، فهي المتجر الذي لايبور والمنهل الذي لاينضب .

وراح السروجي يمتدح ، في وصيته، هذه الحرفة .. فقال له ابنه : يا ابت لقد صدقت فيما نطقت ، ولكنك رتقت ومافتقت (اي أجملت وما فصلت) وطلب من أبيه أن يبين له كيف يجني ، ويقتطف ، ومن أين تؤكل الكتف .

فأكد له السروجي ان الحركة مطلوبة فيها ،. والنشاط لباسها ، والفطنة مصباحها وصلابة الوجه سلاحها .. وراح يعدد له مايتطلبه منه ذلك ، وعبر ذلك احتوت الوصية على حكمٍ عامة كقوله : اذا ازمعت الاغتراب والسفر فتخير الرفيق المسعد من قبل ان تصعد ، فان الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق ، وانشد أبياتاً تحمل ذات المعاني الوعظية .

ولما انتهى الأب ، بعد ان أوصى ابنه الايخلف ظنه فيه ، فقال له ابنه : يا أبت لاوضع عرشك ولا رفع نعشك، فلقد قلت سدداً، وعلمت رشداً ، ونحلت مالم ينحل والد ولداً ..

وتعهد أمامه بأن يتأدب بآدابه الصالحة .. ويهتدي بآثاره الواضحة حتى يقال ماأشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ... فإهتز أبو زيد طرباً لجواب ابنه وابتسم وهو يقول : من أشبه أباه فما ظلم ..

قال الحارث ، فأخبرت ان بني ساسان حين سمعوا هذه الوصايا الحسان فضلوها على وصايا لقمان .

المقامة الخمسون
البصرية

«..حكىٰ الحارث بن همام قال أشعرت في بعض الأيام هماً برح بي إستعاره ولاح علي شعاره ، وكنت سمعت ان غشيان مجالس الذكر ، يسرو غواشي الفكر ، فلم أر لإطفاء ما بي من الجمرة الا قصد الجامع بالبصرة .. وكان اذ ذاك مأهول المساند ، مشفوه الموارد ، يجتني من رياضه أزاهير الكلام ، ويسمع في أرجائه صرير الأقلام..» .

خص الحريري مدينته البصرة بهذه المقامة ، وجعلها مسك الختام ..

إذ شعر الحارث في بعض الأيام بأنه مهموم هماً مستعراً ، وهو يعلم ان حضور مجالس الفكر والأدب يسري عن النفس ، ويزيح الهموم والاحزان ، فلم يجد أفضل من المسجد الجامع بالبصرة لتحقيق راحته ، فهذا الجامع الكبير له فضل معروفٍ وذكر شهير ، وكان اذ ذاك عامراً بالعلماء والفضلاء وكثرة الطلبة حيث يتلقون علوم الفقة واللغة ، ويجتنون أزاهير الكلام ، حيث يسمع في أرجاء المسجد الجامع صرير الأقلام لتكاثر عدد النساخ والكتاب.. فأنطلق الحارث الى الجامع بعجالة ، فلما وصله ، وأبصر منتهاه ، تراءىٰ له شخص يرتدي ملابس رثة وقديمة ، يجلس فوق صخرة عالية ، وقد أحاطت به جماعة كثر فإتجه إليه وتأمل ان يجد شفاءه عنده .. ولم يزل ينتقل في أركان المسجد الجامع وسط حشد العلماء وطلاب العلم حتىٰ وصل بصعوبة الى مكان ذلك الشيخ ، فجلس قبالته حيث تأكد من معرفته لشخصه ، فاذا به شيخنا

السروجي لاريب فيه ، فإنزاح بمرآة هم الحارث ، وحين رآه ، كان الشيخ يخاطب الناس: ياأهل البصرة رعاكم الله ووقاكم، وقوىٰ تقاكم ، فما اضوع رياكم وافضل مزاياكم بلدكم أوفىٰ البلاد طهرة ، وأزكاها فطرة . وأفسحها رقعة ، وأمرعها نجعة ، وأقومها قبلة ، وأوسعها دجلة ، وأكثرها نهراً ونخلة وأحسنها تفصيلاً وجملة . دهليز البلد الحرام ، وقبالة الباب والمقام ، وأحد جناحي الدنيا ، والمصر المؤسس على التقوىٰ ، لم يتدنس ببيوت النيران ، ولاطيف فيه بالأوثان ، ولاسجد على أديمه لغير الرحمن ، ذو المشاهد المشهودة ، والمساجد المقصودة ، والمعالم المشهورة والمقابر المزورة . والآثار المحمودة، والخطط المحدودة ، به تلتقي الفلك والركاب ، والحيتان والضباب ، والحادي والملاح ، والقانص والفلاح ، والناشب والرامح والسارح والسابح ، وله أية المد الفائض والجزر الغائض .. ثم راح يصف أهالي البصرة بقوله:

زاهدكم أورع الخليقة وأحسنهم طريقة على الحقيقة ، وعالمكم علامة كل زمان ، والحجة البالغة في كل أوان ، وفيكم من استنبط علم النحو ووصفه والذي ابتدع ميزان الشعر واخترعه (يقصد ابو الاسود الدؤولي واحمد خليل الفراهيدي) وما من فخر الا ولكم فيه اليد الطولىٰ والقدح المعلىٰ ولاصيت الا وانتم أحق به وأولىٰ ، ثم انكم أكثر أهل مصر مؤذنين ، واحسنهم في النسك قوانين ، وبكم أقتدي في التعريف (الوقوف بعرفه اذ أول من فعل ذلك هو ابن عباس بالبصرة مع أهلها ثم تابعهم الناس) .

وعرف التسحير في الشهر الشريف ، ولكم اذا قرت المضاجع ، وهجع الهاجع ، تذكار يوقظ النائم ، ويؤنس القائم ، وما ابتسم ثغر فجر ، ولابزغ نوره في برد ولاحر ، الا ولتأذينكم بالأسحار دوي كدوي الريح في البحار ، وبهذا صدع عنكم النقل ، وأخبر النبي (عليه السلام) من قبل ، وتبين أن دويكم بالاسحار كدوي النحل في القفار ، فشرفاً لكم ببشارة المصطفىٰ ، وواهاً لمصركم وإن كان قدعفا ، ولم يبق منه الا شفاً..» .

ثم سكت السروجي وراح يتنفس بصعوبة ، وخاطب أهل البصرة ثانية واصفاً إياهم بأنهم أهل العلم المعروف ، والمعرفة والمعروف .. ثم راح يعرف بنفسه ، ويسرد مافعل سابقاً حيث شرق وغرب وأيمن وأشأم وأصحر وأبحر وأدلج وأسحر ، متحدثاً عن نشأته بمدينة سروج وخبرته في الحياة والاسفار والأخبار وجميل الكلام وبديعه ، مما رواه السمار ، وحداة الركبان وحذاق الكهان..

ثم راح يحدثهم عن حياته وخدعه ومكره وتكسبه بالكدية.. وبعد ذلك فليس الا

الندم ان نفع.. لذا فقد خاطب القوم طالباً منهم الصفح والمغفرة ، قائلاً :

وكنت رويت من الاخبار المسندة والآثار المعتمدة ان لكم من الله في كل يوم نظره ، وان سلاح الناس كلهم الحديد ، وسلاحكم الأدعية والتوحيد ، فقصدتكم انفي الرواحل وأطوي المراحل ..

وأعاد على مسامعهم ندمه عما فعل ، ودعا الله ان يقبل توبته فانه رفيع الدرجات ومجيب الدعوات، وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات.. وراح ينشد أبياتاً من الشعر يطلب فيها العفو والرحمة والمغفرة ، بعد ان مافعل في حياته .. قال الراوي: فراحت الجماعة تمده بالدعاء ، وهو يقلب وجهه في السماء حتى بكى بكاء مريراً ، وظهر اضطرابه وإرتعاده وخوفه ، فصاح: الله أكبر بانت إمارة الاستجابة وانجابت غشاوة الاسترابة ، فجزيتم ياأهل البصرة، خيراً..

وهكذا لم يبق من القوم الا من سر لسروره ، واعطاه ما تيسر من مال ، فقبل عفو برهم ، وراح يشكرهم ، ثم إنحدر من الصخرة ، متوجهاً الى شاطيء البصرة ، فتبعه الحارث الى حيث إختلى به ، بعيداً عن التحسس والتجسس ، فقال له: لقد فعلت غريباً في هذه المره ، وسأله عن رأيه في التوبة ، وهل هي صادقة فعلاً ، فأقسم السروجي بأن ماحصل له لشيء عجيب ، وان لدعاء القوم لمجاب .. فسأله الحارث زيادة في الإيضاح ، فقال السروجي: لقد قمت فيهم مقام المريب الخادع ، ثم انقلبت منهم بقلب المهيب الخاشع فطوبى لمن صفت قلوبهم إليه ، وويل لمن باتوا يدعون عليه ..

ثم ودع الحارث وانطلق ، واودعه القلق ، فلم يزل يعاني لأجله الفكر ، وراح يتسقط أخباره من الركبان وجوابي البلدان ، فحكى له من رآه ، بان السروجي عاد الى مدينته سروج بعد أن غادرها المحتلون العلوج .وكان زاهداً قد لبس الصوف وإصبح إمام الصفوف من الناس، فهو الزاهد الموصوف .

وسأل الحارث: أتعنون ذا المقامات؟

فقال القوم: إنه الآن ذو الكرامات ..

وحفزت الحارث هذه الأخبار فسافر الى مدينة سروج ، والتقى فعلا ، السروجي بمسجده ، وموضع تعبده ، زاهداً... ووجده متعبداً يصلي بين مريديه واتباعه، حتى أكمل إقامة الخمس ، وصار اليوم امس حينئذ تفرغ له وأخذه معه الى بيته، وشاركه طعامه البسيط ، ثم نهض الى مصلاة وتخلى بمناجاة مولاه حتى الفجر ، وهو ساهر في العبادة..

ثم انشد شعراً يعلن توبته وايمانه ، وطلبه المغفرة، ولم يزل يردد قصيدته بصوت رقيق حتىٰ بكىٰ الحارث لبكائه، كما كان في الماضي يبكي عليه،.. وخرج السروجي الى مسجده ليصلي الفجر، فصلىٰ الحارث مع المصلين .. وبعد انتهاء الصلاة تجمع حول السروجي المريدون وراح يغنيهم بدرسه وعلمه..

ولم يصدق الحارث مارأىٰ، وكأن السروجي شعر بما يفكر فقرأ:

فإذا عزمت فتوكل على الله..

إذ ذاك أيقن الحارث ماوصل إليه صاحبه ، فصافحه وقال له:

أمضي أيها العبد الناصح

فقال له: إجعل الموت نصب عينك ، وهذا فراق بيني وبينك . فودعه الحارث وهو يبكي ، وكانت هذه خاتمة التلاقي .

الخاتمة

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري، برد الله مضجعه :

هذا آخر المقامات التي أنشأتها بالاغترار (١) وأمليتها (٢) بلسان الاضطرار (٣) ، وقد ألجئت (٤) الى ان أرصدتها (٥) للاستعراض (٦) وناديت عليها في سوق الاعتراض (٧) ، هذا مع معرفتي بأنها من سقط المتاع (٨) ومما يستوجب ان يباع ولا يبتاع ، ولو غشيني (٩) نور التوفيق ، ونظرت لنفسي نظر الشقيق ، لسترت عواري الذي لم يزل مستوراً ، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً وأنا أستغفر الله تعالىٰ مما أودعتها من أباطيل اللغو (١٠) ، واضاليل اللهو (١١) ، وإسترشده الى مايعصم من السهو (١٢) ويحطىٰ بالعفو ، إنه هو أهل التقوىٰ (١٣) ، وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة . (١٤) .

(١) الاغترار: الجهل مع دعوىٰ العلم ، وهذا غاية التواضع ، ومعناه حملت عليها بالمكر والحيلة والالحاح علىٰ انشائها بغير إختبار مني .

(٢) امليتها : ألقيتها لمن يكتبها أو من ينقلها .

(٣) الاضطرار: اي القهر مني بحيث لاأجد بدأ من املائها .

(٤) ألجئت : اي ألزمت .

(٥) أرصدتها : عرضتها وأعددتها .

(٦) للاستعراض : اي لعرضها على الناس لينظروها ، وفي نسخة للاستعراض بالغبن اي لجعلها عرضاً وهدفاً .

(٧) الاعتراض : اي جعلتها معرضة ، مهيأة لأن يعترض عليها كل أحد اي لان يشفع علي، وينسبني الىٰ الخطأ .

(٨) سقط المتاع : أي من أدنىٰ الأمتعة ، كناية عن كونها من أخس المؤلفات في الفنون .

(٩) غشيني : أدركني وسترني (١٠) أباطيل اللهو: الكلام الساقط العديم الفائدة .

(١١) واضاليل اللهو: جمع أضلولة ، وهو مايضل به من إرتكبة .

(١٢) يعصيمهم من السهو اي يمنع ويحفظ من الخطأ .

الحريري
و
المقامات
و
عصرهما

بقلم : محمد الجزائري

▪ المقامات . الجذور والتجديد

شكلت «المقامات» ظاهرة مهمة في تاريخ الادب العربي القديم ، وترجع اهميتها ، كما يؤكد الباحثون[1] : «الى انها وجدت في ذلك الادب شكلا جديدا استطاع ان يغطي كثيرا من جوانب القصور التي نشأت عن عدم اكتمال الاشكال والانواع الادبية في المأثور من التراث .. وقد اكتسبت المقامات اهمية خاصة ، لكونها اضافت نماذج عالية من الادب الرفيع تمثل في مقامات بديع الزمان الهمذاني ، والحريري ..»

- كيف وصلتنا تسمية المقامات ؟

«المقامة» ، لغة ، ـ على قول ابن منظور في (لسان العرب) هي : المجلس .. ومقامات الناس ، مجالسهم ..

ولا يزال كثير من العرب في منطقة الخليج العربي يطلقون على مجتمع المسامرة اسم «المجلس» ، وما يدور فيه من قصص اسم «المقامة» .

ثم تطور المدلول اللغوي لهذه المفردة ، اذ يرى الدكتور جميل سلطان[2] : ان الكلمة انطلقت من ثم ، من افقها اللغوي والمجازي لتشمل الوانا من القصص والمواعظ والاحاديث ، الى ان تبلورت في مفهومها الاصطلاحي عند بديع الزمان الهمذاني ..

واذا تتبعنا هذه الطريق من المدلول اللغوي المجرد الى المدلول الفني مررنا بأنماط مقامية مختلفة ، واول ما يصادفنا فيها «مقامات الزهاد» التي روى (ابن قتيبة) بعضا منها في كتابه «عيون الاخبار» ، وهي مواعظ يقف بها الراوي امام الخليفة لنصحه وارشاده .

ولقد ظهرت الى جانب مقامات الوعاظ والزهاد هذه ، مقامات اخرى كانت رحاها تدور في داخل المساجد ، اشتملت على الوان من القصص والاساطير وفنون الحرب والثقافة العامة الى جانب الغاية الوعظية[3].

ونرى ان الخلفاء شجعوا هذه الطريقة بدرجة كبيرة لاسيما «معاوية» الذي عين ،

في بعض المساجد ، رجلاً في منصب «قاص» مهمته ان يذكر الناس وينصحهم بهذا الاسلوب .

ويرى الدكتور زكي مبارك[٤]: إن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون الواناً من المحاورات الادبية تعرف بالمقامات ، ويستشهد ، في ذلك ، بوصية إبن المدبر في «الرسالة العذراء»[٥] .. للمتأدب بالنظر في كتب المقامات والخطب والمحاورات ، ويرى انها انتقلت الى «كلام المعوزين الذين يتوسلون الى الاغنياء بكلام مسجوع فيقولون : ارحموا مقامي هذا ..» .

و «المقامات» في تعريفها الفني : «حكايات قصصية ، موشحة بالمواعظ والمُلَح ، يرويها جوابةٌ ذكي ، في نثر مسجوع ، موغل في التأنق والصنعة» . فالمقامة الفنية التي ابدعها بديع الزمان هي التي اتخذت شكلاً دراميأ لم يسبق اليه ،

فالمقامة الفنية : «قصة قصيرة بطلها نموذج انساني مكد او متسول ، لها راوٍ وبطل ، وتقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة ادبية ، او مسألة دينية او مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لوناً من الوان النقد او الثورة او السخرية ، وضعت في اطار من الصنعة اللفظية والبلاغية»[٦]

وقد تأثرت شعوب عديدة بهذا الفن الرفيع ، بخاصة بعد ان طوره وجود فيه الحريري الذي نالت مقاماته شهرة واسعة . والمقامات : جمع مقامة ، ومعناها ، ايضا ، «الخطبة» او «العظة» (على قول الهمذاني» وهي : نوع من «المحاورات الادبية التي انتشرت خلال القرن الثالث الهجري» حسب قول ابن المدبر ، واعتبرها «جب»[٧] : «اكثر ضروب النثر العربي اناقة وتهذيباً .»

٢

■ بديع الزمان الهمذاني

لابد من الوقوف عند الهمذاني، لنفهم الحريري ومقاماته .. اذ استخدم الاول حكاياته من تجاربه ومعاناته في بلاد فارس ،حيث لقي كل اصناف الناس ،من المكدين الى الادباء والوزراء ، فصنع نحواً من اربع مائة مقامة ، لم يبق منها الا اثنتان وخمسون ، وعلى هذه المقامات قامت شهرته .

وهو يستخدم ، في هذه الصور الهازلة ، راويةً تاجراً ذكياً اسمه (عيسى بن هُشام) ، ليحدثنا عن مغامرات مكدٍ يعد له مكراً وسخرية وخبثا هو (ابو الفتح الاسكندري) ، فيكشف من خلالها عن كثير من جوانب الحياة والعادات في ذلك الوقت ، ويسخر من امزجة مختلف الطبقات ، ولاسيما الطبقة المترفة والحاكمة .

ورغم كل ما تتصف به هذه القصص من حيوية وذكاء ، فان جاذبيتها تكمن في البراعة اللغوية المذهلة التي تتجلى فيها ،.. فالهمذاني اذ يتلاعب بالالفاظ الغريبة والمهلمة ، ويتفنن في المسجوع ذي الفواصل المتوازنة ، القائم على ما ذكرناه من الانتظام الفذ الاصيل في اللغة العربية ، قد جعل المقامة النموذج الرفيع للنثر العربي الفني ..

وقد امتازت مقامات الهمذاني بالسجع الشعري ، وبالتورية والجناس والكناية التي تلائم ذوق اهل ذلك الزمان ، وإن كانت مستعصية الفهم من الناحية اللغوية الاّ على فئة قليلة جدا من الخبراء .

ومن طريف ما يروى عن بديع الزمان انه كان يحفظ القصيدة التي تتجاوز الخمسين بيتاً ويؤديها الى آخرها لا يسقط منها بيتاً بمجرد سماعه إنشادها مرة واحدة . كما انه ايضا ـ على ما يقال[٨] ـ كان ينظر نظرة واحدة خفيفة الى الاربع والخمس الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ، ثم يعيدها عن ظهر قلبه .

وكان ربما يكتب الكتاب المقترح فيبتدىء بآخر سطر ثم هلم جرا الى الاول . وهذه ـ

كما يقول د. نوري جعفر ـ «ظاهرة سايكولوجية معروفة لم يستطع علماء النفس ايجاد تعليل علمي لها لحد الان على ما نعلم»، لكن نظائرها كثيرة قديمة وحديثة، منها قصة «البحتري» مع «ابي تمام» عندما دخل على ابي سعيد محمد بن يوسف الشفري وانشده قصيدة جديدة اتهمه ابو تمام بأنه اخذها عنه، فأعاد انشادها.. وكان البحتري غلاماً فأحرج وخجل.. لكن أبا تمام بادره: «الشعر لك يا بني، والله ما قلته قط ولا سمعته الاّ منك»، ومن يومها ـ يقول البحتري ـ «لزمته بعد ذلك وأخذت عنه وإحتذيتُ به»..

■ لماذا تميز بديع الزمان عن مقامات الزهاد ومن سبقه؟

يتساءل احد الباحثين[٩] ، ويجيب: لانه تجاوز تلك الحدود التي حصره فيها المؤرخون، وانطلق في آفاق ارحب، حيث اقام بناءً معمارياً متكاملاً ذا عناصر درامية قوامها هذه الاصول:

اولا: الحدث: وهو في المقامات الهمذانية مناسبات متعددة تتيح لابي الفتح الاسكندري ممارسة دوره المرسوم.

ثانيا: الشخصيات: وهي متعددة ايضا، ولكننا نستطيع ان نميز فيها الشخصيتين الرئيستين: شخصية الراوي عيسى بن هشام وشخصية البطل ابي الفتح الاسكندري.

ثالثا: المضمون: وهو يتجاوز حدود الحدث الضيقة كي يعبر عن قيمٍ اكثر اتساعاً في المجتمع العباسي، اذ اتخذ بديع الزمان من شخصيةً البطل المتسول منفذاً يطل منه على صورٍ متعددة في بيئته.

من ثم استطاع بديع الزمان ان يجعل من نموذجه الفني قمة بلاغية وذلك باستيعابه لجميع العناصر البلاغية السائدة في عصره، حتى غدا نموذج المقامة رمزاً لهذا الاسلوب في القرن الرابع، على يديه، وعلى يدي الحريري مِنْ بعد.

وهذه العناصر في فن المقامة هي، في ذات الوقت، العناصر الرئيسة في فن التكيف الدرامي، ذلك ان الاحداث والابطال لا تنطلق على وفق رغبة عشوائية، بل هي محكمة بالسياج الدرامي للفن المقامي[١٠].

٣

■ أبو محمد القاسم الحريري

والحريري هو : ابو محمد القاسم بن علي بن عثمان الحرامي البصري الحريري ولد سنة ٤٤٤هـ - ١٠٥٤م في ضاحية من ضواحي البصرة تدعى «المشان» ثم انتقل منها واستقر في حي «بني حرام» ، وبنو حرام هم خطة كبيرة من خطط البصرة تنسب الى حرام بن سعد بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض ، نبع من ابنائها كثير من الادباء والمفكرين ، كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان[١١] - واصبح الحريري اديبا درس على يديه الكثير من طلاب الادب وعلوم اللغة ، وعين في ديوان الخلافة بالبصرة في البريد بمنصب «صاحب الخبر» .

كان الحريري متواضعا في الملبس والحياة ، معتزليا في الفكر والمذهب ، وكان له عادات تسيء الى مظهره لم يستطع تركها ، فقد كان ينتف لحيته دائما ولم يهتم بنظافته (على رأي ابن خلكان)[١٢] ..

يروي ابن العماد ان شخصاً غريباً سمع بشهرة الحريري وصيته فجاءه مرة ليأذ عنه ، فما ان رآه حتى تلاشى اعجابه ، ولم يصدق عينيه مما رأى ، لأن مظهره لا يدل على ما يتمتع به من مكانة ادبية مرموقة حيث يجالسه العلماء والادباء في البصرة وبغداد ، فتردد هذا الشخص في سؤاله ، وكان الحريري جالساً يرقب تردده وفهم انه استزرى شكله ، وعندما علم هذا الرجل بأنه الحريري تقدم اليه وطلب منه ان يدرسه ويملي عليه فقال له الحريري اكتب :

ما انت اول سار غره قمر

ورائدٍ أعجبته خضرة الدمن

فانظر لنفسك غيري إنني رجل

مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني[١٣]

والحريري إقتفى أثر بديع الزمان فاستخدم الشكل نفسه ، وإصطنع لنفسه راوية

وبطلاً ماكراً يلتقيان في مواقف حيكت بلباقة ، وفي اشكال من التخفي لا تخطر على بال .

وقد وافق كتاب المقامات من السعد ـ كما يقول ياقوت ـ ما لم يوافق مثله كتاب ، إذ إن ذيوع صيت هذه المقامات ، وتزاحم الحكام والمترفين على حوزتها ، بالاضافة الى شعبيتها ، والصور الرائعة التي عكسها الحريري فيها استهوت حتى الفنان العراقي ، فأبدع ايضا في صور ملونة طلعت الى النور خلال النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي ممثلة في اوج ما وصلت اليه المدرسة العراقية في الرسم والتلوين على يد محمد بن يحيى الواسطي ، كما سيأتي ذكره لاحقاً .

اعتبر جرجي زيدان ان الحريري ومقاماته تشكل «المدرسة الاولى التي يتعلم فيها الشباب الادب والكتابة وأساليب البيان» .

والمقامات مكرسة «لكفاح بطلها ابي زيد السروجي ـ يقول د . خالد الجادر ـ «من اجل العيش بروح مثابرة مكدة تجتاز العقبات دون ان تفكر بالنكوص او التردد ... إن افق هذه المعركة المستمرة التي لا تعرف الكلل ولا تحس باليأس هي مرآة لفرد مكافح في ذلك المجتمع ..»(١٤)

يقول الحريري في مقدمة المقامات :

« .. وانشأت خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره . وملح الادب ونوادره ، الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها الامثال العربية ، واللطائف الادبية ، والاحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية ، والاضاحيك الملهية ، مما امليت جميعه على لسان ابي زيد السروجي ، واسندت روايته الى الحارث بن همام البصري ..»

« .. وتسمية الحارث بن همام عنى الحريري بها نفسه اخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام : كلكم حارث وكلكم همام ..»

ويقول الحريري :

«وما قصدت بالاحماض فيه (اي الانتقال من اسلوب الى اخر مأخوذ من أحماض الابل اي انتقالها من مرعى نباتٍ حلو الى مالح) الا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه (السواد يعني الجماعة) ولم اودعه من الاشعار الاجنبية الا بيتين فذين اسست عليها بنية المقامة الحلوانية ، وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكرجية ، وماعدا ذلك فخاطري ابو عذرة (يقال ابو عذرها اذا كان هو الذي إفتضها ، والاصل فيه أبو

عذرتها . فحذفت التاء منه ، والمراد إنه اول قائل لهذا الكلام) .

ثم يقول الحريري : « .. ومن نقد الاشياء بعين المعقـول وانعم النظر في مبـاني الاصول نظم هذه المقامات في سلك الافادات ..»

ويقول : «... ثم اذا كانت الاعمال بالنيات .. فأي حرج على ما انشأ ملحاً للتنبيه ، لا للتمويه .. و .. نحا بها منحى التهديب لا الاكاذيب ، وهل هو في ذلك الآ بمنزلة من انتدب لتعليم ، او هدى الى صراط المستقيم ..»

(انتدب : دعا له فأجاب)

تميزت مقامات الحريري بأن مؤلفها جمع قدراً لا حصر له من المفردات مع اشد انواع المحسنات والحيل اللفظية ، فإستعمل في بعض المقامات الفاظاً كل حروفها غير منقوطة ، او غير متصلة ، كما جعل غيرها بحيث تتعاقب كلماته معجمة بعد مهملة ، أو يمكن ان تقرأ عباراته في الاتجاهين من اليسار الى اليمين ..

وبمقامات الحريري بلغ النثر العربي ذروة جماليات الشكل الى جانب المضمون الهادف ..

٤

عصر الحريري والمقامات

بمفهومنا المعاصر ، يكون الحريري ـ بالنسبة لظروف عصره ومجتمعه كاتبا تقدمياً ملتزما من الناحيتين الاجتماعية والفكرية .

ـ يؤكد د . نوري جعفر[٢٧] ... وكان الحريري ملتزما ايضا «من الناحية الفنية الجمالية اللغوية» :

١ ـ كان ملتزما من حيث المحتوى الإجتماعي بمبدأ (العدالة الاجتماعية) وباستهجان الظلم والاضطهاد ، وكل الظاهرات السلبية التي سادت مجتمع دول الطوائف .

٢ ـ ومن ناحية التعبير : كان ملتزما بكل ما هو انيق وجميل من حيث الالفاظ المترفة المنتقاة ، وانتظامها في العبارات والفقرات .

٣ ـ وكان ملتزما ، ايضا ، ازاء تمجيد كل ما هو جميل ونظيف في علاقات الناس الاجتماعية وتصرفاتهم من جهة ، وازاء شجب كل ما هو قبيح وناب في حياة الافراد ، وفي ارتباطاتهم الاجتماعية من جهة اخرى . وبذلك .. تخطى الحريري ، بفنه وفكره ، مجتمعه وعصره .

كيف ؟ . وكيف كان مجتمع الحريري ، انذاك ؟

يؤكد د . نوري جعفر بأن مجتمع الحريري كان متخلفا من بعض الجوانب بالمقياس الحضاري الحديث «حيث انتشر نظام الاقطاع ، ونزعة الحكم الفردي المطلق ، وان كان ذلك المجتمع ـ في الوقت نفسه ـ مجتمعا تقدميا ، متفوقاً ـ بالنسبة لظروفه الزمانية والمكانية وفي ضوء قرينته التاريخية : المجتمع الاوربي الذي كان يعيش آنذاك في الظلام» .

وهذا يعني ان مجتمع الحريري اتصف ايضا بجوانب ايجابية انسانية وتقدمية ، وان جوانبه السلبية التي جسدها في المقامات عن سلوك ابي زيد ، ليست مقصورة على ذلك المجتمع وحده في ذلك الزمان وحتى في زماننا هذا ..

اي ان سلوك ابي زيد لا ينطبق على سلوك جميع المواطنين وحتى اكريتهم آنذاك ، كما إن مجتمع الحريري لا ينفرد وحده بتلك الجوانب السلبية دون سائر المجتمعات التي عاصرته ، والتي جاءت بعده .. بل ان تلك السلبيات هي حالات تتكرر في كل الازمنة والعصور .

ان الجوانب السلبية هي التي حملت الحريري ، وهو الاديب المرهف الحس على التعبيرعن امتعاضه منها بطريقته الخاصة ، ومبالغاتها الطريفة ، تعبيرا سايكولوجيا عميقا تصبغه اللوعة وحرارة المشاعر الجامحة .

وهذا يعني ان الحريري تفهم الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ والسياسية المتردية منذ بداية القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) ، وبخاصة بالنسبة لجماهير الشعب ومراتبه الدنيا .. حيث افتقد الاستقرار السياسي ، وتزعزع الامن ، وبدأ الناس يشعرون بالتمزق والضياع ، اوعدم الانتماء .. ، وهذا ما دفع الحريري لان يرفض ذلك في المقامات .

اما العوامل الاساس التي ادت الى ذلك ، فتعود الى تدهور السلطة المركزية للخلافة العباسية ، وتمرد الامراء وانفصالهم بمقاطعاتهم عن جسم الدولة ، الواحد تلو الاخر وتكوينهم دويلات او امارات متعددة ومتنافرة بعضها غريب عن البيئة العربية كالحكم البويهي للعراق (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ) . وحكم (السلاجقة) ، الذي اعقب ذلك واستمر اكثر من قرن ، وهو العهد الذي نشأ فيه الحريري وترعرع ، وشهد ايضا مصرع الملك السلجوقي (ملكشاه) ووزيره (نظام الملك) ..

كما ان الفترة التي عاش فيها الحريري شهدت بداية الحروب الصليبية وإحتلال القدس ، وكان ذلك قبيل الخلافة العباسية بزهاء نصف قرن .

ومع ذلك .. فان ظهور دول الطوائف لا يخلو من مزايا للمبدعين من بعض النواحي ، وبخاصة إذا تذكرنا عدم كفاءة الكثير من الخلفاء العباسيين المتأخرين ، في ادارة شؤون البلاد والدولة بحزم ووقوعهم تحت سيطرة رجال الحاشية الماكرين ، عسكريين ومدنيين ، واضطراب الاحوال العامة في حاضرة العرب الكبرى مدينة السلام .. فالمبدعون يقفون ازاء تلك الاوضاع معبرين عن ضمير الشعب والامة ، مما يجعل نشاطهم الفكري والابداعي محتدما ، اذ ان الوضع المتدهور سياسيا .. في مركز الخلافة العباسية ، ادى الى انعاش التقاليد العربية ، والتشبث بها حصانة وتعميقا للذات وللهوية ، حيث يعتبر المثال الاعلى للرئاسة اتصاف صاحبها بالشهامة

والسماحة والاريحية والمروءة والنخوة ، التي يلوح ان الخلفاء العباسيين المتأخرين كانوا يفتقرون اليها لعوامل ذاتية وموضوعية .

ومع هذا فان ملوك الطوائف لم يقطعوا صلتهم الروحية (الشكلية بالطبع) بمركز الخلافة العباسية ، وان كانوا ـ بالفعل ـ قد تمردوا عليها واخذوا ينافسونها .

وبالرغم من التردي السياسي المشار اليه ، وربما بسببه . كحافز مهم ، قد انتعش الادب ، وان كانت سوقه كاسدة ، بتعبير الحريري نفسه ، بمعنى ان مردوده المالي كان ضئيلا ، لكن مردوده الاخلاقي والتعبوي كان كبيرا .

وقد برز الحريري في تلك الفترة بالذات اديبا من الطراز الاول ، محرضا وداعية .. ويلوح ان ظاهرة انتعاش الادب في ظروف سياسية واقتصادية فاسدة ظاهرة مألوفة في التاريخ ، كما ان انتعاشه في ظروف الاحتدام مع العدو ، ظاهرة ثابتة .. ايضا .. مع ذلك فالحريري تجنب ـ على قدر المستطاع ـ الانغمار المباشر ژالعنيف في الملابسات السياسية والاحزاب والتيارات الاجتماعية الحادة المتضاربة ، وتحاشى الصراع الدائر آنذاك بين مختلف الفئات السياسية المتنافسة على السلطة السياسية ، رغم معتقده المعتزلي الذي لم يظهر بشكل حاد ، ورغم روابطه بالمسترشد بالله (١٠٩٣ ـ ١١٣٢م) الخليفة العباسي التاسع والعشرين ، عبر وزيره جمال الدين عميد الدولة ، من جهة اخرى .

كما كان وثيق الصلة بالامير دبيس بن صدقة الفارس العربي المشهور الذي لقب «ملك العرب» على ايام الحروب الصليبية ، والذي اطراه الحريري في احدى مقاماته ، ذلك .. لان الحريري لم يكن يبحث عن جاه او وجاهة ..

ورغم ان الحريري شغل ، كما ذكرنا ، منصب صاحب الخبر او رئيس خدمة الاعلام في ديوان الخلافة (وزير الاعلام ـ بالمفهوم المعاصر) ، لكن ذلك لم يمنعه من تعميق ثقافته اللغوية ومعرفته العميقة باسرار العربية .. وعبر عن ذلك ليس بمقاماته ، حسب ، بل بوضع كتابه النفيس : «درة الغواص في اوهام الخواص» والذي بين فيه اوهام الكتاب واخطاءهم ، كما برز ايضا بارجوزته في النحو المسماة «ملحمة الاعراب» ، هذا اضافة الى ديوان رسائله وشعره الكثير ، والشعر الذي ورد في المقامات ، بمعنى ان الحس الاصلاحي كان يغلب على الحريري سلوكا وفكرا دون تطرف سياسي . وتلك علامة من علامات انصرافه للادب وانغماره فيه كهواية ، رغم كساد سوقه ، ومما ساعد على ذلك وضعه المالي الجيد فقد كان والده تاجر حرير ، كما

اشرنا ، في مدينة البصرة ، وترك له بساتين نخيل ورثها الحريري ، واورثها ابنه من بعده .

ويرى د . نوري جعفر العديد من اوجه التشابه بين مقامات الحريري وتوجهاتها ونزوعها الانساني ومثالية بطلها ، وبين انتاج عصر النهضة الاوربية ومثالية فنانيها وبخاصة من ناحية الصراع بين دعاة الحق والعدالة الاجتماعية وبين الغارقين في الرذيلة الى الاذقان .

هذا من ناحية ..

ومن ناحية اخرى فان الولايات الايطالية ودول الطوائف في مشرقنا كانت اكثر تقدما في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية من الدول الاخرى المجاورة في القارتين الاوربية والاسيوية ،.. وقد حصل ذلك بفعل مبدأ التطور غير المتناسق في نشوء الاقطار المعروفة آنذاك في فترة القرون الوسطى ، فقد سبقت الولايات الايطالية الاقطار الاوربية الاخرى طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر اقتصاديا واجتماعيا ..

وتتشابه ظروف المعاناة السياسية في الفترة التي عاش فيها الحريري مع الفترة التي سبقتها والتي عاش فيها بديع الزمان الهمذاني ، من حيث لجوهر ، بل هي امتداد لها .. اذ ان الدولة العباسية في منتصف القرن الرابع وعلى عهد بديع الزمان كانت تعيش مرحلة التقسيم ، وهو خطر يهدد جسم الدولة والامة ، وكما هو معروف فقد نشأ بديع الزمان في المناطق الشرقية التي يسيطر عليها الفرس ، ذوي الطموح بالسيطرة والقفز على الخلافة ، ولقد جال كثيرا في المناطق التي كان يهيمن عليها بنو بويه .. وفي خضم الانفتاح السياسي والثقافي المليء بالصراع الطائفي والمزايدات ، والصراع العنصري ، ظهر بديع الزمان ، وهو على خلاف الحريري كان عليه ان يصل الى قمة الكسب المادي والادبي عن طريق الملق والمداهنة واراقة ماء الوجه ، وهو سبيل غيره من الادباء .. ولكن بديع الزمان كان قليل الحيلة فأورثه ذلك ألماً شديداً ، حيث اضطر في نيسابور الى ممارسة الكدية ، والحقيقة انه دفع الى ذلك دفعا ، على مافيه من فضل وعلو همة ، وتلك هي المأساة التي اوجدت لديه ادب المقامة التي صب فيها ثورته على نظام الحياة العباسية بأسرها ..

في حين لم يواجه الحريري بذلك الضنك المادي ولا بالعزلة الطائفية او المذهبية ،.. ويذهب بعض الباحثين ، دفاعا عن الهمذاني ، بأنه عربي الاصل سني المذهب

وذلك «سر شقائه في بلاد فارس» ، فهو من عرب الحجاز الذين هاجر اهلهم مع بداية الفتح وظلوا على ما كانوا عليه من صفاء العقيدة .

يقول الهمذاني : «وانا ، وان لم اكن خراساني الطينة ، فاني خراساني المدينة ، والمرء من حيث يوجد ، لا من حيث يولد ، والانسان من حيث ينبت لا من حيث يثبت» وفي رسالته الى الشيخ ابن احمد الاسفراييني ، وهو اول من استوزر للناصر لدين الله يقول الهمذاني : «اني عبد الشيخ واسمي احمد ، وهمذان المولد وتغلب المورد ومضر المحتد ..» وهذا ما كان يعاني منه ، خاصة بعد مناظرته المشهورة مع الخوارزمي ، التي مات بعدها بخمس سنوات عن اربعين عاماً .. في حين لم يعان الحريـري من مشكلة النسب ، ولا المال ، ولا العشير ، ولم يخضع لتلك الصراعات والمعاناة ، فتفرغ الى ابداعه ، وامده الله بعمر طويل فأعطى واثرى ، فانتشرت مقاماته في الارجاء ، وذاع صيته وجودة ابداعه ، حتى باتت مقامات الحريـري هي الاكمل تناولاً ، والاشمل قراءة ودرساً وشرحاً حتى يومنا هذا .

٥

المقامات والتصوير

لابد ، عند تناول مقامات الحريري ، من الاشارة الى الرسوم التي زينتها ، لانها شكلت اهمية كبرى لدى الدارسين والباحثين ، وخاصة رسوم الفنان العراقي يحيى الواسطي .

ذلك .. ان شهرة المقامات وسعة انتشارها وجودة مستواها دفعت الفنانين المصورين ان يزيدوا هذا الاهتمام برسم صور جميلة توضح النصوص فأصبح المخطوط ذا اهمية فنية اضافة لاهميته الادبية والابداعية ، خاصة وان رسوم الواسطي اصبحت اساساً منهجيا لدراسة فن المدرسة العراقية في التصوير ، بل والتصوير عند العرب ، اجمالا .

اشار الباحثون الى وجود احد عشر مخطوطا من المقامات مصورة برسوم جميلة ، توضح الحوادث التي جرت فيها . وهذا العدد لم يبلغه اي مخطوط عربي من قبل ، علميا كان ام ادبيا ..

واشهر هذه النسخ ، تلك التي رسمها الواسطي والمحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٥٨٤٧ ، ونسخة باريس الاخرى برقم ٦٠٩٤ ، ونسخة باريس الثالثة برقم ٣٩٢٩ (خزانة الكتب الوطنية في باريس) ، ثم نسخة لينينغراد وهي محفوظة في المتحف الآسيوي بلينينغراد أو معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم بتلك المدينة العريقة تحت رقم ٢٣ . S . ثم نسخة لندن المحفوظة في المتحف البريطاني تحت رقم or:200، ونسخة جامع السليمانية باستامبول تحت رقم Esad EFENDI 2916.

ولا نريد هنا تحليل اللوحات تقنياً ، او ما جرى لبعض نسخها من تشويه (تقطع الرؤوس وسوى ذلك ممن نظروا الى فن التصوير بعقلية متزمتة حَد التحريم) ، بل هدفنا استكمال صورة الاهمية التي حظت بها مقامات الحريري ابداعياً ..

لقد تتبع الواسطي ، في رسومه ، حوادث المقامات صفحة صفحة ، فصور كل

المقامات ما عدا اثنتين منها لم يعرف السبب ، بعد ، في تركها ، هل صورت ثم فقدت من المخطوطة ، وهو السبب الارجح ، من إهْمال تصويرها كما يعتقد البعض .

جعل الواسطي لكل مقامة ثلاث او اربع صور سجل فيها ما دار من لقاء او محاورة وتوديع ، واحيانا افاض في الوصف الذي ذكر خلال المقامة ، وتتبع الظروف المارة ببطل المقامات : ابي زيد السروجي ، فيظهره بطلاً تارةً ، وواعظاً تارة اخرى ، ومسكيناً فقيراً .. الخ .

والواسطي رسم حتى الحوادث الغريبة وغير العادية التي وردت في المقامات كمنظر امرأة تلد ، او صورة منافية للاداب . رسمها بجرأة ، ولم يتركها .. وبهذا اكتملت صور المقامات الخمسين حيث وجدت ، وما تركه الواسطي رسمه غيره من الرسامين من قبله او بعده ..

يشير الباحثون الى كون المقامات رحلة طويلة في اقطار الوطن العربي تشتمل على ذكر الكثير من المدن ، في العراق ومصر وبلاد الشام واليمن ، لذا فقد عرضت عادات المجتمع العربي ، وبينت عيوبه في كل منها باسلوب ساخر ، لاذع ، احيانا ، وعرضت الذل والخضوع لاهلها احيانا اخرى .. ولان الحريري في مقاماته اجتاز حدود المجتمع العربي ، فذهب الى بلاد فارس وذكر بعض مدنها وعرض احوال اهلها ، كما فعل بديع الزمان من قبل ، فانه توسع في رسم بيئة ذلك الزمان وبنيته الحضرية .

صور هذه المقامات ، كما قلنا احد عشر رساما ، لكنهم لم يكونوا يفخرون بعملهم ، لذا لم يهتم بذكرهم المؤرخون او الشعراء او الادباء لظروف تتعلق بالموقف من الرسم والنحت .. وكان لهذه الظروف تأثير كبير على نتاجهم المحدود ، اذ لم يبلغ المصور المرتبة العليا او ينال الشهرة التي نالها اقرانه من الخطاطين او المذهبين او المزخرفين او النقاشين ، بل كان المصور تابعا لهم يحدد له الخطاط المساحة التي يرسم .

من هنا جاءت الصعوبة في معرفة اسماء المصورين الذين رسموا صور المقامات ، فلم يكونوا يوقعون باسمائهم على منتجاتهم ، فنجد انه لم يصلنا من بين الاحد عشر مصورا الذين رسموا المقامات غير خمسة رسامين اولهم واشهرهم يحيى الواسطي ، ومن بينهم احمد بن جلبة الموصلي ، وابو الفضل بن ابي اسحق ، وغازي عبد الرحمن الدمشقي .

والواسطي كان الاكثر جرأة في تثبيت اسمه على اخر صفحة من مخطوطاته المحفوظة في باريس حيث كتب :

«فرغ من نسخها يحيى بن محمود بن يحيى بن ابي الحسن كوريها الواسطي بخطه وصوره اخر نهار يوم السبت سادس شهر رمضان سنة اربع وثلاثين وستماية ..»[٢٨]

وقد اتبع الواسطي في رسمه الطريقة الخاصة التي كانت سائدة في مدرسة واسط وهي ان يرسم بالقلم بالمداد الاسود الناتج عن حرق الياف الكافور وخلطها بزيت نباتي (زيت الخردل) فتساعد هذه المواد على اظهار التفاصيل الدقيقة في الصور ، وبخاصة ابراز تجاعيد الوجه وطيات الملابس ـ كما يقول ابراهيم جمعة .

إمتاز الواسطي بمزج الالوان باتقان ، وتحضيرها عند الحاجة اليها لسرعة تلفها . وهذا الاتقان ساعد على بقاء صوره في المخطوطة سالمة من التلف الذي يصيب عادة المخطوطات المصورة عند تعرضها للرطوبة ، اذا قيست بالنسبة لصور المخطوطات الاخرى .

■ المصادر والمراجع :

(١) نور عوض ، د . يوسف : فن المقامات بين المشرق والمغرب / مكتبة الطالب الجامعي / ط٢ / ١٩٨٦ ـ مكة المكرمة / ص ٥ .

(٢) سلطان ، جميل : فن القصة والمقامة / ص ٢٣ .

(٣) فن المقامات / المرجع الاسبق .

(٤) نفسه / انظر مبارك ، د . زكي : النثر الفني / ج١ ص ٢٠٠ .

(٥) ابن المدبر / الرسالة العذراء جـ٧ / دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م .

(٦) فن المقامات / المرجع السابق نفسه .

(٧) جب : تراث الاسلام جـ١ / ص ١٨٧ / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .

(٨) د . جعفر ، نوري ، مع الحريري في مقاماته / الموسوعة الصغيرة ١٩٠ / دار الشؤون الثقافية بغداد / ط١ / ١٩٨٦ .

(٩) (١٠) فن المقامات ـ نفسه .

(١١) الحموي ، ياقوت : معجم البلدان / ج ٣ ص ٢٤١ .

(١٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان / جـ ١ / ص ٤٢٠ .

(١٣) الحنبلي ، ابن عماد : شذرات الذهب / جـ ٤ ص ٥٢ .

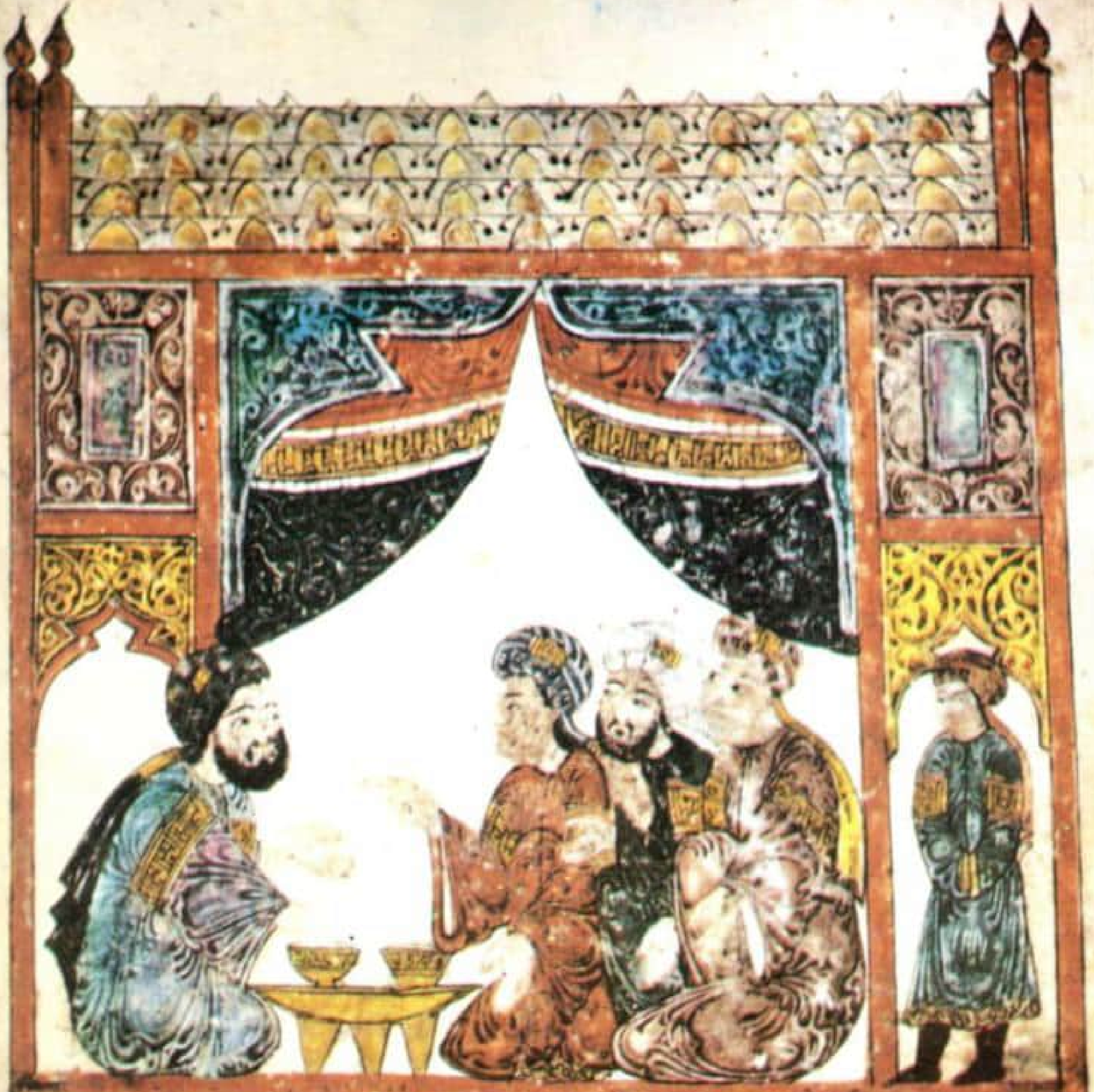
وجاء في (معجم الامثال) : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، يضرب لمن خبره خير من مرآه ، ويروى ان اول من قاله المنذر بن ماء السماء ، ويظهر ان الحريري قد أخذه وصاغه بهذا البيت .

انظر : الميداني ابو الفضل احمد بن محمد ابراهيم (مجمع الامثال / طبعة بولاق / ١٢٨٤هـ ـ ١٨٦٦م .

(١٤) الجادر ، د . خالد : المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي / وزارة الاعلام اللجنة التحضيرية لمهرجان الواسطي / نيسان ١٩٧٢ / ص ١٩ .



وحسبك سبيل الذي يجني الثمر الا ان يقيدنا الجوع ويحول دون المجموع قال فكانه
اطلع على ارادتنا ورمى عن قوس عقيدتنا لا جرم انا آنسناه بالتزام الشرط واثبتنا على حلفه



... ناراج وذكينا السراج تأملته فاذا هو ابو زيد فقلت لصحبي
... ارد فان يكن افل قمر الشعرى فقد طلع قمر الشعر او


وسكني ومسكني وحولي وحالي ومآلي ومالي ولا تلجئني لغيري ولا ٣٤
تسلط علي مغيرا واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا اللهم احرسني بعينك وعونك
واخصصني بأمنك ومنك وتولني باختيارك وخيرك ولا تكلني الى كلاءة غيرك
وهب لي عافية غير عافية وارزقني رفاهية غير واهية واكفني مخاوف الأزل

أمْ أشكرُ أمْ أتناسى فعلتَهُ أمْ أذكرُ فائدتَهُ وإنْ كانَ أسلفَ الجريمةَ وممّنْ تمَّ فمنْ غنيمةٍ أنهلتْ
هذهِ البهمةُ وبتنبيهِهِ انحازتْ لي هذهِ الغنيمةُ وقدْ خطرَ ببالي أنْ أرجعَ إلى أشابي
وأقنعَ بما أُتيحَ لي ولا أُتعبَ نفسي ولا أجمالي وأنا أودّعُكمْ وداعَ مجانفٍ وأستودعُكمْ
خيرَ حافظٍ ثمَّ استوى على راحلتِهِ راجعًا في حافرتِهِ ولاويًا إلى زافرتِهِ فغادرنا



بعدَ أنْ وجدتُ عيشَهُ وزايلنا أنسُهُ كدنتُ غابَ صدرُهُ أو ليلُ الغلِّ بدرُهُ

المربع والمربع واحلوني محل الأنملة من الاصبع واتخذوني ابن انسهم
عند الولاية والعزل وخازن سرهم في الجد والهزل فاتفق انهم ندبوا
في بعض الأوقات لاستقراء مزارع الرزداقات فاختاروا من الجواري
المنشآت جارية حالكة الشباب تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب



وتنساب في حباب كالحباب ثم دعوني الى المرافقة واستدعوني للمرافقة فلما توركنا
الدهماء وتبطنا الولية الماشية على الماء الفينا بها شيخا عليه بزة بال قد
البس فعاف الجماعة محضره وعنفت من احضره وهمت بإبرازه من السفينة

ادّ زكاة النعم كما تؤدّي زكاة النَّعم والتنوّر لاهل الحرم وكما المتنوّر للاهل

والحرم وقد اصبحت بحمد الله عميد مصرك وعماد عصرك ترجى الركائب الى حرمك وترجى

الرغائب من كرمك وتنزل المطالب بساحتك وتستنزل الراحة من راحتك وكان فضل



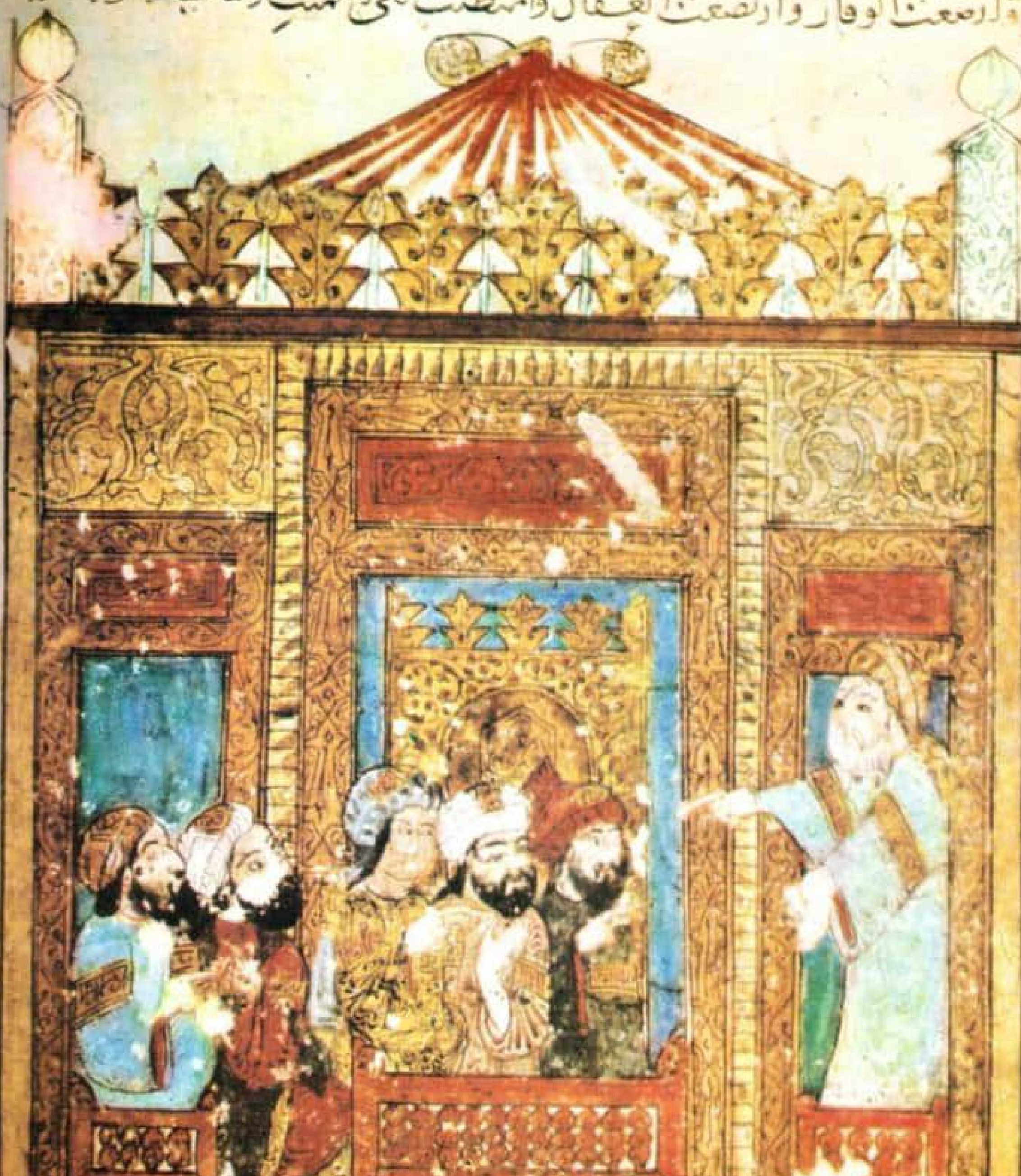
الله عليك عظيما ثم ينتج يسر بعد الاعسار وعمر الاعتاب حين تاب فقصدتك

من محلة نازحة وحالة رازحة آملا من بحرك دفعة ومن جاهك رفعة والتأميل

افضل وسائل السائل ونائل النائل فاوجب لي ما يجب عليك واحسن كما احسن الله


156

ولا ضعنا الوقار ولا رضعنا العقار وامتطيت مطى الكميت وناسبت النوبه كالميت



ثم لم اقنع بما ثبت لكم في طاعة ابي مرة حتى عكفت على الخندريس في يوم الخميس وتشرعت

مقامات الحريري
نص معُد
الطبعة الاولى ١٩٩١

الناشر : وزارة الثقافة والاعلام . دار ثقافة الاطفال
العراق : بغداد ص . ب ٨٠٤١

سلسلة التراث الذهبي
تصدر عن قسم النشر في
دار ثقافة الاطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير التحرير : فاروق يوسف

وزارة الثقافة والإعلام

دار ثقافة الأطفال

السعر ديناران

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٧٥) لسنة ١٩٩١

مطبعة الديوان